لَذَّةُ العِبَادة

(منهج عملي للتربية الإيمانية)

تأليف

خالد السيد رُوشه

تقديم

الشيخ الدكتور/ أحمد فريد

« حفظه الله »

الطبعة الثالثة

١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع/ ١٤٧٢/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولي/ I.S.B.N.: 977 - 338 - 146 - 3

الناشر



دار الصفا والمروة بالإسكندرية
١٨٥ ش جمال عبد الناصر ـ سيدي بشر نهاية النفق
ت: ٠٣/٥٤٩٦١٠٧ فاكس: ٠٣/٥٥٦٧١٣٤

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على محمد ﷺ وبعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتابنا «**لذة العبادة ـ منهج عملي للتربية الإيمانية**» نقدمه لإخواننا المسلمين أجمعين وقد تقبله ـ ولله الحمد والمنة ـ العلماء وطلبة العلم وآحاد الناس بقبول حسن، كما وصلني من كلام العلماء ـ المسموع والمكتوب ـ عن الكتاب ما حمدت لأجله ربي سبحانه حمداً بعد حمد، أن فتح الله قلوب الناس له ـ وهو جهد المقل ـ كما سعدت كذلك ـ والفضل لله ـ بما تنامى إلى علمي من وضع الكتاب ضمن مناهج بعض الدور الدراسية والتعليمية والتربوية لتدريسه في مناهج التربية والرقائق وإن كان من فضل ومنَّة فمنه سبحانه وتعالى ثم بركة التحديث بحديث النبي ﷺ وذكر الشرائع والدعوة إلى ذلك الدين الحق.

وقد احتوى كتابنا هذا على وصف مهم لمنهج تربوي إيماني شرعي للإستقامة على الجادة الإيمانية، والسعي في طريق الربانية، على بصيرة علمية عقائدية، فوصفنا فيه محاور العلم والعمل لذلك المنهج وضربنا فيه المثال التطبيقي ووصفنا فيه المحاذير وبينا فيه النصائح في ذلك السبيل..

ونصيحتي لقراء الكتاب ألا يهملوا منه فصلاً أو مبحثاً وأن يراعوا فيه كل توجيه ونصح، لأن الكتاب تكتمل فائدته بدراسة جميع بحوثه وتنقص بنقصها ونحن في ذلك غير داعين إلى فرقة أو طائفة أو جماعة ولكننا ننصح لله وندعو للإسلام كافة ونحب الطائعين بقدر ما فيهم من طاعة ونكره معصية العصاة ولا يمنعنا ذلك من دعوتهم إلى الله وتعليمهم العلم والهدى لأن لهم حق الإسلام، ونحب أهل العلم أجمعين وندعو الله لهم إذ إنهم مصابيح الهدى في ذلك الزمان وورثة النبوة، وإن الأنبياء لمَ يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر..

والله أسأل أن يتقبل أعمالنا بقبول حسن وأن يتوفنا مسلمين وأن يلحقنا بالصالحين والحمد لله رب العالمين.

خالد السيد رُوشه

٢٢ من ربيع الآخر ١٤٢٦هـ

الموافق ٣٠ من مايو ٢٠٠٥م

«فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا، ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه؛ لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه»

الإمام ابن القيم رحمه الله

مقدمة الشيخ أحمد فريد

«حفظه الله»

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليماً.

ثم أما بعد،،،

فقد اطلعت على «موسوعة» أخي الحبيب خالد روشه، والموسومة بـ «**لذة العبادة**»، وكان أحب إلى قلبي أن يسميها «التربية الإيمانية»، فالبحث حولها يدور، وفي بيان طريق الوصول إليها يدندن، ولذة العبادة تأتي دون قصد لها وسعي للحصول عليها.

وهدف المؤمن الوصول إلى رضى الله عز وجل والفوز بجنته، والتمتع برؤيته في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢١]، ووظيفته الاشتغال بعبادة الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وسعادته في الطاعة والذكر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر ٩٧-٩٩]

والتربية الإيمانية جزء من التربية التي يتأهل بها المسلم لأن يكون لبنة صالحة في صرح الإسلام الشامخ، هي جزء من التربية المطلوبة لبناء جيل على نمط الجيل الأول، الذين فتح الله عز وجل بهم البلاد، وقلوب العباد، وأعطوا الإسلام قوة الدفع لقرون متتالية :

فما العز للإسلام إلا بظلهم وما المجد إلا ما بنوه فشيدوا

وقد بذل أخونا الكريم جهدًا في جمع مادة الكتاب من المصادر الأصلية، ولقد اطلعت عليه فوجدته مفيدًا ونافعًا، والكمال عزيز، والله تعالى أسأل أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به شباب الصحوة الإسلامية، وأن يجعله غنما لا غرما، وأن ينفع به من انتهى إليه.

وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. أحمد فريد

بين يدي الموضوع

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد،

فإننا نعيش في عصر عصفت فيه المادة، وطغت فيه الشهوة، وتكاثرت فيه المعاصي، ولابد للأمة الإسلامية عامة، وللحركة الإسلامية خاصة؛ من تسليح أبنائها بما يضاد صفات هذا العصر الماجنة.

ولم تعد المقالات ولا الخطب ولا المواعظ كافية لمواجهة هذا السيل العاتي من طغيان المادة والشهوة، فكان لابد للحركة الإسلامية أن تصف منهجًا إسلاميًا خالصًا يحتوي على جوانب عملية وبيئية ونفسية وخلقية، تستطيع به أن تحافظ على دين المتدين، وتعين السائرين في الطريق إلى الله في سيرهم، وتخلص لهم الموعظة، وتبين لهم الخطوات، وتضع لهم البرامج، حتى يستطيعوا أن يواجهوا طبيعة هذا العصر.

وتجربتنا هذه موجهة لتبيين منهج إسلامي للتربية الإيمانية، يتربى من خلاله المسلم فيتقوى قلبه ويتطهر، وتزكو نفسه، وتسمو روحه، فيصلب في الشدائد ويواجه أعاصير هذا الزمان مواجهة المؤمن القوي، صحيح العقيدة، سليم القلب، القريب من الله، الحريص على الآخرة، الزاهد في الدنيا.

ولقد تكاثرت الكتابات في مجال الرقائق، ومجالات الترغيب والترهيب ومجالات التربية والتزكية، على أنها ـ على فضلها وأهميتها ـ لم تكن كافية في توجيه المسلم إلى ما ينبغي عليه عمله حتى يربي نفسه إيمانيًا، ولم تكن كافية في

تعليم المربي دوره تجاه المبتدئ حتى يطهر قلبه من أمراضه و يقربه من الخشوع و التوبة والإنابة ، ولم تكن كافية في تعليم القارئ الخطوات المتدرجة للوصول إلى التقوى أو الإحسان أو مثل ذلك من المعاني الإيمانية العالية ، بل كانت قاصرة على أن تأمره بها أمرًا ، فتطلب منه التقوى أو الإيمان أو الإحسان طلبًا[1].

والمرء السابح في لجج هذا الزمان ؛ المنخرط في تبعاته ، التائه في طرقاته ، لم يكن لينتفع بالأمر بالتقى أو غيره وهو لا يعلم الطريق الموصل إليه ، ولم يكن المربي والمعلم ليوصل له علمًا قد جهله هو ذاته ، أو جهل أكثره.

فكم سمعنا مربيًا يأمر الناس بالإيمان والتوبة ، وبالخوف والرجاء ، وبالخشوع في الصلاة ، ولكننا لم نسمع يومًا - إلا نادرًا - مربيًا يقوم فيعلم تلاميذه طريقة الوصول للتوبة ، أو خطوات الوصول إلى الخشوع.

فصارت هذه المعاني العظيمة التي نقرؤها دومًا ، ونسمعها كثيرًا ، كنجوم في سماء أمانينا ، وآمال عظيمة عجزت قدراتنا أن تصل إليها ، وصعب علينا تطبيقها والوصول إلى الاتصاف بها.

وليس الإسلام كذلك ، وليس القرآن كذلك ، إنما الإسلام دين عظيم ، ومن أهم جوانب العظمة فيه ؛ إمكانية تطبيقه والوصول إلى معانيه والتحرك بها في الأرض.

ولو ظلت معاني القرآن القلبية بعيدة عن الجيل المسلم ؛ لتربى فارغ القلب من وارد النبع الأصيل ، الذي يرقيه في الدرجات ، ويقربه إلى ربه ، بل - ولا نبالغ - لضل ذلك الجيل ضلالاً بعيدًا.

---

(١) غير أن الله سبحانه قد يسر لبعض أهل العلم أن سطروا من كتابات الرقائق والتربية ما أفاد وأجاد ، ولم يقتصر عملهم على النقل والتكرار ولكنهم عمدوا إلى الشرح والبيان وتفصيل السبيل فانتفع بكتبهم القاصى والدانى نسأل الله أن يتقبل منهم عملهم وأن ينفع به.

التصوف ومناهج الحركة الإسلامية:

لقد أثر غياب المنهج التربوي الإيماني السلفي لأهل السنة[1]، تأثيرًا ظاهرًا على العمل التربوي الإسلامي، مما دفع بعض الحركات الإسلامية إلى تبني المناهج الصوفية، وطريقة التصوف في تربية أبنائها.

ولما نظرت تلك الحركات إلى مناهج التصوف فوجدتها قد حادت ـ في كثير من الأحيان ـ عن سبيل السلف الصالح في تزكية نفوسهم، حاولوا أن يُدخلوا تعديلات وتغييرات على المنهج الصوفي، رجاء أن يقترب من المقبول عند علماء السلف الصالح، ولكن للأسف الشديد فقد كانت الطريقة الصوفية قد وصلت إلى طريق لا يمكن التعديل فيه ولا التغيير.

ولقد رأيت الكثير من محاولات المربين لتحسين صورة التصوف المنحرف ونبذ أوهامهم وطرد كثير من جهالاتهم المنهجية والوقوف معهم على أصول علمية يبنى عليها منهجهم في التزكية النفسية، إلا أنهم ـ مع كبير مجهودهم ـ لم يستطيعوا أن ينالوا مرادهم، بل لقد وقعوا في محظورات منهجهم في أحيان كثيرة، وشاركوهم في إثبات بعض المحدثات والمبتدعات التي تخالف منهج أهل السنة والجماعة. وكذلك فقد تبعهم كثير من الباحثين؛ فأصدروا كتبًا تحاول تنقية التصوف من دخنه، ومن ذلك: ما كتبه أحد الباحثين الدعاة ـ محاولاً تنقية المنهج الصوفي ـ فقال:

«وسأجتهد في هذه الدراسة: أن أرد التصوف إلى جذوره الإسلامية، مستمدين من محكمات القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، وأن أنقي التصوف الحق مما علق به من شوائب كدرت صفاءه وشابت جوهره، مما تأثر به من مصادر

---

(١) أقصد بغيابه يعني غياب بيانه وتطبيقه والسير عليه، وإلا فالمنهج موجود بين أيدينا وقد تربى عليه أئمة السلف الصالحين وكل من تبعهم بإحسان.

أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووسطيته، ومما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم وتجاوزاتهم المائلة إلى الغلو حينًا، وإلى التقصير حينًا آخر».

وكلام هذا الباحث الكريم كلام حسن من جهة كونه ينقي المناهج المنحرفة من الكدرات والشوائب والأوهام والأهواء والتجاوزات ـ على حد قوله ـ، إلا أن هناك سؤالاً لابد منه، أرجو أن يتدبره كل الباحثين الذين ينهجون نفس النهج من اعتبار الصوفية هي منهج التربية الإيمانية، هذا السؤال هو:

إذا كانت هذه المحاولات ـ كما قال أصحابها ـ هي محاولات للرجوع إلى الكتاب والسنة ونبذ المخالفات وتطهير الشوائب، فلماذا لم يبحث أولئك الباحثون الكرام عن المنهج الإسلامي الصافي الصحيح الثابت، بدلاً من تنقيتهم لمناهج إذا أزيل منها كل الكدر والوهم والتجاوز لن يبقى منها شيء يذكر إلا بعض النصائح والمواعظ والمعاني التي يمتلئ بها المنهج السلفي الصافي من السنة الصحيحة؟!

ولماذا إذن التمسك بمُسمى التصوف وقد صار لا يدل إلا على المنهج المتكدر؟

فليتدبر الباحثون الإسلاميون في هذا الكلام، وليوجهوا مجهوداتهم تجاه الصحيح الثابت من منهج أهل السنة والجماعة، وهو متيسر وفي متناول الجميع.

وعلى الجانب الآخر فقد ابتعدت توجهات إسلامية أخرى عن كثير من المعاني القلبية التي وجه إليها القرآن أو نبهت إليها السنة أو أشار إليها السلف الصالحون، ولم يكن من سبب لابتعادها عنها أكبر من أنها تخاف أن تتشبه بالصوفية في طريقتهم للتزكية والتصوف.

ولسنا نصحح منهج الصوفية، ولسنا مع المحاولات التي تحاول تصحيح منهجهم، ذلك لأن التصوف المنحرف قد ترك منهجًا مليئًا بالشوائب العقائدية والعملية على مر التاريخ، ولم تفلح كل المحاولات التي حاولت تنقية هذا المنهج من دخنه أن تنقيه، وأحسبها لن تفلح؛ إلا أن يترك أصحابه منهجهم ويعودوا

لى النبع الصافي الذي استقى منه العلماء والصالحون عملهم ؛ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وقد كان سبب إعراض تلك الاتجاهات الإسلامية عن كثير من المعاني القلبية والروحية الموجودة في المنهج الإسلامي ، خوفها من الوقوع في التصوف أو من التشبه به بعد أن تبين لهم خطؤه جليًا.

فصار المعلمون يحذرون من الحديث في الرقائق والمواضيع القلبية والروحية حذرًا تقلص معه الحديث فيها ، بل تقلص معه ذكرها بينهم.

ولما كانت الموضوعات الإيمانية من الأهمية بمكان لدرجة أنها لا يمكن أن تهمل ، فصار الأخذ منها يغلف بطريقة جافة في الشرح والتبيين حذرًا من الوقوع في طريقة التصوف أيضًا في الشرح والتبيين.

بل صار الأمر أكثر من هذا ، فلقد هُجرت كُتب بكاملها لاستشهاد أصحابها بشيء من كلام التصوف أو بنقلهم لبعض آراء المتصوفة[١].

وأحسب أنه لولا أن أنعم الله علينا بكلام أئمة أمثال ابن القيم وابن الجوزي وابن رجب وأمثالهم حول التزكية والرقائق ، لصار الأمر زيادة في البعد عن الرقائق والتزكية.

والحق الذي لا ريب فيه أن علينا الرجوع والعودة إلى منهج الإسلام في التوجيه القلبي والنفسي ، والتشريع مليء بذلك ، وعلينا أن نتجنب ميراث البدع والمخالفات والأوهام ، وعلينا أن نراجع الصحيح الثابت من التوجيهات القرآنية والنبوية وكلام علماء السلف الصالحين في التربية القلبية والروحية.

---

(١) وأما المنهج الصحيح في ذلك أنه : لو كان الكتاب به من الخير والنفع ما غلب عليه وكان به بعض عبارات التصوف غير المقبولة أن ينتفع بالكتاب وينبه على تلك العبارات الخاطئة ويجتنبها المتعلم ويتعلم المنهج الصحيح فيها.

العبادة.. ولذة العبادة:

إننا في طريقنا إلى الله سبحانه، مأمورون بعبادته وإخلاص العبادة له عز وجل، وتخليصها من شوائب الشرك وخبائث البدع. ونحن ولا شك نحرص حرصًا أكيدًا على توصيل هذه الفكرة إلى كل من ابتدأ السير في الطريق إلى ربه سبحانه، وكذا يفعل كل مرب ومعلم يعلم الناس الإيمان والهدى.

والمسلم في طريق سيره إلى ربه سبحانه، يحتاج أن يحب العبادة ليصبر عليها، وليكثر منها، ويحتاج أن يشعر بلذتها ليتوق إليها ويتشوق إليها.

والمسلم الذي لم يشعر بحب العبادة ولم يذق طعم حلاوتها لن يصبر عليها، ولن يثابر في الثبات عليها.

ولقد كان عمله ﷺ كما وصفت عائشة رضي الله عنها في الصحيح: «ديمة» يعني دائمًا ثابتًا، وكان ﷺ ـ كما في الصحيح[1] ـ «إذا فعل شيئًا أثبته»، وقد نصح عبد الله بن عمرو فقال له ـ كما في الصحيحين ـ: «**لا تكن كفلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل**»[2]. إذن فالمثابرة على العبادة والثبات عليها هو نهج الشريعة وطريقة الإسلام، وهذا الثبات لا يمكن تحقيقه إلا بحب الطاعة والشعور بمعنى العبادة وأثرها.

وقد غفل عن هذا كثير من المربين، فصاروا يوجهون الناس إلى العبادات، ويحثونهم عليها، بل ويعظونهم في عدم تركها، ويغلظون القول للذي لا يثبت عليها، وهم لم يعلموهم كيف يحبون هذه العبادة؟ وكيف يلتزمون بعبادتهم

---

(١) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «أدومه وإن قل»، مسلم كتاب صلاة المسافرين حديث ٢١٥، ولفظ: «كان عمله ديمة» رواه مسلم أيضًا، كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضيلة العمل الدائم ح٢١٨ ـ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، ٣/٢٥١١ فتح.

ربهم؟! فصار الناس يصلون بغير إحساس بمعنى الصلاة ويصومون بغير شعور بحلاوة الصوم، ويقومون الليل بغير ارتباط قلبي بالقيام، فخرجت العبادات منهم بغير مساس للقلوب...

لقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه أن ترتبط العبادة بقلوبهم قبل جوارحهم، فلقد كان ﷺ يقول لبلال: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»[(١)]، فليست الصلاة عبادة بدنية قولية فحسب، إنما هي راحة للقلب وإزالة للهم ولذة للروح، بل لقد كان يوجه الناس في الصلاة توجيهات أخرى.

فيوجه المقبل عليها باستحضار كيانه وقلبه وشعوره، ليجعلها وكأنها آخر صلاة له (صلاة مودع)، ثم ينبهه داخل صلاته أنه ليس في حركات بدنية عبادية فحسب، بل إنه: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٢)].

فصارت الصلاة في توجيهه ﷺ عبادة أخرى، غير تلك التي ينقرها الناس نقرًا، أو يؤديها بعضهم أداء، وإن التزم فيها بظاهر السنة، ولكنه ضيع أثر العبادة على قلبه، فيقوم من الصلاة وقلبه ـ أبدًا ـ لم يستشعر حلاوتها. وقل مثل ذلك في الصوم، وتحذيره ﷺ للمسلم من أنه ربما لا ينال من عبادة الصوم سوى أن يمنع نفسه من الطعام والشراب «**رب صائم ليس له إلا الجوع والعطش**»[(٣)].

وليس الأمر كما يفهم كثير من الناس من ذلك الحديث من أنه ﷺ يأمر الناس بعبادات أخرى أثناء الصيام، كقراءة القرآن والصدقة وملازمة المساجد أثناء الصوم فقط، وإنما يوجهه النبي ﷺ أن يستشعر معنى التقوى من الصوم، وأن

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة، رقم ٤٩٧٥، وصححه الألباني، صحيح أبي داود.

(٢) رواه مسلم (١/صلاة/٣٥٠/ ح ٢١٥)، وأبو داود (٢/ ح ٨٧٥) والنسائي (٢/ح ١١٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه النسائي وابن ماجة وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب (١/١٠٧٦).

يستشعر معاني الصوم القلبية، ومعاني الزهد الروحية، وكيف يترك الطعام والشراب لله، وكيف معنى العبودية في الصوم. وقل مثل ذلك في باقي العبادات.

العبودية عبودية القلب:

إن توصيل معنى العبودية للناس ليس قاصرًا على شرح الأصول لهم، وطريقة العبادة، إنما العبودية عبودية القلب كما هي عبودية الجوارح، ولربما انقدح الإيمان في قلب امرئ، فآمن بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلم معناها، وأخلص لها، وقام بحقوقها كاملة، ثم أقبل على ربه محبًا، راغبًا في أن يبذل نفسه وروحه وماله لله، فقبله الله سبحانه شهيدًا في سبيله، فصار شهيدًا في حوصل طير أخضر في الجنة، بتحقيقه للعبودية الحقيقية في ساعة من نهار، ولرب عامل طال به عمره، يؤدي العبادة خالية من معانيها، ضعيفة في إخلاصها، لا تمس قلبه إلا قليلاً، هو على خطر عظيم.

التربية الإيمانية والجيل المسلم:

إننا بحاجة إلى جيل مؤمن، محب للإيمان، محب للطاعة والعبادة، شاعر بحاجته لعبادة ربه، وضرورته لعبودية قلبه لربه، حتى إذا خلا بمحارم الله لم ينتهكها، بل أطاع ربه وحيدًا وبين الناس.

وأحسب أنه من الفروق الأساسية بين الصالح والدعي؛ حب الطاعة، والشعور بمعنى العبودية.

وللأسف الشديد... نحن أمام جيل قد أهمل أكثره تزكية نفسه، وجهل تطبيق معنى العبودية الحقة، ولم يشعر بمراقبة ربه، فهو جيل يعاني كل المعاناة.

فترى أحدهم يعلم خطر الذنب وأثره ومدى سخط الله عليه إذا هو اقترفه، وحرمة فعله للذنب، ثم تراه أمام الذنب ضعيفًا لا يقوى، ولا يلبث أن يقع فيه،

ثم هو بعد قليل تراه قائمًا بين الصفوف يعبد الله...! ثم ربما هو ـ نفسه ـ بعد العبادة يعرض عليه الذنب ذاته فيقع فيه!!

فخرج علينا جيل هش، ضعيف أمام الشهوات، منكسر أمام المادة، بعيد في غالب أحيانه عن الله سبحانه. وإنها والله لطامة كبيرة؛ أن يكون بين يدي الحركة الإسلامية هذا الكم الكبير من الشباب المسلم الراغب فيما عند الله، ثم لا تستطيع هذه الحركة توجيهه إلى ربه توجيهًا سليمًا.

ولا عجب إذن أن يعاني الشباب المسلم مما يعاني من ضعف أمام الشهوات، وسيطرة الغفلة عليه، وقوة جذب الدنيا له، وطغيان المادة عليه، إذ إنه لم يهتم بسلامة قلبه ولم يُزَكِّ نفسه، فكيف يتغلب على كل ذلك؟

ومن الغريب أن تسمع من التأويلات والتفسيرات لضعف الشباب المسلم ما يتعجب له، فمن المربين من يدَّعي أن سبب الضعف للشباب هو عدم قدرتهم المالية مما جعلهم يشتغلون بالوظائف طوال اليوم، ولم يعد لهم وقت للعبادة، وآخر يرى أن سبب ضعف الشباب المسلم هو تكاثر الشهوات من حوله وكثرة العري فيما يحيط به... ومثل ذلك.

والحق، أن ما ذكروه ـ وإن كان من أسباب البعد عن الله لمن يترك نفسه نهبًا له ـ هو في ذيل الأسباب، بل إنا لا نعد ما ذكروه سببًا مباشرًا لضعف الشباب المسلم. بل إن أول الأسباب هو: مرض قلبه، وفشله في علاجه، وضياع هوية قلبه، وفقدانه القلب السليم الذين سنتحدث عنه إن شاء الله.

إن صاحب القلب السليم ليظل قلبه سليمًا، مهما كان فقيرًا معدومًا، يعمل الليل والنهار، لأن الفقر لا يأسر إلا مريض القلب. وصاحب القلب السليم، لا يأبه للشهوات وإن عصفت، ولا بالعري وإن كثر لأن الشهوات لا تأسر إلا مريض القلب، والعرى لا يؤثر إلا في مريض القلب بالشهوات.

فالبعد عن إصلاح القلوب خلّف جيلاً ضعيفًا، مأسورًا، مكسورًا، وخلف مربين غير أكفاء، لا يستطيعون القيام بعلاج أمراض القلوب، إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه، وخلّف قادة غير ربانيين، ينأون بأنفسهم عن مواقع البذل والعطاء والتضحية خوفًا من الناس، أو رغبة في الدنيا وزينتها، فلم يجهر منهم بالحق أحد إلا من رحم الله، وقليل ما هم!!

من يقوم بالتربية القلبية ؟!

إن كلامنا حول منهج للتربية القلبية والنفسية، سيذهب هباءً وضياعًا، إن فقدنا من يقوم بهذه العملية المنهجية، وهم المربون.

ولسنا نقصر معنى المربي هنا على ما يتبادر للذهن من كونه شخص يتولى أمر عدد من الشباب، فيعلمهم العلم والخلق، ولكنني أعنى هنا كل قدوة في مكانه، فإن القيام بعملية التربية الروحية الإيمانية ليس قيامًا بعملية تدريسية تعليمية جافة، ينتهي درسها بانتهاء وقت شرحها للمتعلمين، ولكنها سكينة وطمأنينة، وحب وعلم وخشوع، ورجاء وإنابة تتدفق على قلب المتربي، فيضيء قلبه وتزكو نفسه بنور العلم والهدى.

وهي عملية يقتدي فيها المتعلم بالقدوة في أمور أخرى كثيرة غير تلك الدراسة النظرية التي يتعلمها منه، فيقتدي به في خوفه من ربه، في حبه لعبادته، في إخلاصه لكلمة التوحيد، في حبه للعلم والإقبال عليه، في تجريده للعمل لله، في توبته المستمرة، في إنابته الدائمة، في كثرة ذكره لله وتعلقه بالقرآن، في بذله لدعوته وعطائه لها وفي زهده للدنيا وتقلله منها، في استعلائه على الملذات والشهوات، في مراقبته لله تعالى، في تضحياته لله وسعيه لبذل نفسه وماله لله عز وجل.

مشكلة: أين حلها؟

وفي الحقيقة إنني أجدني هنا أمام عثرة يصعب تجاوزها وعقبة لا يسهل تخطيها، إذ إن القائم بعملية التربية الإيمانية والقلبية ـ وهو المربي ـ ليس كأي مربٍ يمكنه أن يؤدي دوره، فيأخذ المتعلمون منه الحسن ويتركون القبيح.

ولكن المربي في هذا المجال لابد أن يتصف هو ذاته بالصلاحية القلبية والنفسية، التي على أساسها سيستطيع أن يؤثر في غيره.

يجب أن يكون سليم القلب حتى يستطيع أن يوصل للمتعلمين معنى سلامة القلب، يجب أن يكون صحيحًا من أمراض القلوب حتى يستطيع أن يعالجها عند غيره من المرضى، كذلك ينبغي أن تكون لديه طاقة العطاء التي بها وعلى أساسها يرى الخير في قلب غيره ويعينه على تزكية نفسه، تلك الطاقة المفقودة التي تكاد أن تكون هي السر في فشل المربين الآن في تربيتهم للشباب المسلم.

فإن الشاب المسلم المتربي ليشعر بخواء مربيه من الطاقة الإيمانية والدافعية القلبية والروحية، التي يمكنه أن يستقي منها الخير.

يشعر أن مربيه يخرج الكلام من لسانه، لا من قلبه، يشعر أن مربيه يعلمه الإيمان بكلمات لا روح لها ولا حلاوة.

ثم إذا بالمتعلم يفتقد أستاذه في مواطن الخير؛ فيفتقده في صلاة الفجر أحيانًا ويفتقده في الابتلاءات والاختبارات أحيانًا؛ ويفتقده في مواطن التضحية والفداء، ويفتقده في مواطن البذل والعطاء، ويفتقده - أحيانًا - في صلاة الجماعة!!!

فكيف يقتدي الشباب بقدوات هذا حالهم، ومن سيربي الأجيال إذا دب النقص إلى القادة والمعلمين؟!!

محاولة منهجية:

ومحاولتنا هذه قد حرصت فيها ـ والفضل لله ـ أن تكون منهجية بقدر المستطاع وأن تضع الخطوط وتصف الطريق، وتدل الباحث.

فحاولت الالتزام بالمنهج العلمي في البحث والكتابة وتوضيح مكونات المنهج المطروح: من أهداف وتعريف وأسس ووسائل، كما حرصت على بيان طريق التطبيق في كل ذلك ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ـ ومحاولة حل مشكلات التطبيق العملي، وبيان المحاذير وإسداء النصائح والتوجيهات.

كما حرصت على تأييد كل ما أكتبه بالدليل الصحيح الثابت من الكتاب أو السنة الصحيحة حتى يخرج الكلام بلا كدر أو شائبة.

وقد استفدت أيما إفادة من كلام الإمام الطبيب ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مختلف كتبه، وكنت ربما نقلت بعض عباراته الهامة، وربما تفهمت فكرته وصغتها بأسلوبي الخاص ـ حين أرى احتمال صعوبتها في الفهم على بعض الناس .

كما يسر الله سبحانه لي قبل أن أبدأ البحث أن اطَّلعت على ما يربو على ستين مؤلفًا في أبواب الرقائق والتربية ، وكنت أقطف من كل بستان زهرات، وأتعلم من كل كتاب درسًا جديدًا وتوجيهًا مفيدًا، وجمعت كل هذه الدروس والتوجيهات والمعاني واستفدت بها في بحثنا هذا وحرصت ألا أهدر فائدة منها أو توجيهًا.

كما حرصت على نسبة كل قول إلى صاحبه وقائله، وإن حصل مني غفلة في بعضها أو نسيان ولم أَرُدَّ القول إلى صاحبه، فليغفر لي كاتبه وأجره عند الله ثابت، وإنما رجاؤنا جميعًا إيصال الخير إلى الناس وتوصيل البلاغ والتحديث بالشرائع والسنن، رجاء الأجر منه عز وجل.

منهجنا في الدراسة :

أولاً: الاستدلال بالحديث الصحيح: فقد حرصت كل الحرص على الاستدلال بالحديث الصحيح فقط، وترك الحديث الضعيف لقناعتنا التامة أن في صحيح الحديث غنى عن سقيمه.

وقد اختلف بعض الباحثين في موضوع الاستدلال بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال مما جرأهم على الإكثار من الحديث الضعيف في موضوعات الرقائق.

والمنهج الحق الصائب في هذه المسألة[1] ما ذكره العلماء في شروط الاستدلال بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، والحذر من التهاون في ذلك، وهو كما يلي:

(١) شروط العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال:

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ شرائط العمل به ثلاثة :

أولها: متفق عليه، وهو أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج منه مَنْ انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فحش غلطه.

وثانيها: أن يكون مندرجًا تحت أصل عام، فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً.

---

(١) للعلماء في الاستدلال بالحديث الضعيف ثلاثة أقوال:
الأول: جواز العمل به مطلقا، بشرط ألا يوجد غيره، ونسب هذا الرأي للإمام أحمد وأبي داود وغيرهم، وقد بين شيخ الإسلام وابن القيم خطأ ذلك، وأن مرادهم بالضعيف هو الحسن، كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
والثاني: عدم جواز العمل به مطلقاً، ونسب هذا الرأي إلى القاضي ابن العربي والجلال الدواني واللكنوي وغيرهم.
والثالث: جواز العمل به بضوابط وشروط وهو مذهب جماهير المحدثين والفقهاء وغيرهم وحكى الاتفاق عليه الإمام النووي والهيثمي وعلي القاري وهو أصوب الأقوال.

وثالثها: أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله.

قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ: «قلت: وليس يخفى على الفطن اللبيب أن هذه الشروط توجب على أهل العلم والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه أن يميزوا للناس شيئين هامين:

الأول: الأحاديث الضعيفة من الصحيحة، لكي لا يعتقد العاملون بها ثبوتها، فيقعوا في آفة الكذب على رسول الله ﷺ.

الثاني: الأحاديث شديدة الضعف من غيرها لكي لا يعملوا بها فيقعوا في الآفة المذكورة»[1].

(٢) زجر العلماء لمن يروي الحديث الضعيف ولا يبين حاله ولو في الترغيب والترهيب والرقائق:

قال الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في مقدمة صحيحه:

«وإنما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار وأفتوا بذلك لما فيه من عظيم الخطر، إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي: بتحليل أو تحريم، أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الراوية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثمًا بفعله ذلك، غاشًا لعوام المسلمين، إذ لا يؤمَن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة»[2].

---

(١) مقدمة صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، المكتب الإسلامي، ص١٨ وما بعدها.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ص ١٣٢/ شرح النووي.

قال الألباني رحمه الله:

«والحقيقة أن تساهل العلماء برواية الأحاديث الضعيفة ساكتين عنها قد كان من أكبر الأسباب القوية التي حملت الناس على الابتداع في الدين...»[١].

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله في الاعتصام:

«فمن طرق المبتدعة: اعتمادهم على الأحاديث الواهية، والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ، والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها، كحديث الاكتحال يوم عاشوراء، وإكرام الديك الأبيض، وأكل الباذنجان بنيته، وأن النبي ﷺ تواجد واهتز عند السماع حتى سقط الرداء عن منكبيه، وما أشبه ذلك.فإن أمثال هذه الأحاديث ـ كما هو معلوم ـ لا ينبني عليها حكم، ولا تجعل أصلاً في التشريع أبدًا، ومن جعلها كذلك فهو جاهل ومخطئ في نقل العلم، فلم ينقل الأخذ بشيء منها عمن نعتد به في طريقة العلم ولا طريقة السلوك»[٢].

ثانيًا: حرصنا على أن يخرج الكلام موثقًا بالدليل الثابت في كل نقطة من نقاط البحث، وأن يكون تابعًا لمنهج السلف الصالحين وبفهمهم، يستقي علمه من سيرهم وتطبيقه من نهجهم ويعتمد على طريقتهم في القرب من الله.

ثالثًا:قد نستشهد بقول عالم أو فقيه أو باحث أو مفكر أو كاتب في موضع ما من البحث، ولا يعني ذلك تبني مذهبه ولا العمل بطريقته، وإنما مذهبنا مذهب السلف الصالحين وطريقتنا هي السنة الثابتة وعقيدتنا هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

رابعًا: حاولنا وضع برنامج عملي واضح يسير عليه المسلم في طريقه إلى الله سبحانه.

---

(١) مقدمة صحيح الترغيب والترهيب ص٢٣.

(٢) الاعتصام للشاطبي، ١/ ٢٢٩.

وقسمت البحث إلى الفصول الآتية :

الفصل الأول: أسس التربية الإيمانية.

الفصل الثاني: هدف التربية الإيمانية : القلب السليم.

الفصل الثالث: نماذج من حياة الصالحين «نماذج تطبيقية للتربية الإيمانية».

الفصل الرابع: دور المربي والمعلم في التربية القلبية الإيمانية.

الفصل الخامس: وسائل التربية الإيمانية.

الفصل السادس: بصائر في الطريق إلى الله.

الفصل السابع: مشاعر ومنازل بين يدي الله.



وأخيرًا

فلقد سألت الله كثيرًا أن يجعل هذا العمل خالصًا له سبحانه وتعالى، وأن يعُم نفعه لجميع المسلمين، إنه سبحانه الولي الحميد.

وأنا أقبل منك ـ أخي القارئ الحبيب ـ كل نصيحة أو توجيه أو تعقيب أو استدراك، بل أسعد بذلك وأنشرح، فكن كريمًا مع أخيك فيما يسعده، ولا تبخل عليّ بالنصح في الله.

وفي الختام أسأل الله العظيم أن يجمعنا في جنته، وأن يغفر لي ولوالديّ الذين ربياني على حب الله وسنة نبيه ﷺ، ولأساتذتي الذين علموني منهج أهل السنة والجماعة، ولجميع إخواني الأحباب الذين تربيت معهم وأحاطوني بكل الحب والمودة والنصيحة والأخوة، وأعانوني على الخير، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مغرب الجمعة ٥ جمادى الآخرة

الموافق ٨ أغسطس ٢٠٠٢

خالد السيد رُوشه



الفصل الأول

أسس التربية القلبية الإيمانية

١- العقيدة
٢- العلم
٣- العبادة
٤- الذكر

أسس التربية القلبية الإيمانية

وأقصد بالأسس: أي الأصول الثابتة التي يبنى عليها منهج التربية القلبية الإيمانية، فلا تقوم العملية التربوية بغير هذه الأسس، وينحرف سيرها إذا فقدت إحداها. فهي الأعمدة الأساسية التي يبنى عليها هذا المنهج وإذا زال عمود منها تصدع البنيان كله. وعلى القائمين بالعملية التربوية الإيمانية الاهتمام بهذه الأسس قبل أي شيء آخر، والتأكد من تثبيتها في قلب كل متربي ومتعلم.

والمرء المسلم إذا أراد أن يسير في الطريق إلى العبودية الحقة، فعليه أن يثبت هذه الأعمدة في كيانه قبل أي شيء آخر، ولقد كان من أهم أسباب الخلل الحادث في المناهج التربوية الإيمانية، إهمال أحد الجوانب الأربعة التي سنذكرها وهي : العقيدة، العلم، العبادة، الذكر

وسنحاول معًا ـ إن شاء الله ـ الوقوف على أهم الأسس التي يجب أن يتربى عليها المسلم في كل جانب من الجوانب الأربعة.



أولاً: العقيدة

وهي الأساس الأول الذي ينبني عليه المنهج التربوي لتطهير القلب وتزكية النفس.

ونوجه الحديث فيه إلى عدة جوانب أساسية:

١- إن مصطلح العقيدة يطلق ويراد به: ما يُعقد عليه القلب من الإيمان بربوبية الله عز وجل وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإفراده وحده لا شريك له بالعبادة والطلب والقصد، والتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله تعالى، كما تشمل العقيدة أيضًا: الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل، والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب والجنة والنار، والإيمان بالقدر خيره وشره، وكل ما أخبر به النبي ﷺ من أمور الغيب، والانقياد لما جاء به ﷺ من الأوامر والنواهي.

٢- إننا إذا تأملنا دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام فإننا نجد أن أول شيء دعوا إليه وضحوا من أجله، وكان هو همهم هو أمر هذه العقيدة:

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

٣- العقيدة هي خطوة البداية وخطوة الوسط وخطوة النهاية، فأول الواجبات على المكلف عند أهل السنة هو قول لا إله إلا الله، فبها يبدأ المسلم طريقه إلى ربه.

قال في فتح المجيد: باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، بعدما ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»[1]، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»، ثم ذكر في مسائل الباب قوله: «كون التوحيد أول الواجبات وأنه يُبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة».

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله - في شرحه للحديث: «وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل»[2].

وكذلك فهي الخطوة التي إن استمسك بها المؤمن طوال حياته قادته للنجاة، فقد روى الإمام مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن يُعبد الله ولا يُشرك به شيء**». قال: «**أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟**». فقال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن لا يُعذبهم**»[3].

وكذلك فهي آخر الخطوات التي إن ختم بها المؤمن عمله دخل الجنة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم (البخاري ٣/ح١٤٩٦/ فتح)، ومسلم (١/إيمان/ ٥٠/ ح١٩).

(٢) فتح المجيد، باب الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله ص٨٠، المكتبة الثقافية.

(٣) رواه مسلم «باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا» حديث ٥٠.

فقد روى مسلم عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١].

٤- نقصد بالعقيدة كأساس لطهارة القلب: عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالحين، لا عقائد الفرق من المعتزلة والجهمية والخوارج والقدرية والمرجئة والأشعرية والماتريدية وغيرها، ولا عقائد الحلولية، أو عقائد القبوريين أو غيرهم من المخالفين لأهل السنة والجماعة، وهذه العقيدة هي التي تلقاها العلماء بالقبول وهي السبيل المستقيم والنهج القويم، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥- معنى لا إله إلا الله هو: لا معبود بحق إلا الله، وهو أن يؤمن الناس بأن الله هو الإله الحق وأنه لا معبود بحق سواه، وما عبده الناس من أصنام أو أشجار أو أحجار أو أنبياء أو أولياء أو ملائكة كله باطل، فالعبادة الحق لله وحده سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

٦- ارتكاب الكبائر كالزنا وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وأكل الربا والغيبة والنميمة وغير ذلك من الكبائر يؤثر في توحيد الله وفي الإيمان، لكن لا يكفر بذلك ـ خلافًا للخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة ويجعلونه خالدًا في النار ـ، فأهل السنة والجماعة يقولون ليس بكافر بل هو عاص وناقص الإيمان، لكن لا يكفر كفرًا أكبر، بل يكون في إيمانه نقص وضعف، ولهذا شرع الله في الزنا حدًا، إذا كان الزاني بكرًا يجلد مائة جلدة، ويُغرب عامًا، ولو كان الزنا ردة لوجب قتله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، ٤٣.

فدل على أنه ليس بردة، والسارق لا يقتل، بل تقطع يده، فدل ذلك على أن هذه المعاصي ليست ردة ولا كفرًا، ولكنها ضعف في الإيمان ونقص فيه[1].

٧- على جميع الدعوات الإسلامية أن تبدأ بالدعوة إلى العقيدة والتوحيد، وألا تحيد عن هذا المبدأ قيد أنملة.

فقد بدأ الأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام من طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد برغم مشقته وعنائه وبلائه، وكان في مقدورهم البدء مع أقوامهم من غير هذا الطريق ولكنهم أبوا ذلك أبدًا.

فرفضوا أن تبدأ دعوتهم لجمع الناس على أي هدف إلا العقيدة، مهما كانت، حتى لو كانت أهدافًا أخلاقية سلوكية، أو اجتماعية... أو غيرها.

وكانوا قادرين ـ عليهم السلام ـ أن يجمعوا الناس تحت أية راية أخرى حتى إذا اجتمعوا بلغوهم العقيدة وطالبوهم بها، ولكن الله سبحانه لم يرد ذلك منهم، لقد أراد الله سبحانه من أنبيائه عليهم السلام البدء بدعوة الناس إلى عبادته وتوحيده وخلع كل ما يعبد من دونه.

ومن ذلك يتبين لك خطأ كل داعية يتخفى في ثوب غير ثوب الدعوة إلى العقيدة التوحيدية الصافية بدعوى جمع الناس حوله أو تثبيت أقدامه بينهم.

٨- على الدعوات الإسلامية أن تحاول أن تُثبت العقيدة في قلوب الناس وتخلصها من شوائب الشرك قبل أن تستعجل إقامة دولة الإسلام، وإلا فما قيمة أي نظام إسلامي والناس قلوبهم لم تتخلص من شوائب الشرك ولم يستعدوا لقبول الأوامر الإسلامية في نفوسهم؟ إنه يجب أن تستقر العقيدة في قلوب الداعين إليها أولاً ثم يدعون الناس إليها علمًا وعملاً وتطبيقًا لا مجرد عقيدة نظرية، لا

---

(١) انظر: الشيخ عبد العزيز بن باز «مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة» الجزء السابع من ص٣٠ - ٤٢.

رصيد لها في القلوب ولا في الواقع، ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلى جهد مرير وصراع مع الباطل وأهله حتى تتهيأ النفوس لنصر الله عز وجل[1].

٩- هناك فرق بين الإذعان لحكم الله سبحانه وبين إقامة الدولة الإسلامية، فأما الإذعان لحكم الله سبحانه كقوله سبحانه: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهو يعني رد الأمر كله لله عز وجل في العبادات والمعاملات وفي كل شئون الحياة، وهو أمر يجب الإيمان به، ويجب أن يعلمه الناس ويتعلموه وتقبله قلوبهم وتُذعن له، أما الدعوة إلى إقامة الدولة الإسلامية فهو شيء آخر، وهو الذي سبق الحديث عنه، وأنه يجب أن يسبقه استسلام القلوب للعقيدة الإسلامية، نعم إن يسر الله سبحانه على أمة الإسلام إقامة دولة الإسلام وجب عليهم إقامتها فذلك الخير كل الخير، وهو لا شك مُعين مؤثر لنشر العقيدة ودحر الشرك.

١٠- بعض الدعاة إلى الله يوجه عمله كليًا إلى هدف إقامة دولة الإسلام، ويغفل عن هدف تبليغ الدين للناس ونشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، بل تراه لا يبذل الجهد الكافي تجاه تبليغ الدين ونشر العقيدة ماكان من نتيجته عدم الإنكار في الشركيات الواضحة من دعاء الموتى وإقامة الموالد لأضرحة الأولياء، وغير ذلك، وكل ذلك سعيًا وراء هدف إقامة الدولة الإسلامية، فكان من نتيجة ذلك إهمال تدريس العقيدة الصحيحة بجوانبها المختلفة والسماح بتربية الأفراد بعيدًا عن نبع العقيدة الإسلامية الذي هو المؤثر الأول في طهارة القلوب وخلوصها لربها.

---

(١) انظر: «وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، فبهداهم اقتده» ص١٢٣ وما بعدها. (دار الصفوة - ط٢).

وإنما يجب على الاتجاهات الإسلامية أن تولي أكبر اهتماماتها إلى تعليم الاعتقاد الصافي السليم ونشر الدين الإسلامي بلاغًا وتبليغًا قبل أي شيء آخر، فإن كثيرًا من المسلمين قد جهلوا الأسس الصحيحة لعقيدتهم الصافية، وصار علم الاعتقاد عندهم علمًا غريبًا، بل وانتشرت الأفكار الاعتقادية الخاطئة في كثير من الجامعات الإسلامية العالمية، فتراها تدرس عقائد الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة على أنها عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد تعاونت المؤسسات الرسمية في كثير من بلدان الإسلام على نشر مفاهيم خاطئة حول أضرحة الأولياء وقبورهم وأعطوا الموالد الصوفية الشكل الرسمي، بل وحضرها كبار المسئولين، وكبار الموظفين من العلماء السلطويين، لا ينكرون منكرًا، ولا يبينون معروفًا!! ولا تزال المنكرات تعج بها الأماكن المختلفة في دول الإسلام ولا منكِر...!

١١- ينبغي توجيه الاهتمام في الدراسات الاعتقادية إلى اتجاهات الإلحاد والعلمانية وأفكار عدم صلاحية الإسلام لقيادة الناس، وأفكار فصل الدين عن الحياة وأفكار التحلل من التدين ، وغير ذلك من القضايا العقيدية الهامة التي ينبغي أن تبين بيانًا تفصيليًا للأمة.

١٢- ينبغي على واضعي المناهج التربوية وعلى المربين الربط دائمًا بين سلوك المسلم في حياته اليومية وبين عقيدته الإسلامية برباط وثيق، كما يجب التنبيه دائمًا على مسألة التحرك بالعقيدة والعمل بها، وتشربها تشربًا تامًا، وألا يكتفى في تدريس العقيدة بالدراسة النظرية في كتاب أو كتابين، بل أن تتعدد طرق تدريس العقيدة وأساليب تدريسها وتتنوع ـ كما سنوضح إن شاء الله في فصل تدريس العقيدة ـ إقتداءً بالمعلم العظيم ﷺ.

كما يلزم الاهتمام الكبير بسكون العقيدة في قلب المسلم واستقرارها في قلبه وتنور قلبه بها وألا يكتفى في ذلك بالأسئلة النظرية ولا نعتبر المدارسات النظرية

هي الدليل الأوحد على انعقاد القلب على عقيدته، ولكن ينبغي مراقبة المسلم وتعليمه وبث العقيدة إليه بما يناسب حاله، بحيث تصير العقيدة لديه صورة حية تستقر في قلبه وينطق بها لسانه وتتحرك بها جوارحه.

١٣- كذلك ينبغي الوقوف مع المتعلم في مسائل الولاء والبراء على أساس العقيدة في الله، وتعليمه أن العلاقة بين أبناء هذا الدين علاقة فريدة متميزة، فليست هي علاقة دم ونسب، وليست علاقة أرض ووطن ولا علاقة قوم وعشيرة، ولا علاقة لون أو لغة ولا علاقة جنس أو عنصر، إنها العلاقة في لا إله إلا الله، هذه العلاقة التي علمها الله سبحانه نبيه نوح لما قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ فقال سبحانه: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، ثم بين له لماذا يكون ابنه ليس من أهله؟! قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾، إن علاقة لا إله إلا الله قد انقطعت بينكما، ثم قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦] فأنت تظن أنه من أهلك ولكن ظنك خاطئ، إن المعلوم المستيقن أنه ليس من أهلك، وإن كان ابنك من صلبك لأنه فارقك في لا إله إلا الله، فقطع العلاقة بينكما، حتى وإن كانت علاقة لحم ودم.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «إن الواجب على الرجل أن يُعلم عياله وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله مثل تعليم الوضوء والصلاة؛ لأنه لا صحة لإسلام المرء إلا بصحة صلاته، ولا صحة لإسلامه أيضًا إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله»[1].

إن على الدعاة إلى الله عز وجل في هذا الزمان أن لا يغفلوا في دعوتهم عن هذا الجانب العظيم من العقيدة وأن يولوه الاهتمام الشديد في أنفسهم وبرامجهم

---

(١) الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب، ص٣٢٣.

ومناهجهم وتربيتهم، فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسلمة من الذوبان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونظمهم وعاداتهم.

ولقد فطن أعداء الإسلامي إلى خطر عقيدة الولاء والبراء عليهم، فما فتئوا منذ زمن طويل يسلطون معاولهم لتكسيرها وذلك ليقينهم بعدم جدوى خططهم ومكرهم ما دام هذا الحاجز المنيع موجودًا عند المسلمين، ولقد نجحوا إلى حد بعيد في إضعاف هذه العقيدة عند كثير من أبناء الإسلام والتهوين من شأنها، وصرنا نرى صورًا من تقليد الكافر في مظهره وأفكاره وعاداته وأعياده، وأصبحنا نسمع أصواتًا كفحيح الأفاعي تنادي تارة بالتسامح الديني وتارة بزمالة الأديان وتارة بالتعايش السلمي[(١)].

ومن آخر دعواتهم ما أسموه بحوار الأديان، حيث زعموا أنهم يريدون الوصول إلى النقاط المشتركة بين الأديان، وأن تكون هذه النقاط هي أسس التدين لكل إنسان في العالم، وإنها دعوة ظاهرة المأرب واضحة الهدف، إنها لتريد تذويب الإسلام ومبادئه وقيمه لاسيما عقيدة الولاء والبراء وتريد للمسلم دينًا متميعًا بغير تميز، مشوهًا بغير ملامح.

١٤- هناك فرق بين العقيدة وبين ضوابط العقيدة:

إن العقيدة الإسلامية هي التي قررها النبي ﷺ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وجميع لوازم هذا الإيمان وما يتعلق به.

وأما ضوابط العقيدة فهي تلك القواعد المنهجية والمحددات التي تحجز صاحبها عن الانحراف وتعصمه من الضلال في مجال الاعتقاد، فالعالم بها يرد على الخصوم ويدافع عن منهج أهل الإسلام ضد مناهج أهل الكلام والفرق المخالفة. ولكن هذه الضوابط ـ مع عظيم أهميتها ـ لا يمكن أن توجد العقيدة الحية النابضة الدافعة إلى العمل والجهاد والمجاهدة وحدها.

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (باختصار)، مصدر سابق ص ١٢٥ وما بعدها.

يقول الدكتور الأشقر: «إن العقيدة التي ننشد إقرارها في عقائد النفوس وخفايا القلوب لا يمكن أن تبنيها القواعد الجافة والضوابط المقننة، إن هذه الضوابط كالجدار الذي يقام ليمنع السالكين من الخروج عن الجادة السوية، ولكن الحواجز التي تمنع الانحراف لا يمكن أن تمنح السالكين القوة الدافعة التي تجعلهم ينطلقون في مسارهم بسرعة مطلوبة؛ إن الذي يوجد القوة الدافعة في النفوس لون آخر من العقيدة، وأعني بذلك العقيدة التي في القرآن والحديث عن الله ورحمته وهدايته ومحبته وعن رسوله ﷺ وعن منهجه، قال: وإذا كان الأمر على ما بينت فالأمر يحتاج إلى مراجعة، فليس العقائديون هم الذين يعلمون ضوابط العقيدة وحدها ويعنون بها، ثم يظنون أنهم حققوا المطلوب، وأنهم أصحاب العقيدة».

فكثير ممن يتعلمون ضوابط العقيدة أو يُعلمونها يعتبرون أنفسهم هم العقائديين بذلك وأنهم قد حققوا دورهم وأدوا واجبهم تجاه العقيدة، بل يرون أنفسهم أنهم وحدهم هم أصحاب العقيدة، ويغفل هؤلاء ـ في أحيان كثيرة ـ عن تغلغل هذه العقيدة في نفوس أصحابها أو أن تكون عقيدتهم هي دافعهم الأول إلى الانطلاق إلى حيث يأملون[1].



(١) مختصر من محاضرة للشيخ محمد إسماعيل المقدم بعنوان «السلفية منهج ملزم لكل مسلم».

ثانيًا : العلم

وهو الأساس الثاني من الأسس التي ينبني عليها المنهج التربوي الإيماني لتطهير القلب وتزكية النفس. ونوجه الحديث فيه إلى عدة جوانب هامة :

١- نقصد بالعلم كأساس من أسس الطهارة القلبية علم الكتاب والسنة، العلم الشرعي الذي هو أساس ضروري في الطريق إلى الله سبحانه.

وإنما زل من زل في طريقه إلى الله سبحانه بسبب جهله وتركه العلم، وأول ما أوقع المتصوفة في الزلل تركهم العلم واستبدالهم به بدائل أخرى.

فينبغي للحركة الإسلامية المباركة أن تبني بنيانها على أساس العلم الشرعي الصافي من النبع الرباني الهادي ؛ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وأيما دعوة أهملت العلم تهدمت، وصار بناؤها زورًا وعملها غرورًا.

٢- يجب أن تجعل الحركة الإسلامية لها منهجًا علميًا واضحًا بيِّنًا متكاملاً، يتربى أبناؤها من خلاله على مقدار من العلم يكفيهم في طريق دعوتهم إلى الله سبحانه، وللأسف الشديد فإن من الملاحظ ضعف الاهتمام بهذا الجانب إلى حد كبير، وأن كثيرًا من الناس قد اكتفى بالسماع من بعض أهل العلم أو طلبة العلم بغير منهجية في العلم ولا التعلم.

كذلك يلحظ المراقب قلة طلبة العلم المنهجيين وكذا قلة العلماء العاملين الذين قد خرجتهم الصحوة الإسلامية في السنين الأخيرة.

فينبغي أن يهتم قادة العمل الإسلامي بتخريج جيل من طلبة العلم والعلماء العاملين الذين يلتف الناس حولهم، وكذلك ينبغي أن يتفهم هؤلاء القادة أن الدعوة التي لا تخرج طلبة علم عاملين وعلماء ربانيين هي دعوة بحاجة للمراجعة في أصول عملها ومنهجيتها.

٣- الحاجة إلى العلم لا تقل عن الحاجة إلى الطعام والشراب والكساء والدواء، فإن القلوب لا تحيا بغير علم كما أن الأجساد لا تحيا بغير زاد.

٤ـ العلم الشرعي هو هدي الأنبياء، ومن تركه فقد ترك هديهم، والله سبحانه يقول: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال ﷺ عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[١].

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣].

وقال سبحانه عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

٥- الشريعة الإسلامية قد أمرت بالعلم وأوصت به وأكدت عليه وعلى فضل العلماء: قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال ﷺ فيما رواه الشيخان: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[٢].

وقال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[٣].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين ١/٧١ فتح.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، ٥.

وقال ﷺ : «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»[١].

وقال ﷺ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

وقال ﷺ : «**من علم علمًا فكتمه ألجمه الله يوم القيامة لجامًا من نار**»[٣].

وقال ﷺ : «**إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير**»[٤].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة». وقال أيضًا : «العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه موت رواته ، وإن أحدًا لم يولد عالمًا ، وإنما العلم بالتعلم».

وقال الشافعي رحمه الله : «طلب العلم أفضل من النافلة».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : «تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قربه ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على البأساء والضراء ، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة في الخير ، تقتص آثارهم وترمق أفعالهم ، يبلغ العبد به منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به

(١) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، ٣٨.

(٢) رواه مسلم ، كتاب الوصية ، ١٤.

(٣) أخرجه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٤) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوحد ويمجد وبه يتورع وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء».

وقال الحسن رحمه الله: «لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم».

٦- التعلم في الصغر[1] له فضل كبير، ولعل من أنفس النصائح التي يمكن أن يقدمها العلماء للشباب هو حثهم على الإقبال على العلم في السن الصغيرة، فإنها فرصة على العاقل اغتنامها، فقد يعجز في المستقبل عما يستطيعه اليوم.

قال الحسن: «طلب العلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وقال علقمه: «أما ما حفظت وأنا شاب، فكأني أنظر إليه في قرطاسه أو ورقه».

وقال الحسن بن علي لبنيه: «تعلموا العلم، فإنكم إن تكونوا صغار قوم، تكونوا كبارهم غدًا، فمن لم يحفظ فليكتب».

وروي عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بالحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء».

ولذلك فينبغي على المناهج التربوية الإسلامية أن تولي اهتمامًا خاصًا بالأطفال الصغار وبالصبية، بحيث يحصلون قدرًا مناسبًا في سنهم الصغير.

وأما الكبير الذي فاته عمر كثير ولم يحصل علمًا، فينبغي عليه ألا ييأس من طلب العلم وألا يفقد الرغبة في التحصيل بحجة تقدم السن به، فإنه إذا أخلص لربه سبحانه وأقبل على العلم هداه الله لما لم يكن يحتسب من الخير والله سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٧- السلف الصالحون أتعبوا أنفسهم وبذلوا في تحصيل العلم كل غالٍ ونفيس، وكان أحب إلى أحدهم باب من العلم يأخذه من الطعام الشهي يتقوته.

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٨٢، المدخل إلى السنن الكبرى ٤٤٥.

فقد روى مسلم أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه رحل إلى بلاد الشام مسيرة شهر ليسمع حديثًا واحدًا من عبد الله بن أنيس وهو قوله ﷺ : «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**»(١).

وروى الشيخان أن أبا أيوب الأنصاري سافر من المدينة إلى مصر ليسمع حديثًا واحدًا من عقبة بن عامر وهو قوله ﷺ : «**من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٢) وسمع الحديث فور وصوله إلى مصر، ورجع مباشرة إلى المدينة.

وقال بسر بن عبيد الله : «إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد».

وقال أبو العالية : «كنا نسمع الحديث عن الصحابة فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم».

وقال أبو زرعة : «كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث، فقيل : ما يدريك؟ قال : ذاكرته وأخذت عليه الأبواب»(٣).

وقال ابن الجوزي : قال أبو زرعة : «أحفظ مائتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وفي المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث».

وترك ابن أبي الدنيا ألف مؤلف، وألف الحاكم ما يزيد على ألف جزء، وألف ابن عساكر تاريخه في ثمانين مجلدًا.

وسمع محمد بن إسحاق من ألف وسبعمائة شيخ، وكان يستيقظ من النوم فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم ينام ثم ينتبه حتى إنه ليقوم عشرين مرة.

والحكايات الثابتة عن أهل العلم في هذا المجال لا حصر لها وإنما أردنا مجرد الإشارة.

---

(١) رواه مسلم ٢٨٥٩.

(٢) رواه البخاري ٢٣١٠، ومسلم ٢٥٨٠.

(٣) هذه الآثار : انظر فيها : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٨٢ : ١٠٦.

٨- العلم هو الخشية[1]، والعلم الذي لا يولد الخشية علم يحاسب الإنسان عليه حسابًا شاقًا عسيرًا، فينبغي أن يتربى الشاب على أن يتعلم من العلم الخشية والإخلاص، ولا يبتغي به الرياء والدنيا.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «أصل العلم خشية الله تعالى، فالزم خشية الله في السر والعلانية».

فلا علم مع جرأة على الله سبحانه، ولا مع استمرار على ذنب، ولا مع ذهاب للحياء، وكم من طالب علم بعيد عن الخشية، يحصل العلم تحصيل التجارة ليربح شهرة أو ليشار إليه أنه عالم، فينحدر مع أول مزلق وينكسر مع أول ريح!!

قال ابن سيرين رحمه الله: «إني لأعرف الذنب الذي حمل علي الدين به ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس. قال أبو سليمان الداراني: قلت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبي وذنوبك، فليس ندري من أين نؤتى»[2].

وعن القاسم بن محمد قال: «كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو إنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج؟ قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت بالدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضل ابن المبارك علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة»[3].

وقال المروزي: «قلت لأحمد: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح من ربه يطالبه بأداء الفرائض ونبيه يطالبه بالنوافل والسنن، والملكان يطالبانه بتصحيح

(١) انظر صفة الصفوة ٤/٨٨ و قيمة الزمن عند العلماء ص٢٤، العلم ضرورة شرعية/٤٠.

(٢) صفة الصفوة ٣/٢٤٦.

(٣) صفة الصفوة ٤/١٤٥.

العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يراقب قبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة؟!»[١].

قال في حلية طالب العلم: «العلم عبادة، فإن فقد العلم إخلاص النية انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يحطم العلم مثل الرياء، ومثل التسميع؛ بأن يقول مُسمعًا: علمت وحفظت... إلخ، وعليه: فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور والتفوق على الأقران وجعله سُلمًا لأغراض وأعراض من جاه أو مال أو تعظيم أو سمعة أو طلب محمدة أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها وذهبت بركة العلم»[٢].

٩- العلم يقتضي العمل، وهو مبدأ هام وواجب كبير لابد من ترسيخه في قلوب المتعلمين:

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقال النبي ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟**»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٧. (٢) حلية طالب العلم، د. بكر أبو زيد، ص٦.

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ١/١٢٦.

وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»(١).

فيلزم الاهتمام بالعمل بالعلم اهتمامًا كبيرًا، كما يلزم متابعة ذلك من قبل المعلمين والتأكيد عليه باستمرار.

وكلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه منهج في ذلك وحده، حيث كان يصف تطبيق العلم والقرآن الذي كان يتعلمه الصحابة فيقول: «كنا نتعلم عشر آيات من كتاب الله فإذا عملنا بها أخذنا عشرًا أخر فتعلمناها وعملنا بها، فتعلمنا العلم والعمل معًا»(٢).

ولا خير في حفاظ الكتب الذين لا يعملون بها، ولا بركة في ساعة حفظ إن لم تتلوها ساعة عمل.

إن هذه الأمة لم تُبتلَ بقلة الدارسين الذين يدرسون العلم قدر ابتلائها بمن درسوا وتنكبوا الطريق لما درسوه، فها هي الجامعات تعج بالدارسين ولكن العاملين منهم ندرة، فلربما وجدت من أمة الإسلام من لم يتعلم غير كلمة التوحيد فعمل بها وطبق شروطها وأخلص لها، فثار عن غطائه ووطائه وقام فجاهد بها في سبيل الله حتى يكسر سيفه ويعقر جواده، ورب آخر مكنز لعلم كثير لا يخرج منه شيئًا إلا لأجل درهم!!

قال سهل بن عبد الله: «الدنيا جهل وموات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص له، والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «مثل علم لا يُعمل به كمثل كنز لا ينفق منه».

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٧٢٢، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر العمل.

(٢) أخرجه البخاري: ٨١/٧.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يغرركم من قرأ القرآن ولكن انظروا من يعمل به»(١).

١٠- وينبغي على طلاب العلم أن يتعلموا الأدب في العلم.

ونختصر أهم الآداب التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم في عدة أمور:

أ - التزام طريق السلف الصالح رضي الله عنهم في جميع أبواب الدين من التوحيد والعبادات ونحوها.

قال الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: «وصح عن الدارقطني أنه قال: ما شيء أبغض إليّ من علم الكلام، قلت: لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سلفيًا»(٢).

ب - دوام مراقبة الله في السر والعلن، والسير بين الخوف والرجاء، وليملأ طالب العلم قلبه بمحبة الله سبحانه وليرطب لسانه بذكره.

جـ - التواضع: هو دليل طلاب العلم الصادقين المخبتين لله تعالى، وليحذر داء الجبابرة الكبر، فتطاولك على معلمك كبرياء، واستنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وتقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر وعنوان حرمان، فالزم اللصوق إلى الأرض والإزراء على نفسك وهضمها ومراغمتها عند الاستشراف(٣).

د - القناعة والزهادة: قال في حلية طالب العلم: «فليكن معتدلاً في معاشه بما لا يشينه، بحيث يصون نفسه ومن يعول، ولا يرد مواطن الذلة والهون، وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٣٩٣/١٢/١٧هـ رحمه الله تعالى متقللاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني

---

(١) انظر في هذا والذي قبله: إيقاظ الهمة ٢٢: ٢٨، العلم ضرورة شرعية ٦٠: ٦٣.

(٢) حلية طالب العلم، ص١٠.

(٣) حلية طالب العلم، ص١٠.

بقوله: لقد جئت من البلاد «شنقيط» ومعي كنز قل أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة»[1].

هـ- سمت العلم: وسمت العلم هو السكينة والوقار والتواضع وكثرة الذكر، والتحلي بالمروءة وحسن الخلق وطلاقة الوجه وإفشاء السلام.

فعن ابن سيرين رحمه الله أنه قال: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعبث والتبذل في المجالس، بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه.

وكذلك فعليك بالبذاذة والاخشوشان في الملبس وعدم التشبه بالأعاجم ولا بغيرهم، وكن حذرًا في لباسك لأنه يعبر لغيرك عن تقويمك في الانتماء والتكوين والذوق.

والناس يصنفونك من لباسك، بل إن كيفية اللبس تعطى للناظر تصنيف اللابس من: الرصانة والتعقل أو التمشيخ والرهبنة أو التصابي وحب الظهور.

فخذ من اللباس ما يزينك، ولا تجعل فيك مقالاً لقائل ولا لمزًا للامز، وإذا تلاقى ملبسك وكيفية لبسك بما يلتقي مع شرف ما تحمله من العلم الشرعي كان أدعى لتعظيمك والانتفاع بعلمك، بل بحسن نيتك يكون قربة؛ لأنه وسيلة إلى هداية الخلق، وفي المأثور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أحب إلي أن أنظر القارئ أبيض الثياب» أي ليعظم في نفوس الناس فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق.

إذن فالأدب لطالب العلم لا يقل أهمية عن العلم الذي يتعلمه.

---

(١) حلية طالب العلم، ص١٢.

ومن أهم الآداب أيضًا الأدب مع المعلم والمربي[1]:

فعن أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلاً قد أسبل إزاره، فقال له: ارفع إزارك. فقال: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك. قال: إن بساقيّ حموشة وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب الرجل ويقول: أترد على ابن مسعود؟!

وعن أبي سلمة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت فأخذ بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: إنا هكذا نفعل بعلمائنا.

وبلغ إبراهيم الحربي أن بعض تلاميذه يفضله على أحمد بن حنبل، ويتحدثون بذلك؛ فجمعهم وقال لهم: ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشبهه ولا ألحق به في حال من الأحوال، فأقسم بالله لا أسمعكم شيئًا من العلم أبدًا إن عدتم إلى ذلك.

وما زال الإمام أحمد يدعو لشيوخه حتى مات.

وكان الشافعي لا يتصفح الورق أمام مالك مهابة له.

وللأسف الشديد فإن الذين يتلقون العلم في أيامنا هذه ليتعاملون مع معلميهم ومربيهم بطريقة خالية من التوقير والتأدب، وربما أغلظ بعضهم على معلمه القول فآلمه، وقلَّ من يسأل عن مربيه وأستاذه أو من يقوم بخدمته ومعونته أو من يراعي أحواله وشئونه، ولعمري إن ذلك لمن الوفاء، ولكن هذا الوفاء قد اغترب مع كل جميل يغترب.

قال الشافعي رحمه الله: «الحر من راعى وداد لحظة أو انتمى لمن علمه لفظة».

فعلينا أن نعلم طلبتنا هذا المعنى الهام من الوفاء والأدب، وأن نعلمهم معرفة قدر معلمهم وحبه والدعاء له والستر عليه وغض الطرف عن أخطائه، والدفاع

---

(١) انظر: حلية طالب العلم ص١٣: ١٥، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص١/١٥٨: ١٦٠، أخلاق العلماء للآجري ص ٨ وما بعدها.

عنه في غيبته، والتواضع له، والفخر بأنه من تلاميذه، ورفع قدره أمام الناس، والسؤال عنه إذا غاب والمسارعة في خدمته إذا احتاج، وينبغي ذلك مع كل معلم صالح، حتى من علمه بابًا واحدًا من العلم.

١١- وها هي مجموعة من النصائح التربوية والبصائر المنهجية في العملية التعليمية:

أ - الجزئيات، والكليات:

قال الماوردي: «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أساس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى»[١].

أما إذا كانت الأصول أهم من الفرع فالابتداء بها أولى كأمور العقيدة وأسس الإيمان.

ففرق بين الجزئيات التي توصل بمبادئها إلى الكليات فيكون ذلك في الفن الواحد تدرجًا.

وبين توجيهنا أن يدرس الطالب أصول الشريعة قبل فروعها.

يقول الجاحظ: «ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول، ولا تنظر في الطرف والغرائب وتؤثر رواية الملح والنوادر وكل ما خف على قلوب الفُرّاغ وراق أسماع الأعمار إلا بعد إقامة الحدود والبصر بما يثلم ذلك العمود».

والعمود في علوم الشريعة ما كان المكلف محتاجًا إليه بذاته ثم ما يحتاج إليه الناس في عقيدتهم أولاً ثم عباداتهم ثم ما يصحح أمور معاشهم...إلخ[٢].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٥٥.

(٢) انظر: ربانية التعليم، عبد الله يوسف الحسن، دار البشير، ص٢٥.

وكذلك يجب على المتعلم حفظ الأصول ـ من الطاعات ـ كما يحفظ الفروع، فلا يهتم بفرع ويضيع أصلاً، بل يأخذ الدين جملة كاملة لا نقص فيها.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عدها من حفظ الفروع وتضييع الأصول، فالله الله في تضييع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى، فإنه من أهملت ماشيتُه نفشت في زروع التقى»[١].

ب - التدرج والاسترسال:

التدرج ـ كما سبق ـ يقتضي الترتيب بين أجزاء الفن الواحد من العلم أو بين الفنون المختلفة من العلم. والقفز والاسترسال في المسائل المتقدمة دون مراعاة الترتيب، يضيع العلم، ويبعثر الجهد.

قال في الإحياء: «فإن العلوم مرتبة ترتيبًا ضروريًا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج»[٢].

بل إن العلماء لينصحون الطلاب بعدم الاسترسال والخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل: «يراعي الترتيب ويبدأ بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبًا، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه»[٣].

وقال الإمام ابن حجر: «وكذا تعليم العلم يجب أن يكون بالتدريج؛ لأن الشيء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالبًا الازدياد»[٤].

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، دار الكتب، ١٥٦.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي ١/٥٢. (٣) نفس المصدر ١/٥٣.

(٤) فتح الباري ١/١٦٣.

جـ - الواضح والغامض:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: «يعني حكماء فقهاء، والرباني الذي يربي بصغار العلم قبل كباره، قال ابن حجر: والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها»[١].

فمن المعلوم أن في كل علم جوانب واضحة، يسهل فهمها، وفيه ما قد يصعب فهمه أو يحيطه شيء من الغموض، فيكون الواضح أولى بالتعليم، والأصل في المفتي والكاتب والداعية والخطيب إبلاغ العلم لأهله على هذا المنوال[٢].

بل إن الإمام ابن القيم رحمه الله بين أن المفتي لا يصح له أن يُشْكل أو يغمض السائل له، بل عليه أن يوضح له الإجابة بيسر وسهولة.

قال ابن القيم: «ولا يجوز تخيير السائل وإلقاؤه في الإشكال والحيرة، بل عليه أن يبين بيانًا مزيلاً للإشكال، متضمنًا لفصل الخطاب، كافيًا في حصول المقصود، لا يحتاج معه إلى غيره»[٣].

ومما يتعلق بذلك كراهية التقعر في الكلام أو لباسه ثوب الفلسفة والبعد عن بسيط القول والسهل اليسير منه، فإن ذلك كله من التعالم الذي هو ادعاء العلم بغير حق.

والأجدى اختيار أقصر الطرق وأسهل الأساليب التي يفهمها المخاطب ويدرك كنهها دون أن يؤدى ذلك به إلى عدم الفهم أو تحميل المعاني غير ما تحتمل[٤].

---

(١) فتح الباري ١/١٦٢.
(٢) ربانية التعليم، مصدر سابق ص٣٣.
(٣) إعلام الموقعين ٤/٢٢٨.
(٤) ربانية التعليم ص٤٢.

د - تخصيص بعض الناس بعلم دون بعض:

وأقصد بذلك أن المعلم قد يخص قومًا دون قوم بنوع من العلم، وذلك لاختلاف مفاهيمهم ومداركهم، وتجاربهم، وممارساتهم.

فإن بعض الناس قد يفهم فهمًا خاطئًا أحيانًا عند استماعه أو قراءته لعلم فوق قدرته أو مداركه، أو يفسره تفسيرًا باطلاً، أو يحمل الكلام أكثر مما يحتمل، فليس كل أحد يُحدَّث بكل علم.

وقد استنبط الإمام البخاري هذا المعنى، وترجم في كتاب العلم من صحيحه بقوله: «من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا، وقال علي: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذب الله ورسوله»[1].

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2].

وذكر الإمام الشاطبي ما خرجه شعبة عن كثير بن مروة قوله: «إن عليك في علمك حقًا كما عليك في مالك حقًا: لا تحدث بالعلم غير أهله فتُجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك»[3].

وقد بين الحافظ ابن حجر أن من العلماء من كان يرى التحديث ببعض الحديث دون بعض عند قوم دون آخرين، فمن هؤلاء:

«أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم (فتح الباري ط/١٢٥).

(٢) مقدمة صحيح مسلم (باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/١٠٨).

(٣) الاعتصام، الشاطبي، ١/ ٢١٤.

الجرابين ـ وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأن اتخاذها وسيلة إلى ما كان ظاهر الحديث يقوى البدعة ـ وظاهره في الأصل غير مراد ـ فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب»[١].

وما أحوج جمهور المربين والدعاة لهذا المعنى، وأن يراعوا مخاطبة الناس على قدر عقولهم وهذا لا يتم إلا بفراسة يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده العلماء حتى يستطيع تمييز الكلام واختيار السامع له.

قال في أدب الدنيا والدين: «وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم»[٢].

هـ - الاستمرار والانقطاع:

ليحذر المعلم من انقطاع الطالب في أثناء طريق التعلم، فهي آفة منتشرة بين المتعلمين حيث يبدأ الطالب في سلم التعلم ويسير فيه فترة، ثم تشغله الشواغل، فيترك طريق العلم ويهمله، وينبغي على المربى الاهتمام بذلك.

ولعلاج هذا الداء يجب على المعلم أن يتابع أحوال الطالب أولاً بأول، حتى يكون على معرفة قريبة بما يحدث له، وعليه أن يستقرئ مدى استمرارية الطالب المتوقعة.

و - الانسلاخ:

ليحذر المربون والمعلمون من هذا الداء، داء الانسلاخ من العلم الذي تعلمه أو محاولة الهروب من التطبيق لهذا العلم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

---

(١) فتح الباري، ١/٢٢٥.

(٢) أدب الدنيا والدين ٨٩.

ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيات.

وعلى المربي أن يقف معه وقفة قوية في أول مظهر من مظاهر ترديه وتراجعه، فلعله أن يتعظ وينتبه.

وكثير من المربين يخطئ في هذه المسألة؛ فيشتد في معاملة المتراجعين لدرجة هروبهم منه، بل واختفائهم عنه، والصواب ألا يعين عليه الشيطان وأن يستمر معه يُذكره وينبهه، ويسأل عنه، مُظهرًا حزنه عليه وشفقته وألمه، على ألا يوافقه في منكر عمله، بل ينكر عليه ويبين له، ويدعو له، لعل الله أن يذهب ما في صدره من سوء ويبدله سلامة.



ثالثًا: العبادة

العبادة هي الأساس الثالث من أسس طهارة القلب وزكاته، ذلك إنها هي التطبيق العملي لجميع المعلومات النظرية التي يتلقاها القلب والعقل، ولا طريق للتطبيق العملي غيرها؛ فإما أن يعمل العبد بما علم فيحسن عمله فتقبل منه عبادته ويرقى في مقامه عند ربه، وإما ألا يعمل بما علم أو يعمل فيسيء عمله فلا تقبل منه أعماله فيسقط عند ربه.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

فأنت ترى في تلك الآيات السابقات قومًا أرادوا تقديم الأعمال لله ولكنها لم تقبل منهم رغم جلال هذه الأعمال وعظمها، ولكن الله ردها عليهم؛ لأنها لم تكن كما يرضى الله سبحانه ويحب.

فالله وحده هو سبحانه الذي يقبل العبادة أو لا يقبلها.

وثمة مقياس أوحد لقبول العبادة أو ردّها علمه لنا الإسلام هو «الإخلاص لله والمتابعة للنبي ﷺ» وسميته مقياسًا أوحد رغم أنهما عملان مختلفان لأنهما لا ينفصلان أبدًا، وإذا ما افترقا فسد العمل، فكانا كالشيء الواحد كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعابد الذي يرجو أن يتقبل الله عمله لابد أن يتحرى الدقة كاملة في هذا المقياس وإلا صار عمله ضائعًا وجهده مردودًا عليه، قال الله تعالى عمن عبد ولم يخلص: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وإليك هذه الوقفات مع العبادة كأساس للتربية الإيمانية.

١ - العبادة لله سبحانه فضل منه سبحانه، ونعمة منه عز وجل وتكرم وجود، وهي ليست باجتهاد إنساني أو نشاط جسدي فحسب؛ فإن ذلك بدون أن ينعم الله عليك بأن تعبده ويوفقك لعبادته، فأنت فقير إلى ذلك. لهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

(١) أخرجه أبو داود ٢/ح ١٥٢٢، والنسائي ٣/ ح١٣٠٢، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص٦٥ .

٢- العبادة لله سبحانه بغير استعانة به سبحانه هي عبادة ناقصة؛ لأنها قد تفضي بالإنسان أن يفرح بعمله ويعجب به، ولأنها تفرغ القلب من مقام الاستعانة والتوكل، وهو مقام لا تكتمل حياة القلب إلا به.

فيجب على المؤمن إذا عبد ربه ـ سبحانه ـ أن يستعينه ويتوكل عليه في عبادته له وإلا نقصت عبادته، إذ إنه سبحانه هو الموفق لطاعته، وبصورة أوضح ينبغي على المرء أن يكتمل في قلبه أثناء عبادته أنه قد سلم أمره لربه سبحانه واعتمد عليه وحده، وفوض أمره له وحده، وتيقين بأنه وحده كافيه، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته سبحانه، ومن كان هكذا مع ربه فالله كافيه ولابد.

٣- الإخلاص لله سبحانه والاقتداء بسنة نبيه ﷺ شرطا قبول العمل لله سبحانه، ولا عبادة بغيرهما ـ كما سبق الإشارة إلى ذلك ـ، وأهل الإخلاص لله سبحانه والمتابعة لنبيه ﷺ أعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عدّوا الناس بمنزلة الموتى أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا.

فمن عرف الناس عاملهم بقدرهم، ومن عرف الله أخلص له في كل نفس وفي كل لفتة، وفي كل طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض:

«العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا: وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكون صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن

خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة»[(١)].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه ومتابعًا لرسوله ﷺ، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه هباءً منثورًا، وفي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قول النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[(٢)].

٤- من الناس من هو مخلص في عمله لكنه غير متبع للسنة في عبادته، والسبب في ذلك جهله، فيرد عليه عمله. وللأسف الشديد فإن كثيرًا من المتصوفة العباد قد يخلصون لله سبحانه في أعمالهم ولكنهم يقعون في مخالفة سنة النبي ﷺ، فيبتدعون في دين الله ما ليس منه ويخترعون العبادات.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة فهو في ضلال، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة وأن الخلوة التي تضيع الواجبات عبادة وأن ذكر الله بالاسم المفرد عبادة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل عبادة، إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون»[(٣)].

ولذلك فإننا قد سبق وبينا أن العلم أساس متين من أسس العبودية لله سبحانه، وما زاغ من زاغ إلا لجهله وقلة علمه، أما من كان عالمًا وظل في زيغه فهذا من فساد قلبه وسواد سريرته.

٥ - يظن كثير من الناس أن أفضل العبادة أشقها على الإنسان وأصعبها عليه، ويظن آخرون أن أفضلها ما كان فيه نفع للعبد نفسه، وقال آخرون: بل أفضل العبادة ما كان فيه نفع للآخرين.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٧.

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/٢٦٩٧، فتح، مسلم ٣/أقضية /١٣٤٣/١٧.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم ص ٦٩

قال ابن القيم رحمه الله: «أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بمقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد هو الجهاد في سبيل الله وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، والأفضل في وقت السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار»[1].

فتأمل هذا المعنى واستنتج الفوائد... تستخرج ذهبًا ولؤلؤًا.

٦- العبادة شطران: شطرٌ محبة لله سبحانه، وشطرٌ ذل له عز وجل، **فأما الشطر الأول** وهو المحبة لله سبحانه فمعناه: أن يكون الحب كله لله سبحانه فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب المؤمن أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه؛ فمحبتنا لهم من تمام محبته سبحانه وتعالى وليست محبة معه، أما محبة الفساق فقد قال الله عنها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومحبة الله سبحانه إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها وشاهدًا على من ادعاها فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأما الشطر الثاني: وهو الذل والخضوع فهو المعنى العربي للعبادة؛ تقول العرب: طريق معبد يعني: مذلل، والتعبد هو التذلل والخضوع.

وشيخ الإسلام يجمع هذه المعاني في تعريفه للعبادة فيقول: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»[2].

---

(١) نفس المصدر ص ٧٠.

(٢) راجع في معنى العبادة: فتح المجيد/ ص١٤، ١٥، ١٦.

٧- العبادة لازمة للمسلم حتى يلقى ربه سبحانه وتعالى، لقوله عز وجل: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه»[١] اهـ.

فظهر لك ضلال كل من يدعي أنه قريب من الله لدرجة سقوط التعبد منه وأنه في حضرة الله أو في معيته، وهو لا يؤدي الفرائض أو بعضها ويترك النوافل والعبادات.

٨- وقفة مع حديث الولاية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه**»[٢].

شرح الحديث:

قال الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله[٣]: «**من عادى لي وليًا**»: المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته.

وقال ابن علان: «الولي: القريب من الله»[٤].

قال ابن حجر: قد تقع المعاداة بين الولي وبين آخر، أما من جانب الولي فلله تعالى وفي الله وأما من الجانب الآخر فلتعصب أو ابتداع أو ظلم.

---

(١) راجع في معنى العبادة: فتح المجيد/ ص١٤، ١٥، ١٦.
(٢) رواه البخاري ١١/ ح٦٥٠٢ / فتح.
(٣) فتح الباري، ج ١١/ ٣٥٠.
(٤) دليل الفالحين ج٢ /٢٦٦.

«فقد آذنته» : يعني أعلمته.

«بالحرب» : يعني بالمحاربة ، وفي رواية (فقد بارز الله بالمحاربة).

قال ابن حجر: وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة ، فمن والى أولياء الله أكرمه الله.

«وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه» : في الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه والانقياد له وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية.

«وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» : قال: ظاهره أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة التقرب بالنوافل ، والمراد بالنوافل التي تقرب إلى حب الله تعالى ما احتوى على الفرائض.

«كنت سمعه الذي يسمع به» : قال ـ مختصرًا ـ: ومعناه من وجوه: أحدها أنه على سبيل المثال ، ومعناه: كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري ، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح ، وثانيها: أنه كليًا مشغول بي ، فلا يصغى بسمعه إلا لما يرضيني ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به ، وثالثها: كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه ، ورابعها: قول الفاكهاني وابن هبيرة: كنت حافظ سمعه وبصره ، قال: قال الطوفي: اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ، وخامسها: قال الخطابي: وقد يكون عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء ، وقال البيهقي: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي[1].

---

(١) قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: «(كنت سمعه) يعني أسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضي الله (وبصره) يعني أسدده في بصره ، فلا يبصر إلا ما يحب الله ، (ويده التي يبطش بها) فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله... فيكون مسددًا في أقواله وفي أفعاله» ، وكلامه ـ رحمه الله ـ الأقرب للصواب. (شرح رياض الصالحين ١ / ٧٤٠).

فوائد من الحديث الشريف:

أ - تحقق الولاية أمر ممكن وهو بأداء أوامر الله والانتهاء عن نواهيه وتصفية العمل من شوائب الشرك وكثرة النوافل بعد الفرائض، والبذل لله سبحانه.

ب - أن الله سبحانه يدافع عن أوليائه.

جـ- أن أداء الفرائض أحب شيء من العبادات لله سبحانه.

د - الطريق إلى محبة الله للعبد أداء النوافل من العبادات والإكثار منها.

هـ- إن العبد الصالح يصل إلى القرب من الله سبحانه في درجات متفاوتة.

و- إذا وصل العبد الصالح الولي إلى أن أحبه الله سبحانه فقد تكفل الله سبحانه له بإجابة دعائه وحمايته والدفاع عنه وتسديده للصواب.

٩ - إن سلف الأمة الصالحين كانوا مجتهدين في العبادة جدًا يرتجون مقام الولاية من الله سبحانه والقرب منه عز وجل، وإليك هذه الأمثلة[١]:

- كان شداد بن أوس إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت مني النوم فيقوم فيصلي حتى يصبح.

- وقال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق يصير كأنه ثور منحور من البكاء، لا يجترئ أحدٌ منا أن يسأله عن شيء إلا دفعه.

- قال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك.

- وقام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه بآية يتلوها حتى أصبح: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ... ﴾ [الجاثية: ٢١] الآية.

---

(١) من أخلاق السلف، أحمد فريد، ٥٩، مع المسلمين الأوائل ٦٨، ٦٩، ١٥٣.

- وكان تحت عيني ابن مسعود مثل الشراك البالي من كثرة القيام والبكاء.

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر شيئًا يشبههم قط ، كانوا يصبحون شعثًا غبرًا بين أعينهم كركب المعزى ، فإذا صلوا مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح ، فكأني بالقوم باتوا غافلين.

١٠- وهاهي مجموعة من التوجيهات التربوية في العبادة التي يلزم المربي أن يعلمها الناس وأن يوجههم إليها ويربيهم عليها :

أ- العبادات أنواع ؛ ولا تقتصر على النوع الجسدي أو المالي من العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، بل هناك العبادات القلبية التي هي أساس قبول العبادات الظاهرية كالإخلاص لله والخشوع له والإنابة إليه والصدق معه ، فيجب الاهتمام بها أكبر اهتمام.

ب- إن حياة الإنسان كلها يمكن أن تصير عبادة ، بل إن الصالح للإنسان أن تكون حياته كلها عبادة لله سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣]، بل والعادات التي اعتادها الإنسان يمكن أن يقلبها إلى عبادات ، باستحضار النوايا الصالحة معها وإخلاصها لله عز وجل وجعلها ابتغاء مرضاته سبحانه.

جـ- ليحذر المرء إشراك غير الله مع الله في معاني العبادة ، دون أن يستشعر مناقضة ذلك للعبودية ، وذلك كإشراك غير الله في الطاعة والاتباع ، سواء كان هذا الغير زوجة أو ولدًا أو حاكمًا أو شيطانًا ، علمًا بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

د- صرف الهمة لغير الله ، وتفضيل أمر غيره على أمر الله ؛ كحب كثير من الناس للدنيا وعبادتهم للشهوات والغرائز دون أن يشعر ، فإن هذا يقدح في كمال العبودية لله سبحانه ، قال رسول الله ﷺ : «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**»[١].

(١) رواه البخاري ، الجهاد والسير ، ٢٦٧٣.

هـ- تبصير الناس بحاجتهم للعبادة وضرورتها لهم أمر أساسي، ليزيد حرصهم عليها، وتمسكهم بها، ولا يتصورونها عبئًا ملقى على ظهورهم، فكثيرًا ما يتعامل الناس مع تلك العبادات الربانية معاملتهم مع واجب ثقيل على نفوسهم، بدلاً من تعاملهم معها كضرورية لحياة قلوبهم ونفوسهم بل وأجسادهم[١].

و - يجب أن يربط المعلمون والمربون في نفوس الناس معنى العبودية بتوحيد الله سبحانه وبمعرفة أسمائه وصفاته سبحانه، قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها، إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب سبحانه ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل الإله الحق وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود...»[٢].

ز- الإنسان مخلوق مكلف[٣]، ضعيف قاصر، مركب من روح وجسد، فمن حيث كونه مخلوقًا يتجلى فيه عنصر الخضوع والطاعة لخالقه، ومن حيث كونه مكلفًا تتجلى حاجته إلى بيان ما كلف به واستعداده للقيام بالوظيفة التي كلف بها وهي العبادة، ومن حيث كونه ضعيفًا قاصرًا: تظهر حاجته إلى المعونة والتقوية من ربه القوي القاهر المتعال، وإلى التوجيه والإرشاد من العليم الخبير، ومن حيث كونه مركبًا من روح وجسد تتجلى حاجته إلى تغذية كل من الجانبين وضرورة إعطاء كل جانب حقه، وإلى هذه الحاجات مجتمعة أشار الله سبحانه وتعالى في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ

---

(١) بصائر دعوية، محمد البيانوني، دار السلام ص ٢٣.

(٢) مدارج السالكين، ١/١١٠.

(٣) انظر: بصائر دعوية، مصدر سابق ص٢٣.

يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

ح - إن للعبادة أثر نفسي على العبد ذاته في تهذيب خلقه وسمو مشاعره وتزكية نفسه وتوسيع أفقه وحسن تفكيره وصحة سلوكه، والبعيد عن العبادة بمعناها الكامل هو بعيد عن كل تلك المعاني السابقة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ...﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣] الآيات.

ط- ليؤكد كل مرب ومعلم على أمر الثبات على العبادة لله سبحانه وعدم الانقطاع في العبادة، فلقد كان عمله ﷺ ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته[1]، وعلمنا ﷺ أن خير الأعمال أدومها وإن قل، فالمهم الثبات على العمل وعدم الانقطاع فيه، ولقد أنكر الله سبحانه على من انقطع في عمله مع ربه، فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم: ٣٣، ٣٤].

فالثبات الثبات على الأعمال يا عباد الله حتى تلقوا الله فتسعدوا بأعمالكم.

١١ - وليحذر كل عابد لله سبحانه من مزالق الجهال في عبادتهم لله على غير هدي النبي ﷺ.

- قال الذهبي[2] رحمه الله في ترجمته لأحمد بن أبي الحواري الصوفي تعليقًا على بعض كلامه: «قلت: الطريقة المثلى هي المحمدية، وهو الأخذ من الطيبات، وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقد قال النبي ﷺ: «لكني

---

(١) سبق تخريجه ص١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، ١٢/ ٨٩.

أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآتي النساء، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني». فلم يشرع لنا الرهبانية ولا التمزق ولا الوصال بل ولا صوم الدهر.

ودين الإسلام يسر وحنيفية سمحة، فليأكل المسلم من الطيب إذا أمكنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الطلاق: ٢٧]، وقد كان النساء أحب شيء إلى نبينا والطيب، وكذلك اللحم والحلواء والعسل والشراب الحلو البارد والمسك، وهو أفضل الخلق وأحبهم إلى الله تعالى ﷺ.

ثم العابد العريُّ من العلم متى زهد وتبتل وجاع وخلا بنفسه، وترك اللحم والثمار، واقتصر على الدقة والكسرة صفت حواسه ولطفت، ولازمته خطرات النفس، وسمع خطابًا يتولد من الجوع والسهر لا وجود لذلك الخطاب في الخارج، وولج الشيطان في باطنه وخرج، فيعتقد أنه وصل، وخوطب وارتقى، فيتمكن منه الشيطان، ويوسوس له، فينظر إلى المؤمنين بعين الازدراء، ويتذكر ذنوبهم، وينظر إلى نفسه بعين الكمال، وربما آل به الأمر إلى أن يعتقد أنه ولي وصاحب كرامات وتمكن، وربما حصل له شكٌّ وتزلزل إيمانه.

فالخلوة والجوع أبوجاد الترهب، وليس ذلك من شريعتنا في شيء.

بلى، السلوك، وملازمة الذكر، وترك مخالطة العامة، والبكاء على الخطيئة، والتلاوة بالترتيل والتدبر، ومقت النفس وذمها في ذات الله، والإكثار من الصوم المشروع، ودوام التهجد، والتواضع للمسلمين، وصلة الرحم، والسماحة وكثرة البشر، والإنفاق مع الخصاصة، وقول الحق المر برفق وتؤدة، والأمر بالعرف، والأخذ بالعفو، والإعراض عن الجاهلين، والرباط بالثغر، وجهاد العدو وحج البيت، وتناول الطيبات في الأحايين، وكثرة الاستغفار في السحر، فهذه شمائل الأولياء وصفات المحمديين أماتنا الله على محبتهم».

رابعًا: الذكر

ذكر الله، هو الأساس الرابع من أسس التربية على طهارة القلب، ولا يمكن إتمام السير في طريق القرب إلى الله سبحانه بدون الذكر.

ذلك أن الذكر هو العبادة التي يتزود منها السائر إلى الله سبحانه في سيره، ومثله كمثل الزاد للمسافر تمامًا، فإذا نقص زاده وقل طعامه خارت قواه وضعفت جوارحه، فوجب عليه عندئذ أن يعود إلى التزود.

يقول ابن القيم رحمه الله: ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يصلي الصبح ثم يقعد يذكر الله سبحانه إلى أقرب من نصف النهار، وكان يقول: هذه غدوتي وإن لم أتغدَّ لم أتقو ليومي.

ذلك فالذكر هو مكان التزود للسير في الطريق، وهو المنزلة التي يتردد عليها دائمًا أهل الإيمان والجهاد والتقوى. ومن أكرمه الله سبحانه بدوام الاتصال بذكره سبحانه فقد أكرمه بفتح الباب إليه والسماح له بالقرب منه، ومن عزله الله سبحانه عن ذكره فقد منعه عنه وأبعده عن طريقه.

وذكر الله سبحانه سلاح المؤمن في كل المواطن والمواقف والمشكلات والأزمات، وبه يدفع المؤمن عنه الأمراض وتكشف الكربات وتهون عليه المصائب.

والمؤمن الحق هو الذي يفزع إلى ذكر الله إذا نزل به بلاء أو مصيبة ويلجأ إليه إذا دارت عليه دائرة أو حلَّت به نازلة.

وذكر الله سبحانه هو جنة المتقين التي يفرون إليها إذا ضاق بهم سجن الدنيا، فترى الذاكر بجسده في الدنيا سجينًا، لكنه بروحه وقلبه في الجنات مرفرفًا فرحًا مسرورًا، ذلك أن ذكر الله ـ لمن أحبه وداوم عليه ـ لا يدع قلب الإنسان الحزين إلا مسرورًا، ولا يدع نفس المتألم إلا راضية سعيدة.

وذكر الله سبحانه من أهم عبادات القلب، بل هو عبودية القلب واللسان، ويصح لهما في كل وقت.

قال ابن القيم رحمه الله: «كلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقاء ربه واشتياقًا»[1]، ذلك أن ذكر الله هو جلاء القلوب الصدئة ودواء القلوب المريضة.

وقال الحسن: «تفقدوا الحلاوة واللذة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»[2].

فحقيق على شباب أمة الإسلام اتخاذ الذكر وسيلة للخروج من غضب الله وعقابه واتخاذه وسيلة لتطهير القلوب والثبات على أمر الله.

وحقيق على العلماء والمربين أن يربوا شبابهم على تعويدهم ذكر الله سبحانه في كل وقت وفي كل حين، فيتربى والذكر عنده هو زاده وطمأنينة قلبه.

المبادئ الأساسية التي يتربى عليها المسلم في مسألة الذكر:

١ - الله سبحانه أمر بالذكر وحث عليه وجعل عليه جزاءً عظيمًا، وكذلك أمر نبيه ﷺ وحث عليه وجعل لأهل الذكر مقامًا عليًا.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

فهذه الآيات الثلاث السابقات فيها كفاية لمن نور الله قلبه بالإيمان أن يظل ذاكرًا لربه سبحانه على كل حال.

---

(١)، (٢) انظر: الوابل الصيب ٦٢، ٦٣، ١٠٢.

ويقول ﷺ : «**سبق المفردون**» قيل: ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[١].

ويقول ﷺ : «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[٢].

٢- ينبغي على المؤمن السائر في طريق القرب إلى الله أن يستمر على ذكره لله سبحانه على كل حال، وما أعظم ذلك اليوم الذي نجد فيه شباب الحركة الإسلامية يتسلحون بسلاح الذكر في كل وقت أمام أعدائهم قبل أي سلاح. ولقد لقينا من أهل العلم والفضل أناسًا لا تفتر ألسنتهم عن ذكر الله سبحانه، فكانوا يتكلمون معنا، فإذا حصلت سكتة أو صمت فإذا هم يعاودون الذكر والاستغفار، وفي السفر كانوا لا يفترون عن ذكر الله، وكلما انتقلوا من مكان إلى مكان، فكان فعلهم أبلغ من ألف نصيحة.

والنبي ﷺ أمرنا بدوام الذكر وألا تفتر ألسنتنا عنه، فقال ﷺ : «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٣]، ومن عود لسانه على ذلك تعود، وإنما يعرف من جرّب.

وروى مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : «**ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[٤].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحانه الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض**»[٥].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة، ٤/ذكر ٢٠٦٢/ ح٤.
(٢) رواه البخاري عن أبي موسى ١١/ح٦٤٠٧/ فتح.
(٣) رواه الترمذي وأحمد في مسنده، وصححه الألباني، صحيح الترمذي برقم ٢٦٨٧، عن عبد الله ابن بسر رضي الله عنه.
(٤) رواه مسلم ٤/٢٠٩٣.
(٥) رواه مسلم ١/٢٠٣.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[1].

٣- إن ذكر الله أكبر، قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «فيها ثلاثة أقوال: أحدها: ذكر الله أكبر من كل شيء فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها. ثانيها: معناه: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. ثالثها: أن ذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق الخطيئة والمعصية كلها»[2].

٤- أن الذكر تختم به الأعمال الصالحة:

قال سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] فجعل ختم الصيام تكبيرًا.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] فجعل ختم الحج ذكرًا.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠] فجعل ختم الصلاة ذكرًا.

٥- أن المسلم ينبغي له ألا يجلس مجلسًا لا يذكر الله تعالى فيه، حتى وإن كان مجلسًا مباحًا لشيء دنيوي، فعليه أن يذكر الله فيه بل ويأمر الجالسين بذكر الله سبحانه، وأن يدير دفة الحديث إلى ذكر الله والاستغفار ولسوف يوفقه الله إلى ذلك. وعليه أن يكرر ذلك في المجلس الذي هو فيه. قال ﷺ: «**ما من قوم يجلسون مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار**»[3].

(١) رواه مسلم ١/٢٨٢. (٢) الوابل الصيب ص ٩٨.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٥٥) باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله، عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

وقال ﷺ: «**ما من قوم يجلسون مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم من الله ترة**»[1] وهي الحسرة والندامة.

وينبغي على المؤمن أن يتجرأ في فعل ذلك ولا يستحي من تذكير الناس بالله؛ فإن المرء لا يستحي إلا مما هو منقصة، وذكر الله أصل الكمال وزينة الأفعال، إنما على أهل الغفلة أن يستحيوا من غفلتهم.

قال ابن الجوزي[2] رحمه الله: «وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة... وإذا انفض مجلس الذكر فأهله على أقسام: فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر، ومنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له فعل الواجبات وهم أصحاب اليمين، ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات وهؤلاء هم السابقون المقربون».

قال ابن القيم[3] رحمه الله: «ومجالس الذكر مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم إلا مجالس ذكر الله تعالى، كما أخرجا في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم - قال - فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو**

(١) أخرجه الترمذي بلفظ: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» وصححه الألباني، صحيح الترمذي برقم ٢٦٩١ والصحيحة ٧٤.

(٢) انظر: المغني عن مجالس السوء: ص٧، ص١٣.

(٣) الوابل الصيب ص٩٨.

راوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميدًا وتمجيدًا وأكثر تسبيحًا، قال: فيقول: ما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة، فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها، قال: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة، قال: يقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»[١].

قال ابن القيم: فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فهكذا المؤمن مبارك أينما حل والفاجر شؤم أينما حل[٢].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد أن رسول الله خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن علينا به. قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة**»[٣].

لقد كان محمد ﷺ لفرط إيمانه وقوة علاقته بربه يحول الله به الأرض سماءً، والبشر أولياء، فأصحابه حوله يذكرون الله ويوقرونه ويتواصون بعبادته وأداء حقوقه.

---

(١) رواه مسلم ٤/ ذكر / ٢٠٦٩.

(٢) الوابل الصيب ٩٩.

(٣) رواه مسلم ٤/ ذكر / ٢٠٧٥.

وكان ﷺ يمقت مجالس الغافلين، ويشمئز من كل تجمع خلا من ذكر الله، وفي ذلك سبق أن ذكرنا أحاديث زجره عن ذلك، فقال: «**ما من قوم يجلسون مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار**»[1].

إن المجالس التي ينسى فيها الله، وتنفض عن لغط طويل حول مطالب العيش وشهوات الخلق هي مجالس فتنة، وماذا فيها يستحق البقاء؟ إن الذي يستحق البقاء هو ما اتصل بالباقي تبارك اسمه، وإذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة فينبغي أن يستبقى خيره في مجلس ويستبعد شره بهذا الاستغفار الذي علمناه النبي ﷺ: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»[2].

٦- الناس بالنسبة لذكر الله أنواع:

فالنوع الأول: قوم لا يذكرون الله سبحانه:

فحياتهم ومعيشتهم ليس فيها أي نوع من ذكر الله، بل إنهم حتى استبدلوا السلام بتحية الصباح والمساء، لأن فيه ذكر الله وهم يعتبرون الذاكر لله سبحانه «درويشًا» أو يعتبرونه عديم الأدب والذوق!! وإذا عطس أحدهم ورددت عليه بتشميته «يرحمك الله» خجل من ذلك!! ولا تعجب فإن هذه المجتمعات كثيرة جدًا اليوم، وهم يعتبرون أنفسهم في غاية التحضر والمدنية وغاية التميز بل إنهم يرون أنفسهم صفوة المجتمع... وإن ترى هذه المجتمعات فإنك تراهم من المغنين أو الممثلين أو من الأغنياء اللاهين العابثين أو من طبقة الصحافيين والكتاب الذين لا مبدأ لهم ولا قيمة، وتراهم وقد استبدلوا لغتهم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، فإنك تكاد تلمح ـ بجهد ـ بعض كلمات العربية بين ثنايا كلامهم ـ وهم عرب ـ !! وكيف يناسب ذكر الله مجتمعهم وقد ملأه العري والخمر واللهو؟

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٣.

(٢) أخرجه النسائي وصححه الألباني، صحيح النسائي برقم ٢٧٣٠.

قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات.

والنوع الثاني: قوم يذكرون الله قليلاً:

وهم المشغولون بأعمالهم الدنيوية؛ بجمع المال أو مفتونون بشهوة ما، وأكثرهم واقع في المعاصي أسير لها.

وهؤلاء إذا قُدر للمسلم أن يجالسهم أو يحضر مجتمعاتهم فعليه أن يذكر الله بينهم وإن كرهوا، وأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وإلا صار شريكًا لهم في غفلتهم، وإن لم يستطع ذلك، فعليه أن يفارقهم.

قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

النوع الثالث: قوم يذكرون الله ولكن مع غفلة:

وأقصد بالغفلة أن ذكرهم إنما يكون باللسان فقط ولا يوافق القلب ولا يمس الضمائر، وهم أحسن حالاً من النوعين السابقين ولا شك؛ لأن في مجرد ذكر الله باللسان محاولة للإقبال على الله سبحانه، كما أن لسانه يشتغل بعبادة، لو لم يذكر لم يعمل هذا اللسان بهذه العبادة، وكما قيل: الإقبال ولو كان ضعيفًا خير من الإدبار بالكلية.

ولكننا ولا شك لا نرضى من المؤمن أن يذكر ربه بلسانه وقلبه غافل؛ لأن الله سبحانه لا يقبل دعاءً من قلب غافل، ولأنه لا قيمة لذكر باللسان إن لم يوافق القلب ويواطئه ويمس مشاعره، وإنما ينتفع من الذكر من جعله مطهرة لأمراض نفسه وقلبه.

كذلك فإن كثيرًا من المسلمين يذكر ربه لتعوده على ذلك، ولكنه لا يستفيد من آثار الذكر على نفسه وقلبه، تمامًا كمن يصلي بغير حضور أو خشوع.

والنوع الرابع: قوم يذكرون الله سبحانه حق الذكر:

وهم الذين يذكرون الله مع يقظة وشعور وانتباه وحضور قلب وتفهم معنى، واقتداء بصحيح سنته ﷺ، ويذكرونه كثيرًا، ولا يرتاحون أو يطمئنون إلا في ذكره، وهي درجة عالية ومقام رفيع يكرم الله سبحانه أهله فيقربهم منه ويفيض على قلوبهم من أنوار ذكره تكرمًا وتفضلاً.

وهي الدرجة التي نرجو من جميع شبابنا العمل بها والسعي إليها، فيرتبطون بذكر الله سبحانه، ويشعرون أثناء الذكر بمعانيه وتتشرب قلوبهم ونفوسهم ذكر الله سبحانه، وحينئذ يشعرون بلذة الذكر، ويجدون أنفسهم بحاجة إليه كلما غفلوا عنه وتطمئن به قلوبهم.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

٧- ثواب الذاكرين:

جعل الله سبحانه لذكره ثوابًا لم يجعله لعمل آخر غير الذكر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[1].

---

(١) رواه البخاري ١١/٦٤٠٣/ فتح، ومسلم ٤/٢٠٧١، ح٢٨.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[1].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين وحمد الله ثلاثًا وثلاثين وكبر الله ثلاثًا وثلاثين وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[3].

٨ - ينبغي أن يتربى المسلم عالمًا متيقنًا أنه لو داوم على ذكر ال له سبحانه أمن من نسيانه الذي هو سبب شقاء الإنسان في حياته وآخرته، فإن نسيان الله سبحانه يوجب نسيان نفسه... قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا نسي الإنسان نفسه غفل عن مصالحها وانشغل عن الخير باللهو وعن الطاعة بالمعصية وعن البر بالشر وعن الحق بالزور وهذا هو الذي صار أمره فرطًا، يعني ضائعًا وهذا الذي أحاطت به أسباب الهلاك.

لا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى وكثرة اللهج به وأن لا يزال اللسان رطبًا بذكره وأن يصير كحياته التي لا يستغني عنها وغذائه الذي إذا فقده هلك جسده، وكالماء عند شدة العطش، وكاللباس في الحر والبرد.

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني، صحيح الترمذي برقم ٢٧٥٧.

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني، صحيح الترمذي برقم ٢٨١٧ بلفظ: (أربع رقاب).

(٣) رواه مسلم ١/٤١٨/ ح١٤٦.

قال ابن القيم: «ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسى الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦] يعني تنسى في العذاب»[١].

٩ - يعلم المؤمن أنه بذكره لله سبحانه يكسوه النور، والنور ثمرة الذكر، وهذا ميزان دقيق لمحافظته على ذكر الله سبحانه.

والسائرون إلى الله سبحانه يذكرون الله تعالى فيستشعرون نور الذكر في قلوبهم وتمتلئ قلوبهم نورًا، فهم يذكرون الله لتنير قلوبهم.

وهم قوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وما يزالون يرتقون في أذكارهم وأنوارهم التي تتابع على قلوبهم.

وما كان لقريب من الله سبحانه بعد أن يذوق حلاوة ذكره أن يتوقف عنه، فهم يذكرون الله ليزدادوا نورًا، فإذا تقدموا في الطريق إلى الله فلا يتوقفون لحظة عن أذكارهم، فهم يحافظون عليها ليحافظوا على نور قلوبهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن الذكر نور الذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارة القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى»[٢].

١٠ - الذاكر قريب من مذكوره:

الذاكر لربه قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وإذا صدق في ذكره لربه وداوم عليه شعر بالقرب منه سبحانه وتعالى.

---

(١) الوابل الصيب، ابن القيم ص٦٠ دار الغد العربي.

(٢) الوابل الصيب ص ٨٦.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[١].

قال ابن القيم: «وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق»[٢].

وقال رحمه الله: «فإن للذاكر معية خاصة لا يشبهها شيء وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة»[٣].

وهذا المعنى معنى عظيم جليل لا يمسه ولا يشعر به إلا الذاكرون الصادقون الدائمون في ذكرهم، المحبون لمذكورهم سبحانه. ولو وفقنا الله في تربية جيل من الشباب المسلم يشعر بلذة الذكر ويشعر بأثره على قلبه فهو أعظم توفيق.

تلك الدرجة ليست بعيدة المنال ولا مقطوعة الطريق ولا مستحيلة الحدوث، إنها في مقدور الجميع، إنها في متناول الناس، وإنما جعل لها الله سبحانه طرقًا لتحصيلها والوصول إليها لا يوصل إليها إلا عن طريقها: تمام العبودية وإحسان الذكر، فمن وفاهما فهو على أول الطريق، فليسأل الله التوفيق.

وتصور معي أمة إسلامية يشعر شبابها بمراقبة ربهم سبحانه هذا الشعور، ويداوم أبناؤها على ذكر ربهم هذا الذكر، أفيعوقها عائق؟ أو يتجرؤ عليها عدو؟؟ إن بأيدينا النور، ولكننا - وللأسف - ذهبنا نبحث عنه في الظلام!

١١- ملجأ ومأوى:

كذلك فإنه يجب علينا أن نربي أبناءنا وشبابنا أن يجعل من الذكر ملجأ إليه ومأوى إذا اشتدت به الصعاب، وكثرت عليه الهموم والآلام والمشكلات، وتعقدت أمامه شئون الحياة، وألمت به المصائب والمتاعب.

---

(١) متفق عليه، البخاري ١٣/ح ٧٤٠٥/ فتح، مسلم ٤/٢٠٦١/ ح٢.

(٢) الوابل الصيب ص ٨٧. (٣) الوابل الصيب ص ٨٧.

فعندئذ يلجأ إلى ذكر الله سبحانه فيستشعر أنه لاذ بقوى ولجأ إلى عظيم واحتمى بقادر؛ فيطمئن قلبه وتسهل عليه صعابه وتخف آلامه وتصير عنده قوة لم يكن يظن أنها عنده.

يقول ابن القيم[1] رحمه الله: «إن ذكر الله يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذكر الله عز وجل على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت. فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم، وذكر الله يذهب عن القلب مخاوفه وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل؛ إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول الخوف حتى كأن المخاوف التي يجدها صارت أمانًا له».

والداعية إلى الله سبحانه إذا جعل من الذكر ملجأً له ومأوى من همومه ومصاعبه لن تجده يجزع عند الخوف، بل لن تجده يشعر بالخوف أصلاً من غير الله سبحانه، بل ستجده قويًا في الآلام يحتمي الناس به ويلتفون حوله لثباته وقوته ولجوئه إلى ربه وركونه إليه، والناس أحوج ما يكونون إلى من كانت هذه صفته ليلتفوا حوله ويقتدوا به. والواقع المرير أن الناس لم يجتمعوا حول كثير من الدعاة إلى الله لما رأوهم كثيري الكلام قليلي العمل، يتكلمون بالإيمان وأعمالهم لا تشع نور الإيمان، وجوههم لا تعلوها العزة ونفوسهم لا يزينها التوكل وحياتهم لا تلفها الإنابة، فبمن يقتدي الناس؟ وممن يتعلمون؟!

١٢- علاج القلب:

الذكر علاج للقلب المريض وذلك من وجوه:

أ- أن القلب البشري فيه بطبيعته نقص لا يكمله إلا ذكر الله، وفاقة لا يملؤها إلا ذكر الله، ومن داوم على ذكر الله عَلِم هذا.

---

(١) الوابل الصيب ص١٠١.

ب- أن ذكر الله ينبه القلب من نومه ومن غفلته ليستدرك ما فاته.

جـ- أنه يورث جلاء القلب من صدئه.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل.

د- أنه يعيد حياة القلوب، قال ابن القيم رحمه الله : «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟»[١].

هـ- أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله سبحانه، ولما شكى رجل للحسن قسوة قلبه قال له : أذب قسوته بالذكر.

١٣- قوة نفسية :

ذكر الله يعطي الذاكر قوة نفسية عجيبة ويظهر ذلك جدًا في سلوكه وصفاته النفسية.

قال الإمام ابن القيم[٢] : «الذكر يعطي قوة للذاكر حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه ؛ ولقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا».

وقد علم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ويكبرا أربعًا وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلمهما وقال: «**إنه خير لكما من خادم**»[٣].

---

(١) الوابل الصيب ص٥٥، ص١٠٢.

(٢) الوابل الصيب ص٥٥، ص١٠٢.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري ٩/ح٥٣٦١/ فتح ومسلم ٤/ذكر/٢٠٩١/ح٨٠.

١٤- عبادة توقيفية :

إن ذكر الله عبادة فلا تصح إلا بدليل صحيح، فلذلك لا يصح استحداث الأذكار بلا دليل صحيح، كذكر الله سبحانه بالاسم المفرد «الله» أو اختراع اسم لله سبحانه ليذكر به مثل: «ياهو»، وقد أنكر شيخ الإسلام[١] وغيره من العلماء على فاعل ذلك أشد نكير وعدّوه من أهل البدع والجهل وكذلك الأذكار الجماعية المتفقة والحلقات التي خصصت لذلك، ناهيك عما يحصل بها من مخالفات شرعية لا دليل عليها من كتاب ولا سنة.

وكذلك لا يصح اختراع عدد من الأذكار معين يؤمر المسلم بفعله وليس له دليل صحيح، نعم ما كان له عدد من الأذكار بدليل صحيح صح، وإلا فلا، وذلك كمثل الذي يشترط أن يذكر الناس ربهم سبعين ألف مرة أو مائة ألف مرة حتى يبتدئ في طريق التوبة والقرب من الله سبحانه، فليحذر المؤمن هذه المنزلقات ولا يغتر بقول أحد إلا إذا كان معه دليل صحيح ثابت من كتاب أو سنة.

نعم أمرنا أن نذكر الله كثيرًا، وأن نسبحه بكرة وأصيلاً، ولكننا لم نؤمر بهذه الأرقام المستحدثة التي هي خالية من أي دليل شرعي صحيح.

---

(١) انظر علم السلوك/ لشيخ الإسلام ابن تيمية من ٥٥٦ : ٥٦٣.

الفصل الثاني

هدف التربية الإيمانية
(تزكية القلب) أو (القلب السليم)

- ماذا نعني بتزكية القلب؟
- مدار التربية الإيمانية على القلب السليم.
- النصوص الشرعية في القلب السليم والمريض.
- وقفة مع حديث حذيفة.
- وظيفة الدعاة والعلماء.
- الفشل في إصلاح القلوب.
- نور القلب وظلمته.
- وقفة مع تفسير آية النور.



هدف العملية التربوية الإيمانية
(تزكية القلب)

ماذا نريد بتزكية الإنسان لقلبه؟

إننا نعني أن ينتقل الإنسان بنفسه من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة ، ومن تفكير غير راشد إلى تفكير راشد ، ومن قلب مضطرب مريض إلى قلب مطمئن سليم ، ومن روح خبيثة إلى روح طيبة عارفة بالله قائمة بحقوقه ، ومن جسد غير قائم بأمر الله إلى جسد قائم بأمره.

وبالعموم نعني الانتقال بالإنسان من ظلمة إلى نور أو من ظلمة فيها بصيص نور إلى نور كامل لا ظلمة فيه.

فيصير المؤمن بإذن الله من أمامه نور ومن خلفه نور وعن يمينه نور وعن شماله نور ، بل يصير هو ذاته داعية إلى الهدى والنور بطاعته لربه ومراقبته له وباستنانه بسنة نبيه ﷺ .

فالعملية التربوية الإيمانية تهدف إلى إيجاد القلوب السليمة والإبقاء على سلامتها حتى تلقى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فتنجو ، حيث لا ينجو يومها إلا صاحب القلب السليم.

كما تهدف التربية الإيمانية إلى إيجاد صفات لازمة لصاحب القلب السليم لا تنفك عنه غالبًا ، إذا أراد أن يكون من عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين المقربين.

(وهذه الصفات هي: الإيمان، والعلم، والذكر، والبذل، وحسن الخلق).

فتهدف التربية الإيمانية إلى إيجاد المؤمن العالم الذاكر الباذل الخلوق :

أولاً: الإيمان: فيهدف المنهج التربوي الإيماني أن يُعَلِّم الإنسان الإيمان بربه سبحانه وتوحيده، وبأركان الإيمان وإخلاص العبادة له، وإخلاص قلبه له وتجريد المحبة والخوف والرجاء وسائر العبادة له سبحانه لا شريك له والسير على نهج نبيه ﷺ.

ثانيًا: العلم: فيهدف أن يعلمه العلم النافع الذي هو علم الكتاب والسنة وأن ينبذ الجهل، وأن يقبل على العلماء ويتعلم منهم وأن يستمر على ذلك - يتعلم ويُعَلم - وينشر ذلك العلم ويطبقه على نفسه وعلى من يستطيع ويبذل في ذلك قدرته وطاقته حتى يلقى ربه.

ثالثًا: الذكر: فيهدف هذا المنهج ان يتعلم المسلم كيف يذكر ربه وكيف يُعود نفسه على ذكر ربه دائمًا حتى يصير ذكر الله غذاءه ودواءه وأن يتحرى في ذلك الثابت الصحيح من السنة.

رابعًا: البذل والعطاء: فيهدف المنهج التربوي الإيماني أن يتعلم المسلم كيف يصير باذلاً معطاءً مضحيًا في سبيل الله بنفسه وماله وبكل ما يحب وأن يتعلم معاني الكرم والجود والسخاء، ومعنى العطاء النفسي من الصبر والرضا، وأن يضيء لغيره الطرق ويبين لهم الإرشادات مهما كان متألمًا، وألا ينحني أو ينثني في الخطوب والابتلاءات، ولا يُسترق لشيء أبدًا، وأن يقدم نفسه لله مقبلاً غير مدبر.

خامسًا: حسن الخلق: فيهدف أن يعلمه كيف يُحسن خلقه مع نفسه ومع ربه ومع الناس، فيتعلم الأخلاق الإسلامية الحسنة، وكيف يعالج أخلاقه السيئة، وكيف يصير نموذجًا أخلاقيًا يُحتذى به مقتديًا في ذلك بالنبي ﷺ.



القلب السليم

قال الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فما هو ذلك القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به؟!

١- إن القلب السليم هو القلب الذي خلصت عبوديته لله سبحانه إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاءً، وخلص عمله لله؛ فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل ما عدا منهج الله سبحانه ومنهج نبيه ﷺ.

٢- فالقلب السليم هو الذي يتلقى أوامر الله سبحانه بمنتهى التسليم والرضا، ويصير وجلاً إذا ذكر ربه، ويزداد إيمانه إذا سمع آيات الله عز وجل.

٣- وهو القلب الخالي من الشرك بالله سبحانه، المسلم له اعتقادًا، المؤمن بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهو قلب طاهر من أدناس الشرك بجميع صوره وأشكاله مهما صغرت وتضاءلت.

٤- وهو القلب المؤمن بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، منزه لله سبحانه عن مشابهة خلقه، مثبت لله سبحانه ما أثبته سبحانه لنفسه من صفات في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ، فهو قلب لا ينفي صفات الله ولا يعطلها ولا يؤول في أسمائه وصفاته ولا يلحد فيها.

٥- وهو قلب تملؤه العبودية الخالصة له وحده: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]، فهو يقطر إخلاصًا وتوحيدًا، فالإخلاص يملأ جنباته، والتوحيد يغلفه جميعًا، ولا إله إلا الله تغذيه، فينبض عبودية تامة.

٦- وهو قلب ـ مع ذلك كله ـ خائف وجل مشفق من تقصيره في حق ربه، خاشع من عظمة الله، يرى ما هو فيه قليلاً تجاه مولاه، فيظل يوقن في توحيده لله ويظل يقترب من مولاه حتى يلقاه.

٧- وهو قلب لا يزال يضرب على صاحبه حتى يجعله منيبًا إلى الله، ويجعله بنفس قوة القلب وحيويته وجديته وعبوديته وإيمانه، وهو قول النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

٨- وهو قلب آثر الآخرة على الدنيا، وهب لنصرة دينه ولرفع رايته، لا يقر له قرار إلا يوم يرى كلمة التوحيد عالية خفاقة، فيبذل نفسه، مجاهدًا في سبيل إعلاء كلمة الله، ويقدم روحه رخيصة ليسجلها في سجل الشهداء.

٩- وهو قلب طموح، تواق إلى ما عند الله، لا يقنع بمكانه من العلم والبذل، يظل طامعًا فيما عند الله، لا ينتهي طموحه إلا في جنة النعيم.

١٠- وهو قلب صحيح، يبرأ من عيوب القلوب وأمراضها لا يحمل غلاً لأحد من المسلمين ولا حقدًا ولا حسدًا ولا غشًا، لا يصل إليه عجب، ولا يتطرق إليه كبر، فهو منكسر بين يدي ربه ومتذلل له، قد برئ من كل الشبهات التي تخالف خبر الله في كتابه وعلى لسان رسوله ومن كل شهوة تخالف أمره ونهيه يخشى من تقلب القلوب ويحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه.

النصوص الشرعية في القلب السليم والقلب المريض:

١- قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]. وسبق الكلام عنه.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١/ح٥٢، فتح) ومسلم (٣/ مساقاة، ح١٠٧).

٢- قال الله سبحانه: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعليقًا على هذه الآيات(١):

«فجعل الله سبحانه القلوب ثلاثة: قلبين مفتونين وقلبًا ناجيًا، فالمفتونان القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المخبت لربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد»اهـ.

٣- قال سبحانه: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]

فالمرض في الآية الأولى هو مرض الشبهة التي تدعو إلى الشرك أو النفاق، والمرض في الآية الثانية هو مرض الشهوة التي تدعو إلى الكبائر (الزنا واللواط).

٤- قال سبحانه: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فجعل الله سبحانه وتعالى في جهاد المشركين فوائد كثيرة؛ عذابهم بأيدي المؤمنين وخزيهم ونصرة المؤمنين عليهم وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ

---

(١) إغاثة اللهفان ص ١٨.

القلب وتوبة الله سبحانه على المخلصين، فجعل العبادة التي هي الجهاد شفاءً للقلب وتغيظه.

٥- قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

قال الجمهور من المفسرين: ثيابك فطهر يعني قلبك فطهره[١].

٦- يقول سبحانه: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

وهو القلب التائب المصلح.

٧- قوله سبحانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣].

أي أخلص قلوبهم للتقوى حتى أصبحت لا تصلح إلا له[٢].

٨- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[٣].

فجعل مدار الحساب على التقوى.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثلُ أفئدة الطير**»[٤].

قال النووي: قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة طاهرة مؤمنة.

---

(١) نفس المصدر، ص٦٠.

(٢) تفسير الآلوسي - روح المعاني - سورة الحجرات، نقلا عن إمتحان القلوب ص١٣.

(٣) رواه مسلم (٤/١٩٨٧). (٤) رواه مسلم (٤/٢١٨٣).

١٠- عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين؛ قلب أسود مربادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت الأرض والسماوات**»[1].

وقفة مع حديث حذيفة (السابق):

الحديث يصف لنا البداية، البداية التي بها ينتمي القلب إلى أحد قسمين: إما المرض وإما السلامة، فإن الله سبحانه قد شاء أن تعرض الفتن على القلوب بشكل مستمر متتالٍ لا يتوقف، بل إنها تزداد يومًا بعد يوم حتى يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم - كما وصفها النبي ﷺ -، وأحسب أن هذا الزمان هو آخر الزمان، ونحن نرى كيف تموج بالمؤمنين الفتن ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، فإما فتنة شبهة تبعد الإنسان عن الإيمان بربه وتوحيده له والتسليم لشرعه واتباع نبيه فيقع في المحظور، وإما شهوة تبعد الإنسان عن أوامر ربه ونواهيه فيقع في الحرام..، وبين الشهوات والشبهات تموج الفتن.

والقلوب في مهاب رياح الفتن تقبلها أو تردها، فأيما قلب قبل الفتنة وتشربها وامتص آثارها تركت فيه أثرًا: نكتًا سودًا وعلامات سوداء، وتزداد هذه العلامات وهذا النكت بازدياد قبوله بالفتن ووقوعه فيها وتشربه لها...

فتغطي القلب تلك السوادات والآثار المظلمة فيصير كأنه مطليٌّ بسواد في سواد، وباستمرار الفتن وعدم رده لها يصير طلاءُ فوق طلاء، حتى تتكون على القلب طبقة من آثار الفتن تغطيه فتضعف قوته ويتآكل معها الحق الذي فيه...

---

(١) رواه مسلم (١/١٢٨).

وتظل الفتن تعرض عليه ويظل يقبلها حتى يغلف القلب في مراحله الأخيرة بغلاف من آثار ما كسب يمنعه من قبول الخير والهدى، يقول تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

وأيما قلب رد الفتنة واحتمى بحمى الإيمان واستعاذ بالله من شيطانه ومن هوى نفسه وخاف مقام ربه وأراد رضاه ونهى النفس عن الهوى... صار في قلبه قوة على رد الفتنة.

وكلما نجح في رد فتنة زادت قوته وقويت إرادته في رد الفتنة التي تليها، ويظل يرد الفتن راجيًا ما عند الله حتى تصير قوته على رد الفتن قوة ذاتية فيه وطبيعية له فلا يضره شيء ما دامت الأرض والسماوات.

وهذا الحديث حديث عظيم البيان واضح المعاني... من اهتدى إلى ما فيه من نور الوحي فقد هداه الله إلى خير كثير فصلى الله وسلم على محمد طبيب القلوب.

الوظيفة الأولى للعلماء والدعاة هي إصلاح القلوب:

إن الوظيفة الأولى للأئمة والعلماء والدعاة هي إصلاح القلوب عن طريق توحيدها بربها، إصلاح قلوبهم ومن ثم إصلاحهم لقلوب الناس أو إعانة الناس على إصلاح قلوبهم.

فيبثوا في الأمة روحًا جديدة من الإيمان بالله سبحانه، ويجددون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح والمجتمع بالأخلاق، والعلم بالربانية. ويتركون زينة الدنيا وزخرفها.

فيستطيع أحدهم أن يفعل كما فعل سلطان العلماء ـ رحمه الله ـ وقد طُلب منه أن يُقَبل يد ملك بلاده ليرضي عنه فقال: «يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد».

وكما قال آخر.. وقد عرض عليه ملكُ بلاده أن يقبل شيئًا مما آتاه: إن الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخسة فقال: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء: ٧٧]

ويمد أحدهم[١] رجله إلى أمير جبار، ويرسل إليه هذا الأمير صرة من الذهب فيرفضها قائلاً: «إن من مد رجله لا يمد يده».

وهذا هو شيخ الإسلام رحمه الله يستحقر المُلك فقد قال له الملك الناصر ذات مرة: سمعت بأن الناس أطاعوك وأنت تفكر في الحصول على الملك! فرد عليه الشيخ قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلهم: «أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسًا».

فلا شك أن هؤلاء وأمثالهم ـ أصحاب النفوس المزكاة ـ الذين طهروا قلوبهم وتعلقوا بالله وأعرضوا عن متاع الحياة هم الذين يعينون الناس أمام طغيان المادة العاتية وبدونهم ينهار المجتمع روحيًا وتضعف الصلة بالله ويفقد الناس الطبيب.

وهنا ملحوظة مهمة: وهي أن بعض الدعاة إلى الله وطلبة العلم يظنون أن غاية الابتلاء والامتحان هو الأذى الجسدي: من سجن وتعذيب وأسر وغيرها، أو أذى معنوي من مقاطعة الناس أو عدم استجابة أو سخرية أو استهزاء وهذا لا شك قصر لمفهوم الابتلاء، وإلا فإن أشد أنواع الابتلاء هو ابتلاء القلب وامتحانه.

وكم رأينا ممن نجح في امتحان الأذى والتعذيب، لكنهم أخفقوا في امتحان القلب[٢]، ولذلك كان من دعاء الراسخين في العلم:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) وهو الشيخ سعيد الحلبي عالم دمشق ـ رحمه الله ـ.

(٢) انظر: امتحان القلوب. د/ ناصر سليمان العمر ص١٦.

الفشل في إصلاح القلوب:

إن الدعاة إلى الله إذا عجزوا عن إصلاح القلوب فقد عجزوا عن أهم وظائفهم، ولن يفلح أبدًا فكر ولا عمل بغير إصلاح القلب، بل إنهم يضيعون أوقاتهم في غير طائل وينفقون مجهوداتهم سدى!!!

إننا إذا نظرنا إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة الإيمانية القلبية إلى الله والربانية وتزكية النفوس... إنك تشعر فيها بفراغ هائل لايملؤه العلم المجرد ولا الفكر المستحدث... إنها ستمر بأزمة روحية وخلقية لا علاج لها وبمشكلة من مشاكل المجتمع لا حل لها...

فالناس فريسة المادة والمال، والسعي وراء المال والمادة ينشر الأمراض الاجتماعية والخلقية، والمثقفون - سواء كانت ثقافتهم دينية أو مدنية - فريسة الحرص على الجاه والمنصب واستشرت فيهم الأمراض الباطنية من حسد وشح ورياء وأنانية وحب ظهور ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة والقوة والسياسة...، والعلماء يضعف سلطانهم باهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر...

إن الفشل في إصلاح القلوب يخرج لنا نماذج مرضية من الناس، يخرج لنا أصنافًا من الفساق والمنافقين والكذابين والشهوانيين...

إنها أصناف لا تتأثر بالقرآن مهما قرأته ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أصناف لا يتأثرون بالموعظة أو التذكرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

إننا إذا فشلنا في إصلاح هذه القلوب وعلاجها فلا ننتظر جيلاً مؤمنًا يدافع عن دينه ومقدساته، بل سيخرج علينا جيل تافه عديم الهوية يقاتل من أجل

حطام زائل أو شهوة عابرة... ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وانظر معي إلى قول الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

إن القرآن لا ينتفع به إلا أصحاب النفوس المؤمنة والقلوب السليمة، أما أصحاب النفوس الخبيثة والقلوب المريضة فهم لا ينتفعون به.

وانظر في الآيات تجد أن السورة بالنسبة للمؤمنين تزيدهم إيمانًا وبالنسبة لأصحاب القلوب المريضة فإنها تزيد في مرضهم وخبثهم...، لذا فعلينا وعلى الدعاة إلى الله علاج هذه القلوب من أمراضها حتى تنتفع بالقرآن فإن أصل الابتداء في تربية أي إنسان هو إصلاح قلبه...



نور القلب وظلمته

إن البداية الصحيحة في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى... هي كلمة التوحيد؛ «لا إله إلا الله»، فبها يضيء القلب وبها توهب له الحياة.

وكلما بعد الإنسان عن كلمة التوحيد كلما اقترب من المرض والموت، وأظلم قلبه واسود.

ومن ثم فإن المربين الراشدين يضعون نصب أعينهم أن يملؤوا قلب المبتدئ بمعاني لا إله إلا الله محمد رسول الله، فمتى استنار القلب بنور التوحيد وانسجم سلوك الإنسان مع سنة نبيه ﷺ من خلال علم وذكر والتزام صحيح، فإن تغييرًا هائلاً يحدث في ذلك الإنسان ويظهر عليه من الأعمال ما يحير العقول ويدهشها من الفتح الرباني والثبات والصمود والبذل والجهاد والدعوة والعلم.

إن العرب قبل الإسلام لم تكن لهم حضارة تذكر، ولا ثقافة عريقة يعودون إليها ولا خبرة لهم بالحكم والإدارة ولا بالتقدم والابتكار...

ولكنهم عندما قبلوا كلمة التوحيد، وتحققت بها قلوبهم وأنارت كما قال الله سبحانه عنهم ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦]، فصاروا أهل كلمة التوحيد وانسجم سلوكهم مع القرآن - كتاب التوحيد - فتغير حالهم وخرجت الأعاجيب من أفعالهم وصاروا نور الدنيا بأجمعها وهداة الخلق أجمعين ودانت لهم الأرض بجوانبها فصاروا أقوى أمة وأرقى حضارة وهزموا الممالك والدول العظمى وأخذ شعوب العالم دين الإسلام دينًا لهم.

واليوم والمسلمون في حال تخلف وانحدار وضعف وهزيمة واستهتار حتى صاروا في ذيل الأمم واستهانت بهم القوى العالمية.

إن شيئًا واحدًا هو الذي سيعيد لهم المجد ويختصر الطريق، إنها كلمة التوحيد وسلوكهم تبعًا لسنة النبي ﷺ من خلال علم وعمل وتفاعل وعطاء، إن هذا وحده هو الذي سيختصر الطريق ويعيد لنا الماضي المجيد؛ إذ إنه بهذه الكلمة سيوجد الإنسان الراقي ذو القلب السليم وهو لبنة بناء الشعوب الفائزة والمنتصرة.

أشعة لا إله إلا الله...

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

«اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور ـ قوة وضعفًا ـ لا يحصيه إلا الله تعالى؛ فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملاً، ومعرفة وحالاً»[1].

إن عباد الله الصالحين... يعيشون في هذه الدنيا مع الناس وبينهم ولكن قلوبهم متعلقة بالآخرة، إن قلوبهم تحيا في حياة رغدة سعيدةَ هانئة، لو عرفها الملوك لقاتلوهم عليها، لأنها ألذ من لذاتهم وأروح لأنفسهم وريحانًا لقلوبهم في ذات الوقت الذي يعاني فيه الناس من حولهم من الألم والقلق والحيرة والتخبط والتنازع والتقاتل.

يقول الله سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٧.

فالأول كان ميتًا فاستنار قلبه بالإيمان ودبت فيه الحياة وهو المؤمن الصالح، والثاني الغافل المعرض عن ذكره في الظلمات... قد مات قلبه.

نور الإيمان...

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور كل النور، والشقاء كل الشقاء في فواته»[١].

يقول الإمام: «ولهذا كان النبي ﷺ يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعل النور في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول: «**واجعلني نورًا**»»[٢].

أنوار تحيط بالمؤمن:

قال الإمام ابن القيم: «فدين الله تعالى عز وجل نور، وكتابه نور، ورسوله نور[٣]، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه. وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده أشرقت بنوره الأرض وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما.

---

(١) الوابل الصيب ص ٦٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما واللفظ (واجعلني) لمسلم حديث ٧٦٣/ باب الدعاء في صلاة الليل، والبخاري بلفظ (واجعل لي) حديث ٥٩٥٧ باب الدعاء إذا انتبه بالليل.

(٣) يقصد: أثر الرسول ﷺ ورسالته على الناس والدنيا، فهو نور يهدي الله به إلى سبيله والدنيا بغير نور رسالته سوداء مظلمة؛ وليس كما يظنه الخرافيون من أن النبي ﷺ خلق من نور.

وحجابه تبارك وتعالى النور؛ قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[١]، فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه سبحانه، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره، ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئًا يسيرًا جدًا ساخ الجبل في الأرض وتدكدك ولم يقم لربه تبارك وتعالى، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: «ذلك الله عز وجل إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء وهذا من بديع فهمه رضي الله عنه ودقيق فطنته...»[٢].

كيف يحدو النور إلى القلب؟!!

إنها ثلاثة آثار بها يحدو النور إلى قلب المؤمن، وبزيادتها يزداد نوره حتى لا تبقى به ظلمة، فأما الأول: فهو كلمة التوحيد وتحقيق شروطها وأما الثاني فهو نبذ الذنب والإقبال على العبادة، وأما الثالث فهو تحقيق معاني العبودية ظاهرًا وباطنًا..

أما الأثر الأول: فهو أثر كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» في القلب وأثر العلم بها نفيًا وإثباتًا وتطبيق شروطها بالحقيقة، والإخلاص لها والإقبال عليها، فمن قام بذلك خرج من ظلمة الغفلة إلى نور التوحيد، وعلامة ذلك كره الشرك بجميع صوره وأشكاله ونبذه، والبراءة منه قولاً وعملاً واعتقادًا، وكذلك فإن من علاماته الإقبال على الله بالكلية ومحاولة تنقية الأعمال من مراءاة الناس ومحاولة جمع القلب على الله سبحانه، فمن قام بذلك حدا النور نحوه في أول آثاره، ووجد ذلك في قلبه وحياته.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٩) عن أبي موسى.

(٢) الوابل الصيب ص ٦٦.

الأثر الثاني: وهو أثر نبذ الذنب والإكثار من العبادة والذكر حتى إنه ليكره الذنب تمامًا ويتوب من ذنبه التوبة النصوح وينسى لذة الذنب ويكره أن يعود إليه ويفارق المعاصي كفراق المشرق للمغرب، وهو دعاء النبي ﷺ: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**»[١]، وكذلك أن يكثر من الطاعات فيقوم بحق الفرائض كاملة غير منقوصة ثم يكثر ما شاء الله له من النوافل وهو ما جاء في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[٢]، ثم يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى قيامًا وقعودًا ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا وهو قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقول النبي ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٣]. فإذا نبذ الذنب وأقبل على العبادة وملأ قلبه وجوانحه ذكرًا لله سبحانه، حدا إليه النور خطوة أخرى ووجد ثاني آثاره، إذ يشعر بالنور في قلبه ويبدأ في التحرر من سجن الدنيا ويجد نفسه حرًا خفيفًا من أسر نفسه وهواه ودنياه. ويشعر بلذة الطاعة تسري في عروقه.

الأثر الثالث: وهو أثر تحقيق معاني العبودية الكاملة وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

فيقوم المؤمن بالتدرج في مراتب العبودية شيئًا فشيئًا مستعينًا بالله عز وجل، يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فيقوم بالجهاد في سبيل الله بنفسه وماله وما يحب، ويحسن خلقه مع الناس، وترقى منزلته في منازل العبودية، فيحقق التوبة والإنابة، والتفكر والاعتصام بالله، والخوف منه، والفرار إليه، والإشفاق من عذابه، والإخبات إليه، والزهد فيما عند الناس، والورع فيما بين يديه، والإخلاص في كل سكناته

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة - فتح/ جـ٢/٧٤٤. (٢) سبق تخريجه ص ٦٨.

(٣) سبق تخريجه ص٨٠.

وحركاته، والتوكل عليه، والثقة بما في يديه، والرضا بقضائه، والحياء منه، والطمأنينة في ذكره، والمحبة له، والفرح بقربه... إلى غير ذلك من مراتب العبودية.

فإذا حقق ذلك هداه الله سبحانه ونصره على الشيطان وعلى هوى نفسه، ووجد أثر النور في قلبه، يملأ قلبه ويضيء طريقه... ويثبته في الفتن...

كيف يؤدي النور عمله؟

إن عمل النور في قلب الإنسان كعمل كشاف مضيء في ليل مظلم، فهو الذي يكشف لك الأشياء على حقيقتها، فتراها كما هي ولا تراها أبدًا كما زينت في الدنيا ولا كما زينها الشيطان للغافلين ولا كما زينها هوى النفس في أنفس العاصين.

يرى الزنا فلا ينظر إليه أنه متعة ورغبة ولا يرى المرأة في وقتها بزينتها ولا بجمالها، ولكنه يضيء له فيرى الزنا ظلمة وفقرًا وغمًّا وكبيرة، ونهايته العذاب والحسرة والدمار... يرى الرشوة.. فلا ينظر إليها على أنها مال ولا غنى ومتاع، ولكنه يراها على أنها لعنة وحسرة وعاقبتها الخسران.

يرى الدنيا... فلا يراها على أنها متاع براق ولا زينة خلابة ولا أمل وضيء ولكن يراها دار ابتلاء واختبار وأنها لا تساوي عند الله شيئًا... وهكذا يعمل النور... لذلك فلابد للعاملين لله سبحانه من البحث عن كيفية إيجاد النور في قلوبهم وكيفية تنوير قلوبهم ليروا حقائق الأشياء ويسيروا على هدى من الله سبحانه.

وفقدان هذا النور ظلمة وطمس للبصيرة وتخبط وتعثر وهم وضيق صدر دائم، قال الله سبحانه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ... ﴾ [الزمر: ٢٢] الآيات.

وقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ... ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآيات.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أصل كل خير للعبد ـ بل لكل حي ناطق ـ كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة كل خير... فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته.. وكذلك إذا قوى نوره، وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح»[1].

وقفة مع تفسير آية النور:

من سورة النور:

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٥- ٣٨].

تفسير المعاني[2]:

كمشكاة: يعني كوة، وهي الكوة تكون في الجدار يوضع فيها المصباح لتعكس النور.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٢٤ وانظر باب: (في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ـ السعدي، تفسير آية النور من سورة النور، ص٥١٧.

دري: يعني مضيء كالدر.

لا شرقية ولا غربية: يعني لا هذا فقط ولا هذا فقط فتصيبها الشمس أول النهار وآخره كزيتون الشام.

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور: يعني من صفائه يكاد أن يضيء، فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة، فيكون نور على نور هو نور النار ونور الزيت.

وقفة مع المعاني:

قال الإمام ابن القيم: «قال أبي بن كعب: مثل نوره: «يعني نوره في قلب عبده المؤمن»، فضرب الله مثله فقال ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به»[1]...

قال ابن كثير[2]: كان أبي بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن، جعل الله الإيمان والقرآن في صدره وهو قول ابن عباس ورواه عنه سعيد بن جبير وقيس بن سعد.

قال ابن كثير: وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن...**».

قال: وقوله «مثل نوره» أي مثل هداه في قلب المؤمن أو مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة... فشبه قلب المؤمن بالقنديل من الزجاج الشفاف، وما يستمد به من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

---

(١) الوابل الصيب ص ٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ج٣/ ٢٩٨.

قال ابن القيم: «وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق منكرًا، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه»[1].

قوله عز وجل: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، ذكرنا أن المشكاة هي الكوة في الجدار وهي في المثال صدر المؤمن والزجاجة هي قلب المؤمن الذي يحتوي على النور الذي به يهتدي المؤمن، فيرى الأشياء على حقائقها ويسير على هدى من ربه بسبب هذا النور.

قال الإمام: وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب، وشبهها بالزجاجة لأنها جمعت أوصافًا هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء والرقة والصلابة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته؛ ويجاهد أعداء الله تعالى ويشتد في الحق بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها[2].

قوله عز وجل: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾...

ثم هذه الزجاجة ـ أي هذا القلب الذي يحتوي النور ـ مثل الكوكب المضيء الذي يشبه الدر لشدة ضيائه وصفائه، ونلاحظ أنه سبحانه دمج الكلام عن

---

(١) الوابل الصيب ص ٦٧/٦٨.
(٢) الوابل الصيب ص ٦٨.

الزجاجة ومصباحها - أي القلب ونوره - بأن شبه الجميع بالكوكب الدري؛ فالسراج مضيء، والزجاجة نفسها مضيئة لصفائها ونقائها...[١].

قوله عز وجل: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾.

قال ابن القيم:

«وفي الزجاجة مصباح وهو النور الذي في الفتيلة وهي حاملته ولذلك النور مادة... وهو زيت قد عصر من زيتون في أعدل الأماكن، تصيبها الشمس في أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيت وأبعده عن الكدر حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار، فهذه مادة نور المصباح، وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن هي من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة وأبعدها من الانحراف، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأخفها... ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته وقويت مادة ضوئه النارية، كان ذلك نورًا على نور... فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة»[٢].

فإذن هذا المصباح الذي في الزجاجة أو النور الموجود في قلب المؤمن ﴿ يُوقَدُ ﴾ من شجرة مباركة أي كثيرة المنافع عظيمة القدر ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ فهي شجرة ليست من المشرق ولا من المغرب.

والزيتونة هنا هي شريعة الله سبحانه وتعالى، فهي لا شرقية ولا غربية بل هي ربانية خالصة، و﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ﴾... نقاء وصفاء، وإنه ليتلألأ حتى إنه ليكاد يضيء من غير نار.

---

(١) انظر: تفسير الأساس - سعيد حوى (تفسير سورة النور) ج٤/ ٢١٠.

(٢) الوابل الصيب ص ٦٩.

فما أعظم نورانية هذه الشريعة التي تمد نور القلب، وما أعظم نور هذا القلب الذي يستمد نورانيته من شريعة هذا شأنها ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾... لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك صفاء الزيت ونقاؤه وتلألؤه.

قال ابن كثير:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾: «نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه»[1].

قال بعضهم: «وما يكاد نور القرآن ونور الإيمان يجتمعا حتى لكأن النور الهادئ الوضيء يفيض فيغمر الكون كله، ويفيض على المشاعر والجوارح وينسكب في الحنايا والجوانح وحتى لكأن الكون كله يسبح في فيض النور الباهر، وحتى تعانقه وتشرفه العيون والبصائر وتشف القلوب وترف الأرواح، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله، فإذا هو انطلاق ورفرفة ولقاء ومعرفة وامتزاج وألفة وفرح وحبور، وإذا الكون كله ـ بنور شريعته سبحانه ـ طليق من القيود والحدود تتصل فيه السماوات بالأرض، والأحياء بالجمادات، والبعيد بالقريب، وتلتقي فيه الشعاب والدروب والطوايا والظواهر والحواس والقلوب».

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ممن يفتحون قلوبهم لنور شريعته، فحيثما توجه القلب يريد نور الهدى وصدق وأخلص ـ ونسأل الله ذلك ـ هداه إليه، والله سبحانه يهدي لنوره من يشاء.

قوله تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾:

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣/ ٢٩٨.

قال ابن كثير: «لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ذكر محلها وهي المساجد»[1].

ومن هنا ندرك أن نقطة الانطلاق في التربية الإيمانية العالية هي المساجد ؛ تلك البيوت التي أذن الله أن ترفع، فهي مرفوعة قائمة وهي مطهرة رفيعة يتناسق مشهدها المرفوع مع نور الإيمان، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة المسبحة الواجفة المصلية الذاكرة، قلوب الرجال الذين ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ فحق لهذه البيوت أن تكون منطلق الخير والنور.

المستفاد من الآيات:

١- أن الطريق إلى سلامة القلب ونورانيته هو العمل بهذه الشريعة، والاستمداد من هذا القرآن معاني توحيد الله سبحانه وعبادته والإخلاص له والجهاد في سبيله.

٢- أن الله سبحانه جعل لكل عمل من أعمال الشريعة أثرًا نورانيًا في القلب، فكل عمل يخلف في القلب نورًا، وبزيادة الأعمال الصالحة تزداد نورانية القلب، والعمل الصالح هو المخلص لله المتبع لنبيه ﷺ.

٣- أن التربية المسجدية لها مقام عال من الأهمية، وأن الانطلاقة الإيمانية الصحيحة هي التي تبدأ من المسجد.

٤- ذكرت لنا الآيات ماهية الأعمال التي تؤثر في القلب فتنيره وهي التسبيح والذكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخوف من اليوم الآخر.

---

(١) نفس المصدر ٣٠١/٣.

٥- ذكر الله سبحانه من شيم أهل النور أنهم لا يشتغلون بتجارة ولا بيع ولا دنيا ولا كسب مال ولا متاع عن ذكر الله سبحانه، وعن المسارعة للأعمال الصالحة والأجر والثواب، وعن الصلاة في المساجد في جماعة، وعن إخراج الزكاة من أموالهم، وأنهم حال كونهم يعملون هذه الصالحات يخافون ربهم سبحانه وتعالى ويعدون العدة ليوم الحساب.

٦- ثم بين سبحانه أنه سيتكرم على هؤلاء الرجال فقال سبحانه: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

الفصل الثالث

نماذج من حياة العلماء والصالحين
وطريقتهم في تزكية النفس وتطهير القلب

- عمر بن عبد العزيز.
- علي بن الحسين.
- طاوس بن كيسان.
- الحسن البصري.
- الأوزاعي.
- مالك بن دينار.
- محمد بن سيرين.
- سفيان الثوري.
- عبد الله بن المبارك.
- الفضيل بن عياض.
- أحمد بن حنبل.

رحمهم الله جميعًا



تمهيد

هذا الباب نظرة عابرة ـ يحيطها الوقار وتعلوها السكينة ـ إلى مواقف وعبر ومواعظ من تاريخ قوم ممن أضاءوا للبشرية الطريق ووصفوا لها الدواء، مقتدين في أعمالهم بنبيهم ﷺ مستقيمين فيها على صراط الله العزيز الحميد...

وإن المرء لتعجز كلماته حياءً من التعليق على تلك المواقف العظيمة والمناهج الكريمة في تزكية النفوس وتربية القلوب... فكل موقف منها هو قيمة في ذاته يعبر عن نفسه ويفتح آفاقًا واسعة للتأمل والتطبيق...

ومن ثم فقد آثرت أن أقدم هذه المواقف عن طريق روايات أهل العلم غير معوذة إلى تعليق مني أو بيان[1].

وانتقيت من بستان الصالحين ما يسره الله لي من رحيق تاريخهم عاقدًا العزم على أن أفرد لذلك بحثًا خاصًا ـ إن شاء الله ـ وعلى الله قصد السبيل.



---

(١) اعتمدت في هذا الفصل على الكتب الآتية:

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، وتهذيبه لمحمد عقيل موسى (دار الأندلس الخضراء).

(٢) البداية والنهاية للإمام ابن كثير (دار الريان للتراث).

(٣) صفة الصفوة للإمام ابن الجوزي (دار الكتب العلمية)

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد، مكتبة صبيح.

عمر بن عبد العزيز[١]

توفي ١٠١ هـ

التعريف به :

هو أشهر من أن يُعرف به ـ رحمه الله ـ، فقد كان تابعيًا جليلاً، قال ابن كثير: روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبد الله بن سلام، وروى عن خلق من التابعين.

قال الإمام أحمد: لا أدري قول أحد التابعين حجة مثل قول عمر بن عبد العزيز.

قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم.

علامات مضيئة في حياة عمر بن عبد العزيز ومنهجه في القرب من الله سبحانه:

أولاً: العلم :

قال مجاهد: أتينا عمر نعلّمه فما برحنا حتى تعلمنا منه.

وقال ميمون بن مهران: كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة.

وقال: كان عمر معلم العلماء.

قال الليث: ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس به.

قال أحمد بن حنبل: إن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فإذا هو الشافعي.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٥/٢٠٠ وما بعدها، صفة الصفوة ٢/٨٠ وما بعدها وتهذيب سير أعلام النبلاء ١/٤٧٣ وما بعدها، الطبقات الكبرى ٥/٢٩٧ وما بعدها.

ثانيًا: العبادة:

ذكر ابن كثير عن ربيعة بن عبد الرحمن أن أنس بن مالك قال: ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيز.

قال مقاتل بن حيان: صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها.

وقالت زوجته فاطمة: ما رأيت أحدًا أكثر صلاة وصيامًا منه، ولا أحدًا أشد فرقًا من ربه منه؛ كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه، قالت: ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينفض كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي فأطرح عليه اللحاف - يرحمه الله -.

وقال علي بن زيد: ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز، وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقرأ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة.

قال ابن كثير: وكان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع، وكان يأكل العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله، وقرأ عنده رجل: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] فبكى بكاءً شديدًا ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه.

قال ابن كثير: وقرأ ذات يوم: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ [يونس: ٦١]، فبكى بكاء شديدًا

حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال، فقال له: يا أبه ما يبكيك؟ فقال: يا بني خير؛ ودَّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار.

وقال ابن الجوزي: قال عبد الله بن كثير لعمر بن عبد العزيز ما كان بدء إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي: اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

قال ابن كثير: عن أبي عنبس قال: كنت جالسًا مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد، فقال: هل علينا من عين؟ فقال أبو عنبس: فقلت: عليكما من الله عين بصيرة، وأذن سميعة، قال: فترقرقت عين الفتى وترك يد خالد وولّى، فسألت من هذا؟ فقيل لي: عمر بن عبد العزيز.

وقال ابن الجوزي: بكى عمر بن عبد العزيز فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله عز وجل، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقال ابن الجوزي: عن ليث بن أبي رقية عن عمر: أنه لما كان مرضه الذي قبض فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيت فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

ثالثًا: الزهد والتعلق بالآخرة:

قال ابن الجوزي: لما انصرف عمر بن عبد العزيز عن قبر سليمان بن عبد الملك صُفت له مراكب سليمان، فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، قدموا إليّ بغلتي، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية، وكانت من الخيول الجياد المثمنة، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال.

قال ابن كثير: ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، ثم اختارت مقامها معه على كل حال - رحمهما الله -.

قال المروزي: لما جاءه صاحب الشرط والجند ليسيروا بين يديه بالسيوف، قال: تنحوا عني، مالي ولكم؟ إنما أنا رجل من المسلمين.

وعن مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص متغير فقلت: يا فاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغلسوا قميص أمير المؤمنين فإن الناس يعودونه؟ قالت: والله ما له قميص غيره.

وعن يونس بن أبي شبيب قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يطوف بالبيت ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت.

وعن مسلم قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده كاتب يكتب وشمعة تضيء وهو ينظر في أمور المسلمين، قال: فخرج الرجل، فأطفئت الشمعة، وجيء بسراج إلى عمر، فدنوت منه فرأيت عليه قميصًا فيه رقعة قد طبق ما بين كتفيه، قال: فنظر في أمري.

قال ابن كثير: ودخل على امرأته يومًا فسألها أن تقرضه درهمًا أو فلوسًا ليشتري بها عنبًا، فلم يجد عندها شيئًا، فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنبًا؟ فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدًا في نار جهنم.

وكان يقول - رحمه الله - ما تركت شيئًا من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه، وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشيء من النعيم.

قال أبو سليمان الداراني: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني؛ لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها.

رابعًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للأمة:

خطبته بعد توليه المسئولية:

قال ابن الجوزي: لما دفن سليمان بن عبد الملك سار عمر بن عبد العزيز وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال: «يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي مني ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم». فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك. فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعًا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال: «أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، ليس من تقوى الله خلف فاعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبًا حيًا لمعرق في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في دينها ولا في نبيها ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدًا باطلاً ولا أمنع أحدًا حقًا».

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال:

«يا أيها الناس: من أطاع الله فقد وجبت له الطاعة، ومن عصى الله فلا طاعة له، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

قال ابن الجوزي: لما رجع عمر من جنازة سليمان رجع مغتمًا مهمومًا فسأله الناس: ما لنا نراك مغتمًا؟ قال: لمثل ما أنا فيه يغتم، إنه ليس من أمة محمد ﷺ أحد في شرق الأرض وغربها إلا وأنا أريد أن أؤدي إليه حقه غير كاتب إليّ فيه ولا طالبه مني.

قال ابن كثير: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وخطب فقال:

أيها الناس: من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا:

الأول: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها.

والثاني: يعيننا على الخير بجهده.

والثالث: يدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه.

الرابع: لا يغتابن عندنا أحدًا.

والخامس: لا يعرضن فيما لا يعنيه.

قالوا: فانقشع عن الشعراء والخطباء وبقي معه الفقهاء والزهاد.

وكان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه، وكان لا يقطع أمرًا بدونهم[1].

قال إسماعيل بن عياش: قام عمر في الناس فقال: «أيها الناس، ألا إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ﷺ، وإني لست بقاض ولكن منفذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، إلا أن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإني لست بخير من أحد منكم ولكني أثقلكم حملاً».

قال ابن كثير: وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم إلى أهلها وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه ينادي في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء.

---

(١) هذا والله نموذج خير وقدوة وتقى، يحتذي به من الساسة من أراد الله والدار الآخرة، ولكن هذه الأمة.. فأين عمر؟!

وكان يكثر أن يقول: رب سلم سلم، اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة الإسلام، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة الإسلام[1].

وكان يقول للناس: أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم، لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى تكمل نفسه لتواكل الناس الخير، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة.

وصيته ـ رحمه الله ـ:

قال ابن كثير: لما سمَّه الخادم في طعامه وعلم أنه مسموم استدعى خادمه الذي سمَه فقال له: ويحك! ما حملك على ما صنعت؟ فقال الخادم: ألف دينار أُعطيتها، فقال عمر: هاتها، فأحضرها فوضعها في بيت المال، ثم قال: اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك.

فقيل لعمر: «هؤلاء بنوك ـ وكانوا اثني عشر ـ ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين؛ إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه ولا أبالي في أي واد هلك».

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إليَّ أن أغسله وأكفنه فإذا حللت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه فأدلي، ففعلت فإذا وجهه مثل القراطيس بياضًا، وكان قد أخبرني أن كل من دفن قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فإذا هي مسودة!!

وتوفاه الله يوم الجمعة لخمس مضين من رجب سنة إحدى ومائة وكان عمره يوم مات تسعًا وثلاثين سنة وأشهرًا ـ رحمه الله ـ وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر.

---

(١) وهذا دعاء متجرد، فتدبره.

علي بن الحسين بن علي[١]

ت ٩٤ هـ

التعريف به:

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المشهور بزين العابدين، تابعي جليل، روى عن أبيه وعمه الحسن بن علي وعن جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم.

علامات مضيئة في منهج علي بن الحسين في الحياة والقرب إلى الله:

أولاً: العلم:

قال محمد بن سعد: كان ثقة مأمونًا كثير الحديث، عاليًا رفيعًا ورعًا.

وقال سعيد بن المسيب: لم يكن في أهل البيت مثله.

وقال يحيى بن سعيد: كان أفضل هاشمي أدركته.

وقال ابن أبي شيبة: أصح الأسانيد كلها: الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده.

قال ابن كثير: كان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك أنت سيد الناس تأتي تخطي حلق العلم حتى تجلس إلى هذا؟ فقال له علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يطلب حيث كان.

---

(١) انظر ترجمته في: تهذيب سير أعلام النبلاء ٤٠٤/١ وما بعدها، البداية والنهاية ١٠٩/٥وما بعدها، وصفة الصفوة ٦٦/٢وما بعدها.

قال الأعمش عن مسعود بن مالك قال: قال لي علي بن الحسين: أتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ قال: أريدأن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها.

قال الزهري: كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أفقه منه.

ثانيًا: العبادة:

قال ابن أبي شيبة: ذكروا انه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قالوا له: ما لك لم تنصرف؟ فقال: إني اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الخوف، فقيل له في ذلك، فقال: ألا تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟!

ولما حج أراد أن يلبي فارتعد وقال: أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك، فيقال لي: لا لبيك، فشجعوه على التلبية، فلما لبى غشي عليه وسقط عن راحلته.

وكان كثير الصدقة جدًا، بل كانت حياته تملؤها الصدقة.

وكان يقول إن صدقة الليل[١] تطفئ غضب الرب، وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة.

قال ابن كثير: وقاسم الله تعالى ماله مرتين.

قال ابن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به. ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه آثار حمل الجراب إلى بيوت المساكين في الليل.

---

(١) لعله لأن صدقة الليل تكون في الخفاء حيث لا يراه أحد.

قال ابن كثير: وكان يعول مائة أهل بيت من المدينة ولا يدرون بذلك حتى مات.

ودخل على صاحب له يعوده[1] فبكى ابن أسامة فقال له: ما يبكيك؟ قال: علي دين، قال: وكم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، فقال: هي علي، وقضاها عنه.

وقال سفيان بن عيينة: قال الزهري: سمعت علي بن الحسين يحاسب نفسه ويناجي ربه ويقول: «يا نفس، حتى متى إلى الدنيا سكونك؟ وإلى عمارتها ركونك؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ومن وارته الأرض من آلافك[2]، ومن فجعت به من إخوانك، ونقل إلى الثرى من أقرانك، فهم في بطون الأرض بعد ظهورها، محاسنهم بوال دواثر (يعني بليت واندثرت) فحتى متى على الدنيا إقبالك؟ وبشهواتها انشغالك وقد أتاك النذير؟».

وكان يقول: «كم من ذي منعة وسلطان وجنود وأعوان، تمكن من دنياه ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر (البيوت العظيمة)، وجمع فيها الأموال والذخائر، وملح السراري والحرائر، أتاه من الله ما لا يُرَد، ونزل به من قضائه ما لا يُصَد، فتعالى الله الملك الجبار، المتكبر العزيز القهار، قاصم الجبارين، ومبيد المتكبرين، الذي ذل لعزه كل سلطان، وأباد بقوته كل ديان».

وكان يقول: «كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تنعشه من عثرته، ولم تنقذه من صرعته، ولم تشفه من ألمه ولم تبره من سقمه ولم تخلصه من وصمه؛ إذ بكى على ما سلف من خطاياه، وتحسر على ما خلف من دنياه، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار، ولا ينجيه الاعتذار عند هول المنية ونزول البلية، هناك خف عواده، وأسلمه أهله وأولاده، وارتفع الناس

---

(١) صاحبه هو محمد بن أسامة بن زيد.

(٢) يعني: مِن أصدقائك ومحبيك.

بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فغمضوا بأيديهم عينيه، ومد عند خروج روحه رجليه، وتخلى عنه الصديق، والصاحب والشقيق، ثم أقبلوا على جهازه، وشمروا لإبرازه، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى، ولا الحبيب المبدى؛ فلو رأيت الأصغر من أولاده، وقد غلب الحزن على فؤاده، ويخشى من الجزع عليه، وخضبت الدموع عينيه، وهو يندب أباه ويقول: يا ويلاه واحر أباه...

ثم أخرج من سعة قصره، إلى ضيق قبره، فلما استقر في اللحد وهيئ عليه اللبن احتوشته أعماله وأحاطت به خطاياه، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهنًا بما كسب وطلب».

ثالثًا: حسن الخلق والورع:

عن عبد الله بن أبي سليم قال: كان علي بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يده فخذه، ولا يخطر بيده، وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة.

وعن سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين فقال: إن فلانًا قد آذاك ووقع فيك، قال: فانطلق بنا إليه، فانطلق معه وهو يرى أنه سينتصر لنفسه، فلما أتاه قال: يا هذا إن كان ما قلت فيّ حقًّا فغفر الله لي، وإن كان ما قلت فيّ باطلاً فغفر الله لك.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال علي بن الحسين: فقد الأحبة غربة، وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي وتقبح سريرتي، اللهم كما أسأت وأحسنتَ إلي فإذا عدتُ فعُد علي.

وقال ابن الجوزي: كان علي بن الحسين خارجًا من المسجد فسبه رجل فثار الناس عليه، فقال: مهلاً على الرجل، ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُتر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى عليه خميصة

كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول.

قال الزهري: ما رأيت قرشيًا أورع منه ولا أفضل.

قال عبد الرزاق: سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ فقال: كظمت غيظي، قالت: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فقال: «عفا الله عنك»، فقالت: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، قال: «أنت حرة لوجه الله تعالى».

قال ابن كثير: كان علي بن الحسين إذا خرج من بيته قال: اللهم إني أتصدق اليوم أو أهب عرضي اليوم من استحله.

رحم الله الإمام.



طاوس بن كيسان[(١)]

ت ١٠٦هـ

التعريف به:

من أكبر أصحاب عبد الله بن عباس ، وهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ، وأدرك جماعة كبيرة من الصحابة ، قال ابن كثير: أدرك خمسين من الصحابة.

علامات مضيئة في حياته:

أولاً: العلم:

روى عن كثير من أصحاب النبي ﷺ.

قال ابن كثير: كان أحد الأئمة الأعلام، قد جمع العبادة والزهادة والعلم النافع والعمل الصالح، وأكثر روايته عن ابن عباس، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم، منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وإبراهيم بن ميسرة وأبو الزبير ومحمد بن المنكدر والزهري والضحاك ووهب بن منبه وغيرهم.

ثانيًا: العبادة والزهد:

قال ابن كثير: توفي طاوس بمكة حاجًا.

قال ابن شوذب: رحم الله طاوسًا، حج أربعين مرة.

روى الإمام أحمد: كان طاوس وأصحابه إذا صلوا العصر استقبلوا القبلة ولم يكلموا أحدًا وابتهلوا إلى الله تعالى.

وقال ابن الجوزي: أتى طاوس رجلاً في السحر، فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنت أرى أن أحدًا ينام في السحر.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٢٤٤/٥ وما بعدها، الطبقات الكبرى ٥٤٠/٥ وما بعدها، صفة الصفوة ١٨٨/٢ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ٤٦٥/١ وما بعدها.

قال ابن الجوزي: كان طاوس يفترش فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيدرجه (يعني يجمعه) ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول: «طَيَّر ذكرُ جهنم نوم العابدين».

وعن ليث عن طاوس قال: ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصي عليه حتى أنينه في مرضه.

قال ابن كثير: كان طاوس يقول: خَفِ الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه، وارجه رجاءً هو أشد من خوفك إياه، وأحبب للناس ما تحب لنفسك.

وقال عبد الله بن المبارك: قالوا لطاوس: ادع الله لنا. قال: لا أجد لذلك حسبة.. ادعوا لأنفسكم فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وقال ابن جرير: قال طاوس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح أن يحب أن له ما في أيدي الناس ولا يقنع.

قال ليث بن سعد: قال طاوس: ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك.

قال إبراهيم بن ميسرة: قال طاوس: لا يحرز دين المؤمن إلا حفرته (يعني لا يعلم حقيقته).

وقال مجاهد لطاوس: رأيتك تصلي في الكعبة والنبي ﷺ على بابها يقول لك: اكشف قناعك وبيِّن قراءتك، فقال له: اسكت لا يسمع هذا منك أحد. (فكان طاوس ينبسط في الحديث ويكثر منه بعد ذلك).

قال طاوس عن ابن عباس: ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كان عليه، حتى أنينه في المرض، فلما مرض الإمام أحمد أنّ، فقيل له: إن طاوسًا كان يكره الأنين في المرض، فتركه الإمام أحمد.

وعن سفيان بن عمرو: ما رأيت أحدًا أشد تنزهًا مما في أيدي الناس من طاوس.

ثالثًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للأمة:

قال إبراهيم بن ميسرة: ورب هذا البيت ما رأيت أحدًا الشريف عنده والوضيع بمنزلة واحدة إلا طاوس.

وقال ابن جرير: قال لي عطاء: جاءني طاوس فقال لي: يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونك حجابه، وعليك بطلب مَنْ بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة.

قال ابن كثير: جاء مسلم بن قتيبة بن مسلم ـ صاحب خراسان ـ لطاوس ليسأله، فانتهره طاوس بشدة، فقيل: هذا صاحب خراسان، قال طاوس: ذلك أهون له علي!!

قال الطبراني: بعث محمد بن يوسف ـ أخو الحجاج ـ إلى طاوس بصرة فيها دنانير وقال للرسول: إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك. قال: فخرج بها حتى قدم على طاوس ومعه الجند، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها إليك الأمير. قال: ما لي بها حاجة. قال: فأراده على قبضها فأبى، فرمى بها من كوة في المنزل ثم ذهب، فقال لهم: قد أخذها، فلبثوا حينًا، ثم بلغهم عن طاوس شيء يكرهونه، فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير؟ قال: ما قبضت منه شيئًا، فرجع الرسول فأخبرهم فعرفوا أنه صادق، فقيل للرجل الذي ذهب إليه وبعثوه إليه، فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن؟ هل قبضت منه شيئًا؟ قال: لا، قال: فهل تدري أين وضعته؟ قال: نعم في تلك الكوة فأبصره حيث وضعته، قال: فمد يده فإذا هو بالصرة قد بنت عليها العنكبوت بيتها، فأخذها فذهب بها إليهم.

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال: انظروا إليّ فقيهًا أسأله عن بعض المناسك، قال: فخرج الحاجب يلتمس له، فمر طاوس فقالوا: هذا طاوس

اليماني، فأخذه الحاجب فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: أعفني فأبى، فأدخله عليه، قال طاوس: فلما وقفت بين يديه قلت: إن هذا المقام يسألني الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيه سبعين خريفًا حتى استقرت في قرارها، أتدري لمن أعدها الله؟ قال: لا!! ويلك، لمن أعدها؟ قال: لمن أشركه الله في حكمه فَجَار (يعني ظَلَم).

وقال الزهري: دخل طاوس على سليمان بن عبد الملك فقال له: «إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولي من أمور المسلمين شيئًا فلم يعدل فيهم».

وقال طاوس لأبي نجيح: يا أبا نجيح، من قال واتقى الله خيرٌ ممن صمت واتقى.

وقال ابن كثير: كان طاوس يقول: «الجلاوذة والشُّرَط وأعوان الظلمة كلاب النار».

وقال ابن كثير: قال سليمان بن عبد الملك لطاوس: حدثنا. فقال طاوس: حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت في كتاب الله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]

رحم الله الإمام



الحسن البصري[١]

توفي ١١٠هـ

التعريف به:

أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، ويقال مولى جابر بن عبد الله، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع، فترضعه أم سلمة، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها من بركة تلك الرضاعة، ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له.

علامات مضيئة في حياته ومنهجه:

أولاً: العلم:

قال ابن كثير: دعا له عمر بن الخطاب، قال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس، وقال: ولد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب وأتي به إليه فدعا له وحنكه.

قال قتادة: ما جالست رجلاً فقيهًا إلا رأيت فضل الحسن عليه. وقال: ما رأت عيناي أفقه من الحسن.

قال أيوب: كان الرجل يجالس الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن مسألة هيبة له.

وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها.

وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء.

وقال محمد بن سعد: قالوا كان الحسن جامعًا للعلم والعمل، عالمًا رفيعًا ثقة مأمونًا عابدًا زاهدًا ناسكًا، كثير العلم والعمل.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٥/٢٨٠ وما بعدها، الطبقات الكبرى ٧/١٧٥ وما بعدها، صفة الصفوة ٤/١٠، تهذيب سير أعلام النبلاء ١/٤٤٧ وما بعدها وشذرات الذهب ١/١٣٦ وما بعدها.

قال ابن كثير: هو الإمام الفقيه المشهور، أحد التابعين الكبار الأجلاء علمًا وعملاً وإخلاصًا.

قال مالك بن دينار: قلت للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه.

وكان يقول: من جعل العلم له دليلاً وسائسًا أمن العطب وبلغ أعلى الرتب.

ثانيًا: العبادة والخشية:

قال ابن كثير: قال الحسن: يا بني الحزن على خير الآخرة يوصلك إلى الله، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين.

وقال حمزة لأعمى: كنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يومًا: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل لعله تعالى أن يرحمك.

وكان يقول: بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار.

روى الطبراني عن الحسن أنه قال: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: إني لحسن الظن بالله، وأرجو رحمة الله، وكذب، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة.

وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال: حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور (يعني الاندثار)، وأقنعوا هذه الأنفس فإنها تنزع إلى شر غاية.

وكتب الحسن إلى فرقد: أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله والاستعداد لما وعد الله، مما لا حيلة لأحد في دفعه ولا ينفع الندم عند نزوله.

وقال الحسن: ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصر حتى يأتيه الموت.

وكان يقول: من رمى أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب.

وكان يقول: من رق ثوبه رق دينه، ومن سمن جسده هزل دينه، ومن طلب طعامه أنتن مكسبه، ورأس مال المؤمن دين حيثما زال زال معه، لا يخلفه في الرحال ولا يأتمن عليه الرجال.

وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي ليال تعد.

وقال حماد بن زيد عن الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال.

وقال ابن كثير: قال الحسن: «أدركت صدر هذه الأمة وخيارها وطال عمري فيهم، فوالله إنهم كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم، متبعين لسنة نبيهم، ما طوى أحدهم ثوبًا، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر أهله بصنع طعام، كان أحدهم يدخل منزله فإن قرب إليه شيء أكله وإلا سكت ولا يتكلم في ذلك».

وقال الحسن رحمه الله: «إنهم وإن هملجت (أسرعت) بهم البراذين (الدابة العظيمة)، وزفرت بهم البغال ووطئت أعقابهم الرجال (يعني ارتقوا في الدنيا) إن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه».

الأوزاعي[1]

ت ١٥٠هـ

التعريف به:

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيمًا في حجر أمه، وانتقل من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه.

قال ابن كثير: لم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار والعلماء وغيرهم أعقل منه ولا أكثر أدبًا ولا أورع ولا أعلم ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم ولا أكثر صمتًا منه.

وما تكلم بكلمة إلا تعين على السامع من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

علامات مضيئة في حياة الأوزاعي ومنهجه:

أولاً: العلم:

قال ابن كثير: ساد أهل زمانه في بلده وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام.

أدرك خلقًا من التابعين كثيرًا، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين كمالك بن أنس والثوري والزهري وهو من شيوخه، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته.

قال مالك: كان الأوزاعي إمامًا يقتدى به.

وقال سفيان بن عيينة: كان الأوزاعي إمام أهل زمانه.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٦/١١٨ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٦ وما بعدها، صفة الصفوة ٤/٢١٥ وما بعدها.

قال ابن كثير: وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ، حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه.

وقال ابن كثير: وقد تذاكر مالك والأوزاعي مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في شيء من الفقه.

قال هقل بن زياد: أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة بـ «حدثنا وأخبرنا».

قال أبو زرعة: روي عنه ستون ألف مسألة.

وقال: عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه.

وكان يقول: العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ وما لم يجئ عنهم فليس بعلم.

وكان يقول: اصبر على السنة، وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا، وكف عما كفوا.

وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة، فقيل له: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي.

وقال ابن عجلان: لم أر أحدًا أنصح للمسلمين من الأوزاعي.

ثانيًا: العبادة:

قال ابن عجلان: لم أر أحدًا انصح للمسلمين من الأوزاعي.

وقال: ما رؤي الأوزاعي ضاحكًا مقهقهًا قط.

وقال ابن كثير: كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه.

قال أصحابه: ما رأيناه يبكي في مجلسه قط، وكان إذا خلى بكى حتى يرحم.

قال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي.

قال الوليد بن مسلم: كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس، وكان يؤثر عن السلف ذلك، قال: ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث.

قال ابن عساكر: كان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة، ورعًا ناسكًا طويل الصمت.

وقال ابن عساكر أيضًا: كان الأوزاعي يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هون الله عليه طول القيام يوم القيامة. أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الانسان: ٢٦، ٢٧].

قال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحدًا أشد اجتهادًا من الأوزاعي في العبادة وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى.

وقال: دخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولاً فقالت لها: لعل صبيًا بال هنا؟! قالت: هذه دموع الشيخ من بكائه في سجوده، هكذا يصبح كل يوم.

قال ابن كثير: وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له أكثر من سبعين ألف دينار ـ ورثهم ـ فلم يمسك منهم شيئًا، ولا اقتنى شيئًا من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين.

وسمع يومًا بائعًا يبيع البصل وهو يقول: يا بصل أحلى من العسل. فقال الأوزاعي: سبحان الله! أيظن هذا أن شيئًا من الكذب يباح؟!

وقال الواقدي: قال الأوزاعي: كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما وقد صرنا يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك وينبغي أن نتحفظ.

قال ابن كثير: لا خلاف أنه مات مرابطًا في سبيل الله ـ رحمه الله ـ.

ثالثًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال ابن كثير: لما دخل الأوزاعي دمشق ناداه الأمير السفاح الذي قاتل بني أمية وأجلاهم من الشام، فتغيب عنه الأوزاعي ثلاثة أيام، ثم طلبه ثانية فحضر بين يديه.

قال الأوزاعي: «دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيرزانة والمسوّدة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة والعمد الحديد، فسلمت عليه، فلم يرد السلام، ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده، ثم قال: يا أوزاعي، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة؟ أجهادًا ورباطًا هو؟ فقلت: أيها الأمير قال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات...**» فنكت بالخيزرانة أشد ما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»، فنكت بها أشد من ذلك.

ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي... وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، وضم الناس ثيابهم لئلا تتلوث من دمي، وقرب مني

السيوف، ثم أمرني بالانصراف، فلما خرجت إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فأمرني بأخذها، فأخذتها لا لشيء إلا خوفًا، فوقفت فتصدقت بها قبل أن أبرح المكان ورسول الأمير وجنده ينظرون إليّ.

قال ابن كثير: ولما دخل المنصور الشام أوقفه الأوزاعي ووعظه موعظة شديدة، فألقى الله في قلب المنصور الإعظام له والحب.

قال ابن كثير: كان الأوزاعي في الشام معظمًا مكرمًا أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وكان لا يدخل أبواب السلاطين إلا واعظًا أو آمرًا بمعروف أو ناهيًا عن منكر.

ولما مات جلس على قبره بعض الأمراء فقال: يرحمك الله، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاّني ـ يعني المنصور ـ.

رحيل:

قال أبو بكر بن أبي خيثمة: كنت جالسًا عند الثوري، فجاءه رجلٌ فقال: رأيت كأن ريحانة من المغرب قد قلعت، قال الثوري: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي. فجاء موت الأوزاعي في ذلك اليوم، قال: وما خلف ذهبًا ولا فضة ولا عقارًا ولا متاعًا إلا ستة وثمانين درهمًا أنفقوها على تجهيزه، وكان قد مات مرابطًا في سبيل الله ـ رحمه الله ـ.



مالك بن دينار(1)

ت ١٣١ هـ

التعريف به:

هو أبو يحيى مالك بن دينار، من صالحي السلف، وزاهدي الأمة، وعابديها ومن الحكماء والعلماء الكبار الذين اقتدى بهم خلق كثير من أهل العلم والتقوى.. وقد أثنى عليه خلق كبير من أهل العلم وتلقوا كلامه بالقبول الحسن، وكان قدوة في عبادته وزهده وورعه وخوفه وضرب أروع الأمثلة وأعجبها في التجرد لله سبحانه والتزهد في الدنيا والخوف من الآخرة.

قال ابن الجوزي: أسند عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين والقاسم بن محمد وسالم بن عبيد الله.

عبادته وزهده ونصحه للأمة:

قال ابن الجوزي: قال مالك بن دينار: ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله.

وكان يقول: لو صلح لي أن آكل الرماد لأكلته، ولو صلح لي أن أعمد إلى حصير فأقطعه قطعتين فأتزر بقطعة وأرتدي قطعة لفعلت.

قال جعفر بن سليمان: قال مالك بن دينار: لقد هممت أن آمر إذا مت أن أغل فأدفع إلى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الآبق إلى مولاه.

وعن رياح بن عمرو: قال سمعت مالك بن دينار يقول: ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبة، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح، وإن جزع رجع.

---

(1) انظر ترجمته في: صفة الصفوة ١٨٤/٣ وما بعدها، وتهذيب سير أعلام النبلاء ٤٩٧/١ ومابعدها.

وعن عثمان بن إبراهيم قال: سمعت مالك بن دينار يقول لرجل من أصحابه: إني لأشتهي رغيفًا بلبن رائب، قال: فانطلق فجاء به، قال: فجعله على الرغيف وجعل يقلبه وينظر إليه ثم قال: اشتهيتك منذ سنين فغلبتك، حتى كان اليوم وتريد أن تغلبني اليوم؟ إليك عني. وأبى أن يأكله.

وعن يوسف الصفار قال: قال مالك بن دينار: من دخل بيتي فأخذ منه شيئًا فهو له حلال، أما أنا فلا أحتاج إلى قفل ولا إلى مفتاح، وكان يأخذ الحصاة من المسجد ويقول: لوددت أن هذه أجزأتني في الدنيا ما عشت، لا أزيد على مصها من الطعام والشراب.

وقال ابن الجوزي: قال مالك بن دينار: منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم، لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط.

وعن جعفر بن سليمان قال: قال لي مالك بن دينار: إذا ذكر الصالحون فأف لي وتف!!

وعن سعيد بن عصام قال: سمعت مالك بن دينار يقول: كان الأبرار يتواصون بثلاث: سجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة.

وكان مالك بن دينار يطوف بالبصرة فيمر بالسوق فينظر إلى أشياء يشتهيها فيرجع فيقول لنفسه: أبشري فوالله ما حرمتك ما رأيتِ إلا لكرامتك عليّ.

وعن جعفر بن سليمان قال: جاء محمد بن واسع إلى مالك بن دينار فقال: يا أبا يحيى إن كنت من أهل الجنة فطوبى لك، فقال: ينبغي إذا ذكر لنا الجنة أن تخزى!!

بكاء:

عن عبد العزيز بن سليمان قال: انطلقت أنا وعبد الواحد بن زيد إلى مالك بن دينار، فوجدناه قد قام من مجلسه فدخل منزله، وأغلق عليه باب الحجرة،

فجلسنا ننتظره ليخرج أو لنسمع له حركة، فجعل يترنم بشيء لم نفهمه، ثم بكى حتى جعلنا نأوي له من شدة بكائه.

وقال الحارث بن سعيد: كنا عند مالك بن دينار وعندنا قارئ يقرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]، فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون ويئنون حتى انتهى إلى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ قال: فجعل مالك - والله - يبكي ويشهق حتى غشي عليه، فحمله القوم إلى بيته.

حمل خفيف:

قال عبد الله بن المبارك: وقع حريق بالبصرة، فأخذ مالك بن دينار بطرف كسائه وخرج وقال: هلك أصحاب الأثقال. يعني أنه ليس له متاع يخاف عليه.

وكان يقول: إن الله تعالى إذا أحب عبدًا انتقصه من دنياه وكف عنه ضيعته، ويقول: لا تبرح من بين يدي، فهو متفرغ لخدمة ربه سبحانه.

وإذا أبغض عبدًا دفع في نحره شيئًا من الدنيا ويقول: اعزب من بين يدي فلا أراك بين يديّ، فتراه معلق القلب بأرض كذا وبتجارة كذا.

قال المغيرة بن حبيب زوج ابنة مالك بن دينار: كان مالك يصلي العشاء الآخرة ويدخل بيته فيقرب رغيفه فيأكل، ثم يقوم إلى الصلاة.

ولقد رأيته يومًا فعل ذلك، فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: يا رب إذا جمعت الأولين والآخرن فحرِّم شيبة مالك بن دينار على النار، قال المغيرة: فوالله ما زال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو قائم على تلك الحال... حتى طلع الفجر...

وقال سالم الخواص: قال مالك بن دينار: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، معرفة الله عز وجل.

ودخل اللصوص إلى بيت مالك بن دينار فلم يجدوا في البيت شيئًا فأرادوا الخروج من داره فصاح فيهم مالك: ما عليكم لو صليتم ركعتين... واستغفرتم الله!!!

خوف.. ورهبة:

عن جعفر بن سليمان قال: قال الناس لمالك بن دينار: ألا تستقي لنا. فقال: أنتم تستبطئون المطر لكني أستبطئ الحجارة!

وقال جعفر بن سليمان: رأيت مالك بن دينار يتقنع بعباء، ثم يقول: إلهَ مالك قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، فأي الدارين دار مالك، وأي الرجلين مالك؟ ثم يبكي.

وقال أيضًا جعفر: سمعت مالكًا يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها: أيها الناس، النار.. النار.

أمر بمعروف ونهي عن منكر:

قال جعفر بن سليمان: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حملة القرآن ماذا زرع الله في قلوبكم؟ أين أصحاب السورة والسورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟؟ يا هؤلاء جهالكم كثير...، يا هؤلاء لا تجعلوا بطونكم جُرُبًا للشيطان يوعي فيها إبليس ما شاء...

ومر والي البصرة بمالك بن دينار وحوله الجند والصولجان؛ فصاح به مالك: أقلَّ من مشيتك هذه واتق الله، فهمَّ خدمُه وجنده به، فقال لهم الوالي: دعوه: ما أراه يعرفني، فقال مالك: ومَن أعرف بك مني، أما أولك فنطفة مذرة

(فاسدة)، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة!!! فنكس الوالي رأسه...

وقال مالك لما رأى مستهترًا يضحك ملء فيه: قال: ما أحب أن قلبي فرغ لمثل هذا وأن لي ما حوت البصرة من الأموال والعُقد.

ووقف يومًا ينصح الناس فقال: يا أيها الناس: إن الأبرار لتغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار لتغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله.

وصاح في الناس يومًا: إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة... كيف تستمعون القرآن وأنتم غافلون؟

عظمة الموت:

قال ابن الجوزي: لما نزل الموت بمالك بن دينار دخل عليه أصحابه وتلاميذه فرفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لبطن ولا لفرج، يا أيها الناس... لمثل هذا اليوم كان دُؤوب أبي يحيى، والله لولا أني أكره أن أصنع شيئًا لم يصنعه أحد كان قبلي لأوصيت أهلي إذا انا مت أن يقيدوني وأن يجمعوا يدي إلى عنقي فينطلقوا بي على تلك الحال حتى أدفن كما يصنع بالعبد الآبق.. ـ رحمه الله ـ.



محمد بن سيرين[1]
ت ١١٠ هـ

التعريف به:

هو أبو بكر محمد بن أبي عمرو الأنصاري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه وهو تابعي ثقة جليل.

ملامح أساسية في حياة ابن سيرين:

أولاً: العلم:

قال البخاري رحمه الله: ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وقال هشام بن حسان: هو أصدق من أدركت من البشر.

قال عاصم الأحول: سمعت مورِّقًا العجلي يقول: ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين.

قال ابن الجوزي: عن حبيب بن الشهيد قال: كنت أنا وأيوب السختياني عند عمرو بن دينار فحلف ما رأى أحدًا أفضل من طاوس، فقال أيوب: لو رأى ابن سيرين لم يحلف؛ لقد أسند ابن سيرين عن زيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأبي سعيد وعمران بن حصين وجندب وأنس وأبي هريرة وأبي بكرة.

وكان الله سبحانه قد يسر له من فقه تأويل الرؤى، حتى كان يئول من الرؤى عجباً.

قال ابن كثير: جاءه رجل فقال له: رأيت كأني دست ـ أو قال وطئت ـ تمرة فخرجت منها فأرة، فقال له ابن سيرين: تتزوج امرأة صالحة تلد بنتًا فاسقة، فكان كما قال.

---

(١) انظر ترجمته في: بداية النهاية ٥/٢٨٦ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ١/٤٥٦ وما بعدها، صفة الصفوة ٣/١٦١ وما بعدها.

وقال له آخر: رأيت الحمام يلتقط الياسمين فقال له: مات علماء بالبصرة.

وأتاه رجل فقال: رأيت رجلاً عريانًا واقفًا على مزبلة وبيده طنبور يضرب به، فقال له ابن سيرين: لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا إلا للحسن البصري. فقال الرجل: هو الحسن والله هو الذي رأيت، فقال: نعم؛ لأن المزبلة هي الدنيا وقد جعلها تحت رجليه، وعريه تجرده عنها، والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس.

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه قد أوصى أن يغسله محمد بن سيرين لما يموت.

الورع وحسن الخلق:

قال ابن عون: كان محمد بن سيرين يحدث رجلاً فقال: ما رأيت الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله ما أراني إلا قد اغتبت الرجل.

وقال ابن عون: كان محمد بن سيرين إذا حدّث كأنه يتقي شيئًا مخافة يحذر شيئًا.

وقال أبو قلابة: اصرفوه حيث شئتم فلتجدُنه أشدكم ورعًا وأملككم لنفسه.

وقال أبو قلابة: أينا يطيق ما يطيق محمد بن سيرين؟ يركب مثل حد السنان.

قال ابن مسلم: كان محمد بن سيرين إذا مشى معه رجل قام وقال: ألك حاجة أقضيها لك؟ فإن كان له حاجة قضاها، فإن عاد يمشي معه قام فقال له: ألك حاجة أقضيها؟

وعن حماد بن حبيب قال: قال ابن سيرين: إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه.

وقال ابن عون: سمعت محمدًا يقول في شيء راجعته فيه: إني لم أقل لك ليس به بأس، إنما قلت لك: لا أعلم به بأسًا.

قال هشام بن حسان: ترك محمد بن سيرين أربعين ألف درهم في شيء ما ترون به اليوم بأسًا.

وعن ابن عون: دخلنا على ابن سيرين وهو عند أمه فقيل: ما شأن محمد؟ يشتكي شيئًا؟ فقالوا: لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه.

وعن عبيد الله بن السري قال: قال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حمل به عليّ الدين ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس، فحدثت به أبا سليمان الداراني فقال: قلت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نؤتى.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

عن ابن عون قال: أرسل ابن هبيرة إلى ابن سيرين فأتاه فقال له: كيف تركت أهل مصرك؟ قال: تركتهم والظلم فيهم فاش، قال ابن عون: كان محمد يرى أنها شهادة يسأل عنها فكره أن يكتمها.

وعن جعفر بن مرزوق قال: بعث الأمير إلى ابن سيرين، فدخل عليه فقال له: يا ابن سيرين ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟ قال: رأيت ظلمًا فاشيًا.

وعن جعفر بن أبي الصلت قال: قلت لمحمد بن سيرين: ما منعك أن تقبل المال من ابن هبيرة؟ قال: فقال لي: يا أبا عبد الله، إنما أعطاني على خير كان يظنه بي، ولئن كنت كما ظن بي فما ينبغي لي أن أقبل، وإن لم أكن كما ظن بي فما يحل لي أن أقبل!!

العبادة والذكر:

قال ابن عون: رأيت محمد بن سيرين يمر في السوق فيكبر الناس...!

قال ابن الجوزي: كان ابن سيرين قد أُعطي هديًا وسمتًا وخشوعًا فكان الناس إذا رأوه ذكروا الله.

وكان إذا سئل عن شيء من الفقه، الحلال والحرام، تغير لونه وتبدل!!

قال يونس بن عبيد: أما ابن سيرين فإنه لم يعرض له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما.

وعن ابن شوذب قال: كان ابن سيرين يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان اليوم الذي يفطر فيه يتغدى ولا يتعشى، ثم يتسحر ويصبح صائمًا.

عن موسى بن المغيرة قال: رأيت محمد بن سيرين يدخل السوق نصف النهار يكبر ويسبح ويذكر الله عز وجل، فقال له رجل: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ قال: إنها ساعة غفلة.

وعن هشام قال: كان ابن سيرين يحيي الليل كله في رمضان.

وقال دُهير كان ابن سيرين إذا ذكر الموت مات كل عضو منه على حدته.

وقال ابن مهدي: كنا نجلس إلى محمد فيحدثنا ونحدثه ويكثر إلينا ونكثر إليه، فإذا ذكر الموت تغير لونه واصفر، وأنكرناه وكأنه ليس بالذي كان.

وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين كان إذا نام وجه نفسه.

وقال بشر بن عمر: نزلنا مع ابن سيرين في الدار، فكنا نسمع بكاءه بالليل ونرى ابتسامه بالنهار.

قال عاصم الأحول: كان عامة كلام ابن سيرين: سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده.

وعن عمير بن رئاب قال: قال ابن سيرين: العزلة عبادة.

وعن هشام بن حسان قال: ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في جوف الليل وهو يصلي.

وقال أنس ابن سيرين: كان لمحمد بن سيرين سبعة أوراد يقرؤها بالليل، فإذا فاته شيء منها قرأه بالنهار.

رحم الله الإمام

سفيان الثوري[١]

ت ١٦١هـ

التعريف به:

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري، أحد أئمة الإسلام، والمقتدى بهم علمًا وورعًا وفقهًا وخشية وزهدًا.

ملامح من حياته ومنهجه :

أولاً: العلم :

قال ابن كثير: روى عن غير واحد من التابعين، وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم. قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغيرهم: هو أمير المؤمنين في الحديث.

وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم.

وقال أيوب: ما رأيت كوفيًا أفضله عليه.

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أفضل منه.

وقال عبد الله بن المبارك: ما رأيت أفقه من الثوري.

وقال شعبة بن الحجاج: ساد الناس بالورع والعلم.

وقال شعبة أيضًا: أصحاب المذاهب ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ٦/١٣٦، ١٣٧، صفة الصفوة ٣/١٩٧وما بعدها، الطبقات ٦/٣٧١ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/٥٨٢ وما بعدها.

وقال الإمام أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد.

قال يزيد بن هارون: أُخذ العلم عن سفيان الثوري وهو ابن ثلاثين سنة.

قال ابن الجوزي: أدرك سفيان جماعة من التابعين، وروى عن الأعمش ومنصور ومحمد ابن المنكدر وعبد الله بن دينار وعمرو بن دينار، في خلق لا يحصون ومسانيده أكثر من أن تعد، وأخباره كثيرة وجمعناها في كتاب يزيد على ثلاثين جزءًا.

ثانيًا: الخوف... والخشية والرهبة:

قال ابن الجوزي: قال سفيان الثوري: لقد خفت الله خوفًا عجبًا لي كيف لا أموت، لكن لي أجل أنا بالغه، ولقد خفت الله خوفًا وددت أن خفف عني منه ما أخاف أن يذهب عقلي.

قال عبد الرحمن بن عبد الله: قال سفيان: إني لأضع يدي على رأسي من الليل إذا سمعت صيحة فأقول: قد جاءنا العذاب.

وقال ابن الجوزي: قام سفيان يصلي فقرأ: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٨، ٩]، فخرج مسرعًا فزعًا، فما لحقوه إلا في الحمراء... (في طرف المدينة).

وقال عمرو العتابي: قال سفيان: ما من موطن من المواطن أشد عليّ من سكرة الموت، أخاف أن يشدد عليَّ...

قال يوسف بن أسباط: كان سفيان الثوري إذا أخذ في الفكر بال الدم.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: بات عندي سفيان الثوري فجعل يبكي...، فسئل: يا أبا عبد الله تبكي من الذنوب؟ فرفع شيئًا من الأرض وقال: والله لذنوبي أهون عليّ من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت.

قال علي بن حمزة ـ ابن أخت سفيان ـ ذهبت ببول سفيان إلى الطبيب فقال لي: أنا أجيء معك إليه، فأدخلته على سفيان فمسّه وجسه ورآه وسأله، فقلت: أي شيء رأيت؟ فقال: ما رأيت مثل هذا... هذا رجل قطع الحزنُ كبده.

ثالثًا: العبادة... والزهد:

قال علي بن ثابت: رأيت الثوري في طريق مكة فقومت كل شيء عليه، حتى نعليه، فوجدته: درهمًا وأربعة دوانيق.

وقال علي بن ثابت: لو لقيت سفيان في طريق مكة ومعك فلسان تريد أن تتصدق بهما وأنت لا تعرف سفيان ظننت أنك ستضعهما في يده، وما رأيت سفيان في صدر المجلس قط، إنما كان يجلس إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه.

قال عبد الرحمن بن مهدي: ما عاشرت في الناس رجلاً أرق من سفيان، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا أول الليل ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادي: النار... النار... شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي، غيرُ معلَم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، إلهي، إن الجزع قد أرقني وذلك من نعمك السابغة عليَّ، إلهي، لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين، ثم يقبل على صلاته، وكان البكاء يمنعه من القراءة حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه، وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبة منه.

رحم الله الإمام



عبد الله بن المبارك[١]

ت ١٨١ هـ

التعريف به:

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي أحد أئمة الإسلام.

قال ابن كثير: كان موصوفًا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر، وله التصانيف الحسان، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتَّجِر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والعلم والزهد، وربما أنفق من رأس ماله...

علامات مضيئة في حياته ومنهجه:

أولاً: العلم:

قال عبيد بن جناد: قال عطاء بن مسلم: يا عبيد رأيت عبد الله بن المبارك؟ قلت: نعم، قال: ما رأيت مثله ولا يرى مثله.

وقال عبد الرحمن بن مهدي قال: ما رأت عيناي مثل سفيان، ولا أقدّم على عبد الله بن المبارك أحدًا.

قال عبد الرحمن بن عبيد الله: كنا عند الفضيل فنُعي إليه ابن المبارك فقال: رحمه الله أما إنه ما خلف بعده مثله.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٨٤/٦ وما بعدها، صفة الصفوة ١٢١/٤ وما بعدها، الطبقات ٣٧٢/٧، تهذيب أعلام النبلاء ٦٤٥/٢ وما بعدها.

وقال ابن الجوزي: قدم هارون الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة وأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله المُلك لا مُلك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تكتب الحديث؟ فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد.

وقال ابن الجوزي: جاء رجل فسأل سفيان الثوري عن مسألة فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل المشرق، قال: أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد الله؟ قال: عبد الله بن المبارك، قال الرجل: وهو أعلم أهل المشرق؟ قال الثوري: نعم وأهل المغرب.

قال ابن الجوزي: أدرك ابن المبارك جماعة من التابعين منهم: هشام بن عروة وإسماعيل ابن أبي خالد والأعمش وسليمان التيمي وحميد الطويل، وعبد الله بن عون وخالد الحذاء ويحيى ابن سعيد الأنصاري وموسى بن عقبة.. في آخرين.

وروى عن كبار الأئمة: كالثوري وشعبة والأوزاعي والحمادي وغيرهم وكان أحد أئمة المسلمين.

قال ابن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله.

ثانيًا: العبادة والورع:

قال نعيم بن حماد: كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ؟

قال المروزي: قال عبد الله بن المبارك: كن محبًا للخمول كراهية الشهرة، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك، فإن دعواك الزهد من نفسك هو خروجك عن الزهد؛ لأنك تجر إلى نفسك الثناء والمدحة.

قال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأت عيناي أنصح لهذه الأمة من عبد الله ابن المبارك.

قال ابن الجوزي: قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لِمَ لَمْ تجلس معنا؟ قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين، قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع بكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كانت سنة مائتين فالبعد عن كثير من الناس أقرب إلى الله، وفر من الناس كفرارك من أسد، وتمسك بدينك يسلم لك.

قال الحسن: ورأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طيارة، فقال ابن المبارك: قد كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام، فليس ننتفع بها اليوم، قلت: ولم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمامٌ غيرها فتزاوجت بها، فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك.

وقال سويد بن سعيد: رأيت عبد الله بن المبارك أتى زمزم فاستقى منها ثم استقبل الكعبة فقال: اللهم إن ابن الموالي حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**ماء زمزم لما شرب له**» وهذا أشربه لعطش القيامة، ثم شربه.

وعن قطن بن سعيد قال: ما أفطر ابن المبارك ولا رُئي نائمًا قط.

وقال الفضيل بن عياض: سئل ابن المبارك: من الناس؟ قال: العلماء. قال: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه.

قال ابن الجوزي: مر ابن المبارك برجل أعمى فقال: أسالك أن تدعو الله أن يرد بصري. قال: فدعا الله، فرد عليه بصره.

وعن أبي بكر بن عبد الله قال: قال ابن المبارك: طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا.

وقال ابن المبارك: إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره فينبغي لنا أن نكرهها.

وقال المروزي: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: ما دفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له.

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان ليغزو إنا لنغزوا، وإن كان يحج إنا لنحج، قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت بالدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة.

ثالثًا: الصدقة:

قال إسماعيل بن عياش: ما على الأرض مثل ابن المبارك، وما أعلم خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها الله فيه.

قال ابن كثير: وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وصار أصحابه أمامه وتخلف وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت، ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذِها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا بشيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة وقد

حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل، فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عد منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع.

قال ابن الجوزي: كان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم، وقال للفضيل بن عياض يومًا: لولاك وأصحابك ما اتجرت.

وعن سلمة بن سليمان قال: جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب إلى وكيله، فلما ورد عليه الكتاب قال له الوكيل: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم، فكتب إلى عبد الله: إن هذا الرجل سألك أن تقضي له سبعمائة درهم فكتبت له بسبعة آلاف، وقد فنيت الغلات، فكتب إليه عبد الله بن المبارك: إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر أيضًا قد فني، فأجر له ما سبق به قلمي.

وقال ابن الجوزي: عوتب ابن المبارك فيما ينفق من المال خارج بلده، فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث وأحسنوا الطلب، فاحتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم.

رحيل:

توفي ابن المبارك رحمه الله منصرفًا من الغزو وكان يغزو عامًا ويحج عامًا ـ رحمه الله ـ.



الفضيل بن عياض[1]

ت ١٨٧هـ

التعريف به:

أبو علي الفضيل بن عياض التميمي أحد العباد الزهاد، وهو أحد العلماء والحكماء والأولياء، وأحد الأئمة الثقات ذوي القدم العليا في العلم والعبادة والزهادة.

علامات في حياته ومنهجه:

أولاً: العلم:

قال ابن كثير: كان سيدًا جليلاً، ثقة مأمونًا من أئمة الرواية رحمه الله.

قال ابن الجوزي: وقد أسند الفضيل عن جماعة من كبار التابعين منهم الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن ومسلم الأعور وأبان بن أبي عياش، وروى عنه خلق كثير من العلماء.

قال الذهبي: الفضيل بن عياض الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام.

وقال الذهبي: وللفضيل ـ رحمه الله ـ مواعظ وقدم في الفتوى راسخٌ.

قال ابن كثير: كان علمًا يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله.

ثانيًا: الزهد وترك الدنيا:

قال الذهبي: قال الفضيل: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال، فقال ابنه: يا أبه إن الحلال عزيز، قال: يا بني وإن قليله عند الله كثير.

---

(١) انظر ترجمته في: صفة الصفوة ١٥٩/٢ وما بعدها، البداية والنهاية ٢٠٦/٦ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ٦٦٠/٢ وما بعدها.

قال ابن الجوزي: قال الفضيل: لو أن الدنيا كلها بحذافيرها جعلت لي حلالاً لكنت أتقذرها.

وقال: أصلح ما أكون أفقر ما أكون، وإني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وعن بشر بن الحارث قال: قال الفضيل: لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحب إليّ من أن أطلبها بالعبادة.

وقال الذهبي: قال الفضيل: رهبة العبد من الله على قدر علمه وزهادته على قدر رغبته في الآخرة.

وقال الذهبي: قال الفضيل: حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا.

وقيل له: ما الزهد؟ قال: القنوع.

وقال: خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل.

ثالثًا: العبادة والورع:

قال الذهبي: قال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده، أو سمع القرآن، ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من حضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة.

وقال ابن المبارك: أعبد الناس: عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، وأورع الناس: الفضيل بن عياض، وأعلم الناس: سفيان الثوري، وأفقه الناس: أبو حنيفة.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما.

وقال الذهبي: قال الفضيل: إنما أمس مَثَل، واليوم عملٌ، وغدًا أمل.

وقال: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم الذنب عندك يصغر عند الله.

وقال إسحاق بن إبراهيم: ما رأيت أحدًا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل، كانت قراءته حزينة، شهية، بطيئة، مترسلة، كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل، وكان يُلقى له الحصير في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة، ثم تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً، ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

وقال إبراهيم بن الأشعث: سمعته يقول: الخوف أفضل من الرجاء إذا كان الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل.

وقال: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم كَبَّلَتْكَ خطيئتك.

وقال: من استوحش الوحدة واستأنس بالناس لم يسلم من الرياء.

وقال: من أخلاق الأنبياء: الحلم والأناة وقيام الليل.

وقال ابن المبارك: إذا نظرت إلى الفضيل جدد لي الحزن، وقعت نفسي ثم بكى، وكان يسميه عابد الحرمين.

وقال الأصمعي: نظر الفضيل إلى رجل يشكو إلى رجل، فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!!

قال الذهبي: قال الفضيل بن عياض: يا مسكين، أنت مسيء وترى أنك محسن، وأنت جاهل وترى أنك عالم، وتبخل وترى أنك كريم، وأحمق وترى أنك عاقل، أجلك قصير وأملك طويل. قال الذهبي: قلت: إي والله، صدق،

وأنت ظالم وترى أنك مظلوم، وآكل للحرام وترى أنك متورع، وفاسق وتعتقد أنك عدل، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبه لله. رحمهم الله جميعًا. فماذا نقول نحن؟!! اللهم استرنا بسترك الجميل واغفر لنا ذنبنا كله وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وقال منصور بن عمار: تكلمت يومًا في المسجد الحرام، فذكرت شيئًا من صفة النار، فرأيت الفضيل بن عياض صاح حتى غشي عليه.

وعن مهران بن عمرو قال: سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء، يقول: واسوأتاه، وافضيحتاه، وإن عفوت!!

وقال الفضيل لأحد تلاميذه: لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لئن علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره، لم تسأله شيئًا إلا أعطاك.

وقال ـ رحمه الله ـ: أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب، فإذا تحرك قال: هذا ليس لك، قومي خذي حظك من الآخرة... رحمه الله.



أحمد بن حنبل[١]

ت ٢٤١ هـ

التعريف به:

قال الذهبي: هو الإمام حقًا وشيخ الإسلام صدقًا، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، أحد الأئمة الأعلام.

علامات مضيئة في حياته:

أولاً: العلم:

قال أبو زرعة: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

وقال أبو جعفر بن محمد: قيل لأبي زرعة: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ فقال: أحمد بن حنبل، حزرت كتبه اليوم الذي مات فيه فبلغت اثني عشر حملاً، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب.

وعن إبراهيم الحربي قال: رأيت أحمد بن حنبل كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء.

وقال عبد الرزاق: ما رأيت أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٣٤٠/٦ وما بعدها، تهذيب سير أعلام النبلاء ٨١١/٢ وما بعدها، صفة الصفوة ٢٢١/٢ وما بعدها.

وقال وكيع: ما قدم الكوفة مثل أحمد.

وقال إسحاق: أحمد حجة بين الله وبين خلقه.

ثانيًا: العبادة والورع:

قال أبو داود السجستاني: لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم.

وعن أبي عصمة البيهقي قال: بت ليلة عند أحمد فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل؟

وعن أبي بكر المروزي قال: كنت مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر لا يدع قيام الليل وقراءة النهار، وما علمت بختمة ختمها، كان يُسرُّ في ذلك.

وقال أبو داود: كانت مجالس أحمد بن حنبل مجالس الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح قال: كنت أسمعه كثيرًا ما يقول: اللهم سلم سلم.

وقال يحيى بن معين: ما رأيت مثل أحمد، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير.

قال المروزي: كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت، خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان علي كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر.

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي شديد الحياء، كريم الأخلاق، يعجبه السخاء.

قال المروزي: رأيت أبا عبد الله يقوم لورده قريبًا من نصف الليل حتى يقارب السحر، ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء.

وقال عبد الله: ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، وكان يكثر الدعاء ويخفيه ويصلي بين العشاءين، فإذا صلى عشاء الآخرة ركع ركعات صالحة، ثم يوتر وينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي، وكانت قراءته لينة، ربما لم أفهم بعضها، وكان يصوم ويدمن، ثم يفطر ما شاء الله، ولا يترك صوم الاثنين والخميس وأيام البيض، فلما رجع من العسكر أدمن الصوم إلى أن مات.

وقال المروزي: قلت لأحمد: كيف أصبحت؟ قال: كيف أصبح مَنْ ربه يطالبه بأداء الفرائض، ونبيه يطالبه بأداء السنة، والملكان يطلبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يراقب قبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة.

قال الذهبي: كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون؛ نحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون حسن الأدب والسمت.

وقال عبد الله الوراق: كنت في مجلس أحمد بن حنبل، فقال: من أين أقبلتم؟ فقلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتبوا عنه فإنه شيخ صالح. فقلنا: إنه يطعن عليك. قال: فأي شيء حيلتي؟ شيخ صالح قد بلي بي؟!

وعن إبراهيم بن شماس قال: كنت أعرف أحمد بن حنبل وهو غلام يحيي الليل.

وعن عبد الله بن أحمد قال: كان أبي أصبر الناس على الوحدة، لم يره أحد إلا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق.

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قال لي أبي: يا بني لقد أعطيت المجهود من نفسي.

ثالثًا: الزهد في الدنيا:

قال المروزي: قال أبو عبد الله: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وقال المروزي: سمعت الإمام يقول: قد وجدت البرد في أطرافي، ما أراه إلا من إدماني أكل الخل والملح.

وقال صالح: ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها ثم يصيرها في قصعة ثم يصب عليها ماءً حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح.

وقال المروزي: قال الإمام: إنها أيام قلائل، وإن أَسَرَّ أيامي إليّ يوم أصبح وليس عندي شيء.

وقال إسحاق بن راهويه: لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الجمالين، إلى أن وافى صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة، فلم يقبل من أحد شيئًا.

وقال عبد الله: كنت أسمع أبي كثيرًا يقول في دبر الصلاة: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك صنه عن المسألة لغيرك.

وقال صالح: أمر المتوكل أن تشترى لنا دار، فقال أبي: يا صالح لئن أقررت لهم بشراء دار لتكونن القطيعة بيني وبينك، فلم يزل يدفع شرى الدار حتى اندفع.

وقال ابن الجوزي: جاء صاحب الأمير فقال للإمام: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك، فقلت له: هذا مما أكره، والأمير قد أعفاني مما أكره.

رحيله:

قال إسحاق: مات أبو عبد الله وما خلف إلا ستة قطع أو سبعة، وكانت في خرقة كان يمسح بها وجهه.

وعن صالح قال: قال لي أبي: جئني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاوس أنه كان يكره الأنين، فقرأته عليه، فلم يئن حتى مات.

وقال عبد الله بن أحمد: لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يعرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا: لا بعد، لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت: يا أبه أي شيء قد لهجت به؟ فقال: إبليس قائم حذائي عاض على أنامله يقول لي: يا أحمد فتّني، فأقول: لا بعد لا بعد.

قال المروزي: مرض أحمد تسعة أيام، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجًا، يسلمون ويرد بيده، وتسامع الناس وكثروا، وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون عليه، وجاء قوم من الأمراء والقضاة فلم يؤذن لهم، ودخل عليه شيخ فقال: اذكر وقوفك بين يدي الله، فشهق أبو عبد الله وسالت دموعه.

واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال: أن: خلل الأصابع، فلما كانت ليلة الجمعة ثقل وقبض صدر النهار، فصاح الناس، وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع.

قال الذهبي: أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة وقمعوا البدعة، وطعنوا على أهل البدع، فسرّ الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلو الإسلام وكبت أهل الزيغ.



الفصل الرابع

دور المربي والمعلم في التربية الإيمانية

١- التأسيس العلمي الإيماني:

أ - قيمة التأسيس العلمي الإيماني.

ب - طرق التدريس وأهميتها.

جـ - محاذير وتوجيهات.

٢- العلاقة الإيمانية بين المعلم والطالب:

أ - الحب في الله.

ب - النصيحة في الله.

جـ - العطاء في الله.

د - محاذير وتوجيهات.

٣- استبدال التصورات السلبية بتصورات إيجابية.

٤- التدرج ومنهجية التعليم.

تمهيد

لسنا بحاجة لإثبات أهمية دور المربي والمعلم كأساس من الأسس العملية في التربية الإيمانية ، وإن إهمال هذا الدور هو إهمال لجانب كبير ومؤثر في هذه العملية الإيمانية.

إن لشخصية القائد المربي المعلم الأثر الكبير في صياغة التكوين الفكري والسلوكي والنفسي لتلاميذه ومدعويه بل والعاملين معه ؛ ولسلوكه وطريقته في الأداء والتعليم والتوجيه والتربية أكبر الأثر في التقدم بنجاح نحو الأهداف الفردية لكل فرد من المحيطين به وكذلك في الإنجازات العامة.

ومسألة التربية الإيمانية والطهارة القلبية والتزكية النفسية، تحتاج - بوجه خاص - إلى موجه عليم يأخذ بيد الأفراد، ويقوّم سلوكهم، ويعالج أمراضهم، ويعلمهم العلم، ويتدرج معهم من مستوى إلى آخر ومن إنجاز إلى آخر وفق منهج علمي تربوي مدروس.

ولقد سارت العملية الإيمانية العلمية دومًا بمساعدة القادة المؤمنين والعلماء الربانيين والدعاة المخلصين، وما علمنا أحدًا نجح في الوصول إلى المستويات العالية السامقة وليس له قدوة أو معلم أو موجه، حتى الذين حالت ظروفهم دون التعليم المباشر من معلمين لطالما حاولوا الاقتداء بالصالحين والعلماء عن طريق سيرهم وخطواتهم وكتبهم وتوجيههم، وكانوا يشعرون بغاية الألم والحزن من نقص المعلمين والمربين من حولهم الذين يبينون لهم الطريق وييسرون لهم العلوم ويدفعونهم إلى العلا دفعًا...

ونحن في هذا الفصل نحاول أن نعرض تصورًا للدور الذي يجب أن يقوم به المربي والمعلم والشيخ والأستاذ والقائد تجاه طلبته وتلاميذه ومتعلميه ومدعويه وجميع السائرين في الطريق إلى الله، ونحاول أن نبين الخطوات التي ينبغي عليه الاهتمام بها والمحاذير التي يجب أن يحذرها ؛ سائلين الله النفع والأجر والثواب.

١- التأسيس العلمي الإيماني

أولاً: قيمة التأسيس العلمي الإيماني ودور المربي فيه

لا شك أنه الدور الأول والأكبر من أدوار المربي والمعلم تجاه المتربي والمتعلم، وهو الدور الذي على أساسه تتكون وتتبلور شخصية وسلوك ذلك المتربي.

إن التأسيس العلمي الإيماني للفرد يكاد يكون هو الخطوة التي إذا صلحت ونجحت، فإن الخطوات التالية لها من حياة الفرد ستكون ميسرة ناجحة.

وكذلك فإنها إذا فشلت أو تعثرت أو ساء استغلالها فإنها تنتج لنا أفرادًا سائرين إلى هوة سحيقة من التخبط والانحراف.

إن الشخص إذا لم يكن قد تربى وتأسس وارتكز على أسس إيمانية علمية راسخة زل، وإذا زل تعثر، وإذا زادت العثرات تأخر عن ركب السابقين.

وكم رأينا من أناس ساروا خطوات طويلة في الطريق ولكنهم تنكبوا الطريق وزلوا مع العوائق وانكسروا في الابتلاءات والاختبارات، وتلك مقاعدهم وأماكنهم لا تزال خاوية تذكرنا دومًا بأهمية الابتداء، وبقيمة التأسيس في بداية الطريق، إن القاسم المشترك في كثير ممن زل هو ضعف الأساس الإيماني والعلمي عندهم، فلم يجدوا عقيدة قوية راسخة تحميهم من الشبهات، ولم يجدوا علمًا راسخًا يحميهم من الميل والانحراف..

وأعود باللائمة على المربين في الصحوة الإسلامية بقدر ما أعود بها على كل منسحب من طريق المعالي، ذلك أن واجبًا أساسيًا على القائمين بشأن التربية والتعليم أن يرسخوا العقائد والإيمان والعلم قبلما يرسخوا أي دور آخر للأفراد العاملين.

صحة الابتداء... علامة الاستقامة :

يخطئ كثير من المربين عندما ينسى طبيعة الأفراد الذين يتعامل معهم ويسيطر على ذهنه وتفكيره في أثناء التعامل معهم أنهم فقط يحيون حياتهم معه هو في ذلك اللقاء الذي يلتقونه أو في تلك الساعات التي تجمعهم...، إنه ينسى أن أولئك المتعلمين هم نفوس إنسانية مبتدئة في طريق العلم والإيمان، نفوس لا تزال حديثة عهد بمجتمع مليء باللهو والانحراف وبالشهوات والشبهات، مجتمع ترسخت فيه مبادئ وأعراف وقيم بعيدة عن نبع القرآن والسنة النبوية، فهم جميعًا حديثو عهد بحياة تملؤها المعاصي وتطغى عليها المادة.

وكذلك فإن نفوس أولئك الأفراد نفوس إنسانية فيها الغرائز والشهوات وفيها النواقص والأمراض، وفيها النزعات والرغبات.

وإذا لم يستطع المربي أن يتعرف جيدًا على مداخل وأبواب ومفاتيح هذه النفوس والشخصيات فإن الفشل سيصيبه حتمًا، وإذا غالط نفسه وتجاهل ذلك.. سيظل يتعامل هو معهم يوميًا، ويعلمهم ويبذل جهده ووقته معهم، ونفوسهم وقلوبهم في واد وعلمه الذي يعلمهم إياه في واد آخر.

إنك تكذب نفسك أيها المعلم يوم أن تتناسى القيام بدورك في معرفة أمراض النفوس والسعي الدائم لترسيخ العقيدة والإيمان في قلوب المتعلمين معك، حتى تمتلئ قلوبهم بالإيمان ولذته والعبادة ونورها، ويحل ذلك مكان خبث النفس وظلامها...

وإياك أن تقول: إن الأيام ستنهي أمراض القلوب والنفوس.. إنه لا يُزيل الأمراض إلا الإيمان الراسخ الحق والعلم النافع والإنابة والتوبة والاعتراف بالذنب، ألم تتأمل في قوله سبحانه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق، وإذا لم يكن العبد كذلك، كان مذنبًا محتاجًا، وإنما غناه في طاعة ربه، وهذا حال الإنسان فإنه فقير محتاج، وهو مع ذلك مذنب خَطَّاء، فلابد له من ربه فإنه الذي يسدي مغافره ولابد له من الاستغفار من ذنوبه، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾، فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد، فإنه لابد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرًا محتاجًا معذبًا في طلب ما لم يحصل له، وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

إن البداية الصحيحة والخطوات الأولى لطالب العلم أو الداعية إلى الله في طريق العلم والدعوة لابد أن تصح كي يرتقي بلا فتور ولا نكوص، وصدق من قال: إن الفترة بعد المجاهدة من فساد الابتداء.

شروط الابتداء الصحيح:

١- **العقيدة الواضحة:** فهي الشرط الأول لكي يصح الابتداء ويصح الطريق، وعلى المربي أن يغرس ذلك في نفوس طلبة العلم والدعاة، وأن تتعمق العقيدة السليمة في قلوبهم أشد تعمق (وعليك بمراجعة أسس التربية القلبية من كتابنا هذا، وانظر إلى الأساس الأول وهو العقيدة).

٢- **النية الصالحة:** وهي الشرط الثاني في صحة الخطوات الأولى للمتعلم، فيخلص نيته لله وتتجرد نيته من الأهواء والأطماع والمصالح، فلا يستعبده درهم

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ١، ص٥٦.

ولا دينار ولا جمال أنثى ولا منصب ولا شهوة ولا يرائي خلق الله، ولكن يَعُدهم موتى جميعًا من جهة نظرهم إليه، فهل يرائي الإنسان ميت الأحياء؟!

٣- **صيحة المستمرة:** وأقصد بها ـ كشرط من شروط صحة الابتداء ـ أن يتعلم الإنسان أن يطلب النصح المستمر من أهل العلم والفضل في كل خطوة من خطواته، وكذلك عليه أن يتقبل النصح من كل ناصح أمين، وكذلك فإن على المربي والمعلم أن يداوم النصيحة للمتعلمين وأن يتابع أحوالهم بنصحه وتوجيهه، فتستقيم منهم الأفعال، ولا يصدرون إلا عن علم وتوجيه صحيحين، ومثل المعلم للمتعلم كمثل الوالد لولده؛ يسأله الولد فيجيب الوالد ولا يمل الوالد من نصح ولده ولا يفتر الولد عن سؤال والده...

زلة يجب الانتباه إليها:

يخطئ بعض المعلمين خطأً بالغًا في تربية الدعاة وطلبة العلم إذا وجههم في بداية طريقهم إلى القيام بواجبات دعوية وتعليمية من قبل أن يتم تأهيلهم لذلك إيمانيًا وعلميًا، فتراه يكلفهم بتعليم الصبيان أو بالتصدر في دعوة الناس وتعليمهم وعقد لقاءات في ذلك ومخاطبة الناس وتوجيههم، من قبل أن يُرَسِّخ في قلوبهم الاعتقاد، ولا تكتمل في عقولهم حتى مبادئ العلم الصحيح.

وقد يدعوه إلى ذلك حماسة يجدها المعلم منه أو نشاط يراه فيه، فيغتر بذلك ويعتقد أن تلك الحماسة وذلك النشاط يؤهلانه للتعليم والتربية.

أو قد يدعوه إلى ذلك استهانته بأثر العمل الذي سيكلفه به، فقد يرى أن تعليم الصبيان أمر يقوم به كل أحد، وأن التصدر في تعليم الناس ومخاطبتهم أمر لا يترتب عليه بالغ أثر، وتقع عندئذ المشاكل وتظهر الأمراض النفسية الخفية التي كانت مدفونة في الباطن؛ فنرى العجب العجاب من المشكلات التي كنا في غنى

عنها تمامًا إذا أسندنا هذه الأعمال لمن تفهم الإيمان جيدًا ورسخ في قلبه، وتعلم أصول العلم وسار في طريقه...

فليحذر المربون من هذه الزلة التي قد تضر الطالب أكثر مما تنفعه، ونهي العلماء والصالحون عن التصدر قبل التأهل معلوم مشهور، وإنما اكتفينا هنا بالإشارة إلى المراد[١].

المناهج وصحة التأسيس:

ويجب كذلك أن تهتم المناهج التربوية التي يسير عليها المعلمون والمربون بمسألة التأسيس الإيماني العلمي؛ فتختار لهم من الكتب والبحوث والدراسات ما يقوي عندهم وازع الإيمان والتعلق بالله سبحانه وتمام العبودية بجوانبها المختلفة، وكذلك السبل العلمية التي بها تصح العبادة وتتحقق السنة، وكذلك المحاذير في ذلك.

ولا شك أنه من الخطأ الكبير في تربية الأفراد أن نعتمد لهم من المناهج ما يكتظ بالعلوم المتقدمة من قبل أن يتعلموا معاني الإيمان والعبودية.

وكذلك الذين يدرسون للطلبة العلوم السياسية والفكرية من قبل أن يتعلموا أصول العلم والإيمان... إنهم ولاشك يحيدون بهم عن سبيل أهل العلم السابقين ومناهج العلماء الربانيين.

ولعله من النافع أن أشير هنا إلى بعض الموضوعات الأساسية[٢] التي ينبغي ألا يغفلها كل منهج في تعليم المبتدئين من طلبة العلم والدعاة... على أنه يصح الزيادة فيها بحسب ما يراه كل معلم أنه نافع.

---

(١) لا يفهم من هذا الكلام أننا نشترط لكل من علّم النشء أن يكون عالمًا، ولكننا نشترط أن يكون قدرٍ لقى قدرًا كبيرًا من التأسيس الإيماني والعلمي بما يؤهله للقيام بمهمته.

(٢) ويختار المعلمون الكتب الصالحة التي تشرح تلك الموضوعات شرحًا صحيحًا وافيًا كافيًا يسيرًا.

(١) معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وشروطها.

(٢) معنى العبودية وكيفية تحقيقها.

(٣) أركان الإيمان الستة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)، وتفهم معانيها جيدًا، وكيفية الاستفادة بهذه المعاني عمليًا في الحياة والسلوك، وأثر الإيمان بهذه الأركان في حياة المسلم.

(٤) التحذير من الشرك بكل صوره ومعانيه، وتحقيق التوحيد الكامل.

(٥) التحذير من الابتداع في الدين وبيان ذلك.

(٦) كيف يتحقق الإيمان وكيف يرسخ في القلوب؟

(٧) أثر الذنوب والمعاصي على حياة العبد ومآله.

(٨) الواجب تجاه سنة النبي ﷺ علمًا وتطبيقًا.

(٩) حب الله وحب النبي ﷺ والاقتداء بالنبي ﷺ.

(١٠) معاني الحب في الله والولاء في الله، ومعاني البغض في الله والعداء في الله.

(١١) النية وتصحيحها.

(١٢) لذة العبادة وكيفية تحقيقها.

(١٣) علامات قوة الإيمان، وعلامات ضعف الإيمان.

(١٤) شعب الإيمان وتحقيقها.

(١٥) قيمة العلم الشرعي ووجوب السعي لتحصيله.

(١٦) طهارة القلب ونقائه، وكيفية علاج أمراض القلوب.

(١٧) الإقبال على الآخرة والتقلل من الدنيا.

(١٨) العمل الصالح: (جوانبه، شروطه، وصفه...).

(١٩) حب القرآن، والأمر بتعهده وحفظه وتدبره.

(٢٠) العبادات القلبية: (كالخوف والمراقبة والإنابة والرجاء والصدق والإخلاص...).
(٢١) معاني الحلال والحرام والمشتبهات والواجب تجاه ذلك.

ويضاف إلى ذلك المبادئ العلمية الأساسية من الفقه والحديث والقرآن وغيرها.

تنبيه:

ولست أذكر تلك الموضوعات السابقة راجيًا من المعلمين والمربين مجرد شرحها أو تدريسها من كتاب أو أكثر، وإنما أذكرها كجوانب ينبغي تحقيقها في شخصية الفرد ونفسيته وقلبه وأن يتحرك بها ويحيا بها، وفرق كبير بين مجرد معرفة المادة وبين تطبيقها والحياة بها.

التلازم بين تعليم الإيمان وتعليم العلم:

لا شك أن المناهج العلمية التي تغفل جانب الإيمان مناهج ناقصة لا تولد لنا إلا مسخًا مشوهًا من الطلاب الذين حصَّلوا كمًّا من العلم ... ولكنهم لا يجدون رائحته ولا يتصفون بصفاته، فهم وبال على الحركة الإسلامية خصوصًا، وعلى الأمة الإسلامية عمومًا، ذلك أنهم يحصِّلون العلوم مذاكرة بقلوب لم يعمرها الإيمان والعمل لله، ولذلك فقد حذر النبي ﷺ من أمثال هؤلاء تحذيرًا شديدًا جدًا لمن تدبره، ومثال ذلك قوله ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[1].

وقد يقع بعض المعلمين في خطأ إذا توهموا أن مجرد العلم وتعلمه ينشئ الإيمان والعبادة وهو خطأ كبير؛ إذ إنه قد يكون من العلم ما لا يورث الخشية، بل

---

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ح٣٦٦٤، وابن ماجه ١/ ح٢٥٢، وأحمد وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٠٤).

يورث الكبر والمراءاة وغيرها من الأمراض القلبية التي لا يستهان بها، بل إن الله سبحانه وتعالى قد بين التلازم بين العلم والخشية فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ولو كان كل العلم بغير تعهد وتلازم مع الإيمان ينفع لما استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع، فعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»[١].

إن الأمة الإسلامية بحاجة إلى طلبة العلم الربانيين والعلماء الربانيين المخلصين الذين يسبق إيمانهم علمهم ويسبق إخلاصهم عملهم.

ولذلك فينبغي على المعلم التدقيق في مسألة تعلم الإيمان والعبادة مع العلم وألا يجعل من مجلسه مجلس تدريس فحسب، وإنما ليكن مجلسه مجلس إيمان وتقوى وعبادة قبل أن يكون مجلس علم وتعلم (وأنصحك بمراجعة فصل «نماذج من حياة العلماء» من هذا الكتاب فإن فيه القدوة الطيبة).

وليحذر المعلمون والمربون أن تنقلب مجالسهم إلى مجالس غيبة أو نميمة أو فحش أو بذاء؛ لأنهم بذلك يرسخون في قلوب طلبتهم استباحة الذنوب والآثام بدعوى العلم والتعلم.

وكذلك الدعاة الذين تنقلب مجالسهم إلى مجالس غيبة بحجة نقد الآخرين، فالله يعلم تهافت حجتهم وفساد طريقتهم.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: قال عبد الله الوراق: كنت في مجلس أحمد بن حنبل، فقال: من أين قبلتم؟ فقلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتبوا عنه فإنه شيخ صالح. فقلنا: إنه يطعن عليك. فقال: فأي شيء حيلتي، شيخ صالح ابتلي بي؟

---

(١) رواه مسلم ٢٧٢٢.

وقال: كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمسمائة يكتبون والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت[١].

والحق أنك لا تكاد تجد معلمًا صادقًا أو مخلصًا أو طاهر القلب يستبيح في مجلسه تلك المفاسد إلا أن يكون مريضًا بمرض يلزم شفاؤه منه وإلا تعثر أشد العثرات وخلف لنا جيلاً من الطلاب يحملون أخطاءه ويكررونها على أنها صواب مسَلم به[٢]!!

ثانيًا: طرق التدريس وأهميتها

قد يستطيع المعلم أن يوصل المعلومة التي يريدها أن تصل إلى المستمع بطريقة سهلة لا يتعب فيها نفسه ولا يبذل فيها جهدًا يذكر، فيفتح كتابًا ما أو ورقة ما ويقرأ ما فيها وطلابه يستمعون، فإذا ما انتهى الوقت أو انتهى الموضوع سألهم: هل من سؤال؟ فيهزون رءوسهم بالنفي، فيختم اللقاء ويقوم عنهم ظانًا حصول المقصود، ثم يأتيهم من الغد، فيفعل ما فعل ويكمل بطريقته تلك الموضوعات الباقية وبقية الكتاب، ثم ينتقل إلى كتاب آخر وآخر، وهكذا.

ولنا على هذه الطريقة ملاحظات كثيرة من حيث مدى أثرها في التحصيل والتعليم إذا اكتفى بها المعلم في الموضوع الذي هو بصدده، وملاحظاتنا كالتالي:

- لا يمكن الاكتفاء بهذه الطريقة للتأكد من حصول الاستيعاب.
- لابد من استخدام الطرق التعليمية المختلفة لكمال الاستيعاب.
- التطبيق العملي هو الدليل الأول على الفهم.

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ٨١٧/٢، دار الأندلس.

(٢) ومنهم من يستحل غيبة الناس أو النميمة بينهم بحجة مصلحة الدعوة، وعلم الله أنها حجة عاطلة وأن ذنب الغيبة واقع بهم إذ إنها في غالب الأحيان تنطوي على سوء قصد وخبث في القلب.

- الاكتفاء بهذه الطريقة يراكم المعلومات في الذاكرة القريبة ويسبب النسيان وإهمال المعلومة السابقة.
- هذه الطريقة وحدها في التعليم لا تتيح القيام بالتفاعل التعليمي بين الطالب والمعلم.
- هذه الطريقة وحدها تورث الملل لدى الطالب والمتعلم فتجعله لا يقبل على العلم.

ولذلك فيجدر بالمعلمين الانتفاع بباقي الطرق التربوية والتعليمية لتوصيل الرسالة العلمية والإيمانية للمنتفعين بها والراغبين فيها ونحاول أن نطلعك على طرف من هذه الطرق التعليمية لعل الله أن ينفعنا ـ جميعا ـ بها:

طريقة السلف:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري[1]: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل على محمد ﷺ السورة، فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه، وينثره نثر الدقل»[2].

إذن كانت هذه هي طريقة السلف الصالحين في تعلم العلم، كان أحدهم يأخذ الآيات القليلات فيتعلمهن ويحفظهن ويعمل بما فيهن، فإذا علمهن وعمل بما فيهن أخذ آيات أخر فيتعلمهن ويعمل بما فيهن، فتعلموا العلم والعمل معًا.

---

(١) أخرجه البخاري ٧/ ٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي في جمع الزوائد ج١ ص١٦٥: رجاله رجال الصحيح.

إذن لم يكن أحدهم يكثر العلم بغير عمل، بل إذا أكثر العلم أكثر العمل معه بما تعلمه.

أما ما يحصل اليوم فهو مخالف تمامًا لطريقة السلف في العلم والتعليم والتربية؛ فأنت ترى الآن الطالب يفرح بقراءة كتاب أو كتابين أو ثلاثة، وترى جل همه أن يستزيد من عدد الكتب التي يقرؤها، والمعلومات التي يعلمها، غير مبال بالتطبيق العملي لما تعلم، وهو يرى معلمه يعينه على ذلك غير مبال بتأثره بما تعلم أو بتطبيقه علمه الذي علمه.

وإنما يجب على المعلمين إذا أرادوا الانتفاع بطريقة السلف في التعليم والتربية أن يحرصوا على مسألة التطبيق العملي للعلم وظهور أثر ذلك العلم على الفرد وحياته وسلوكياته الشخصية والعبادية.

ليس المهم: كم درست، ولكن المهم: كم استوعبت:

يفتخر كثير من الطلاب بكمية الدراسة التي درسوها والمعلومات التي جمعوها والإجازات التي حصلوها، وكذلك قد يفعل بعض المعلمين، فيسعد كثيرًا بكثرة ما شرح أو كثرة ما قرأ على طلبته أو كثرة ما درّسهم، وفي الحقيقة فإن هذا الوصف وصف سيئ، وهذه الحال حال ناقصة، إذ إنه إنما يجب عليه أن يسعد فعلاً ولكن بعدما يتأكد من استيعابهم ما درس لهم ومن فهمهم ما علمه لهم، ينبغي عليه أن يسعد حين يرى إيمانهم في زيادة بالعلم الذي علمه لهم، وحين يرى أن عبادتهم قد تحسنت بفضل ما استزادوه من معلومات غالية ثمينة[1].

وعلى المربي أن يؤكد على هذا المعنى مرات ومرات، وعليه أن يتأكد من تشرب طلبته ومتعلميه لكل معلومة مهما صغرت، قال ﷺ: «**لا تزول قدما**

(١) لا شك أنه قد يكون هناك أسباب أخرى لسعادته، إذا أخلص في تعليمه العلم أو بذله الجهد أو مثاله، ولكن ليس لكثرة ما علّم.

عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[١].

تدريس العقيدة:

يشكو كثير من الناس من طريقة تدريس العقيدة وطريقة شرحها في كثير من الحلقات العلمية والكتب التي تشرحها، وقليل من المعلمين هم الذين يستطيعون تدريسها بطريقة سهلة ميسرة محبوبة كما هي في الحقيقة.

إن العقيدة الإسلامية سهلة ميسرة محبوبة، تدخل القلوب فورًا وتعمر النفوس بسرعة شديدة ولكن تسبب في شكوى الناس من دراستها أمران:

الأول: كثرة الردود والمناقشات مع المذاهب الكلامية والفلسفية في كتب الشروح المختلفة، وهو أمر تراه بوضوح في كثير من الشروح، لذا يلجأ كثير من طلبة العلم إلى المختصرات معرضين عن المطولات.

الثاني: طريقة التدريس بعيدًا عن الواقع، فترى المعلم يُدرس العقيدة الإسلامية كأنها عقيدة قوم آخرين، وتراه لا يحاول ربطها بالتطبيق العملي والحياتي، ولا يأمر بالتحرك بها في المواقف المختلفة.

فتسبب عن هذين الأمرين ما يتوهمه الناس من شدة وصعوبة في دراستها ولذلك فنحن ننصح بما يلي:

أن يختار المعلم من الكتب العقائدية ما تخلص من الرد على الشبهات الكلامية والفلسفية لاسيما في أول الطريق[٢].

---

(١) رواه الترمذي ٢٤١٧، وصححه الألباني ـ صحيح الترغيب والترهيب ١/١٢٦.

(٢) ولقد رأيت من كتابات الشيخ الصالح العثيمين ـ رحمه الله ـ والدكتور محمد نعيم يس، والدكتور سليمان الأشقر ... وغيرهم في العقيدة ما هو مناسب للدراسة العقائدية خصوصًا في المراحل الأولى للتعليم.

التركيز على أصول العقيدة الستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، خصوصًا في المراحل الأولى للتعليم.

تأخير دراسة ضوابط العقيدة والاختلاف بين أهل السنة والكلاميين من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم إلى مرحلة متقدمة على المرحلة البدائية.

التأكيد على سهولة ويسر العقيدة وتكرار ذلك.

دراسة أثر الإيمان بكل ركن من أركان العقيدة الستة في الحياة والسلوك، وكيف تتغير حياة الإنسان إلى الأفضل بعد الإيمان بذلك.

الاعتماد في شرح العقيدة على شرح الآيات والأحاديث؛ فإن فيها البركة واليسر والوضوح والبيان.

استخدام طرق التدريس المختلفة في ترسيخ العقائد في القلوب، كالتدريس بالموقف وبالحكاية وغيرها، وسنوضحها إن شاء الله.

توضيح الطريقة التي فهم بها السلف النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وأنه لابد أن يتفهم المسلم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح وليس بفهم غيرهم[1].

ربط العقيدة بالعبادة وبيان أن سبب دراسة العقيدة هو تمام العبودية وهو قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

[الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

---

(١) وهذا هو المفهوم الصحيح لفهم الكتاب والسنة، وهو الفهم بفهم السلف الصالح؛ لأن معظم الناس يدّعون الاستمساك بالكتاب والسنة، ونقول لهم: الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح وليس بفهم غيرهم.

طرق أخرى للتدريس والتعليم:

أ - التعليم بالموقف:

وهذه الطريقة لا يمكن استخدامها إلا إذا كان المعلم متابعًا للطالب ومحتكًا به وقريبًا منه، فهو يستغل كل موقف يمر به ليسدي إليه التوجيه والتعليم، وهذه الطريقة في التعليم من أبلغ الطرق في التأثير ومن أكثر الطرق رسوخًا في ذاكرة المتعلم؛ إذ إنها ترتبط بمثير خارجي هو الموقف الذي مر به وبتوجيه مرتبط وهو النصح المباشر من المعلم، وقد كان ﷺ كثيرًا ما يستخدم هذه الطريقة الناجحة في التعليم والتوجيه.

فعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: «**أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفيه، فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: «**أتحبون انه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا، إنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[2].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٦/ح ٣١٥٨/ فتح، ومسلم ٤/ زهد/ ٢٢٧٣/ ح٦.
(٢) رواه مسلم ٤/زهد/٢٢٧٢/ ح٢.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصًّا لنا فقال: «**ما هذا؟**» فقلنا: قد وهى فنحن نصلحه، فقال: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك**»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ قول: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٢).

وعن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مَصْلية، فدعوه فأبى أن يأكل وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير(٣).

إذن فقد كان ﷺ يستخدم هذه الطريقة في التعليم، وكان أصحابه كذلك يستخدمونها، وعلى المربين أن يستخدموها في تربية قلوب الناس وربطها بالآخرة، ولكنها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تحتاج من المربي التواجد بين طلبته وبين من يعلمهم وقتًا يسمح له بوجود تلك المواقف وما شابهها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده.

ب - التعليم بالقدوة:

وهي طريقة تعليمية بالغة التأثير، إذ إن المتعلم دائمًا ينتظر أن يرى معلمه في أحسن صورة وأفضل تطبيق لكل كلمة علّمه إياها، بل إن طريقة التعليم بالقدوة قد تكون تفسيرية للمادة العلمية التي درست، وقد كان النبي ﷺ خير معلم وقدوة لما علمه الناس، فكانت مجرد رؤيته يتصرف ويفعل؛ علم وحده، حتى لو لم يتكلم ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤/ح٥٢٣٦، والترمذي ٤/ح٢٣٣٥ وصححه الألباني ـ صحيح الترمذي ١٩٠٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/١٥٣٥، وأبو داود ٣/ح٣٢٥١ وصححه الألباني ـ صحيح الترمذي ١٢٤١.

(٣) رواه البخاري ٩/ح٥٤١٤/فتح.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات، ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط»[٢].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه»[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أخا الأنصار، كيف أخي سعد بن عبادة؟**» فقال: صالحٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**من يعوده منكم؟**» فقام وقمنا معه، ونحن بضعة عشر ما علينا نعالٌ ولا خفافٌ ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السِّباح حتى جئناه، فاستأخر قوم من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه»[٤].

فهذا فعله ﷺ في الأحاديث الصحاح الثابتة وهذه حاله ﷺ يضرب أروع الأمثلة للمعلمين والمربين في القدوة والاقتداء، وما أحوجنا إلى معلمين يقتدى بهم.

إننا وللأسف نرى من المعلمين من لا يفكر إلا في حاله هو، ولا يهتم إلا بذاته هو، فتراه ساعيًا وراء طعامه وشرابه ولباسه ومكسبه المادي ومصلحته الذاتية، غير مبال بأن يترك أسوأ الأثر وأدنى القيم لدى كل من تعلم منه خيرًا،

---

(١) رواه الترمذي ٤/ح٢٣٧٧، وأحمد ١/٣٩١، وصححه الألباني: الصحيحة ٤٣٩.

(٢) رواه البخاري ٩/ح٥٤٢١ فتح.

(٣) رواه مسلم (٤/زهد/٢٢٨٥/ح٣٦).

(٤) رواه مسلم ٢/جنائز/٦٣٧/ح١٣.

وإنه ليسقط من أعينهم شيئًا فشيئًا، حتى تصبح دروسه وعلومه دخانًا في الهواء لا أثر لها ولا بقية[١].

جـ - ما تكرر تقرر:

هي حكمة وصفية صالحة إذا حسن استخدامها، وطريقة تعليمية ناجحة إذا أتقن العمل بها، ومعناها: أن يكرر المعلم الجمل الهامة والتوجيهات الضرورية والنصائح الغالية مرات كثيرة وفي مواطن مختلفة وبطرق مختلفة؛ فإنه إذا أكثر من تكرار ذلك بهذه الطريقة فإنها تتقرر في عقول المستمع كأصول وأسس ثابتة يصعب نسيانها.

فالمعلم الحريص على تعليم الإخلاص مثلاً عليه ـ بعد تعليم الناس أصوله النظرية ـ أن يعاود تذكيرهم به في كل موقف، بل وفي كل يوم، ويختار لذلك جملاً مؤثرة لبعض العلماء أو الصالحين كقولهم: «إنما يتعثر من لم يخلص»، أو كقولهم: «الإخلاص عزيز».

والمعلم الذي يريد ترسيخ العمل بالذكر مثلاً عليه أن يكثر من التذكير به وسؤال الناس دومًا عنه وعن أذكار الصباح والمساء، وعن الأذكار الموظفة، وعن الاستغفار، ويختار الجمل المؤثرة للتذكير بذلك ويكررها كثيرًا كقوله ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**»[٢]، أو كقول الإمام ابن القيم: «الذكر نور الذاكر» أو كقول الإمام ابن تيمية عن الذكر بعد صلاة الصبح: «هذه غدوتي»، فيسأل أصحابه: هل تغديتم؟ ـ يقصد الذكر ـ وهكذا.

وهي ولاشك طريقة معينة وليست أساسية في التعليم لأنها لا يتم أثرها إلا إذا سبقها التعليم النظري للموضوع المراد تكراره وتقريره.

---

(١) وأسوأ منه ذاك المعلم ذو الوجهين، فهو في الدرس بوجه المعلم وخارج الدرس بوجه النفعي الدنيوي الغافل، أعاذنا الله من ذلك.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٨.

د - التعليم بالحكاية:

ولست أقصد بالحكاية تلك الروايات الضعيفة أو الموضوعة أو الخيالية التي قد يستخدمها البعض لتزيين حديثه، ولكنني أقصد هنا بالحكاية تراجم الصالحين وحكاياتهم الصحيحة الثابتة عنهم والتي نقلها لنا عنهم الأئمة العلماء كابن كثير وابن الجوزي والذهبي وأمثالهم.

وحكايات الصالحين وتراجمهم من أفضل السبل لتفهيم الطريقة العملية الصحيحة للحياة بهذا الدين؛ إذ كانت حياتهم كلها هو هذا الدين والسعي لرضا الله سبحانه وتعالى.

وتراجم الصالحين ميسرة سهلة المنال، فيجب أن يستخدمها المربون في تعليم الناس هذا الدين والعلم والإيمان.

هذا وينبغي اصطفاء الصحيح من الروايات ونقد ضعيفها وإبعاده، وكذلك ينبغي تفهيم الناس المواقف وتقريبها لأذهانهم ولواقع زمانهم وأيامهم التي يعيشون فيها.

وقصص الصالحين حياة إيمانية وحدها، فيجب علينا الاحتكاك بها والحياة معها والاختلاط بها فإن فيها التطبيق العملي الحسن لهذا الدين.

قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين.

قيل له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب فأنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم.

وكان الأوزاعي يقول: اصبر على السنة وقف حيث وقف القوم ـ الصحابة والتابعون ـ وقل ما قالوا وكف عما كفوا.

هـ - التعليم بالبحث:

وهي طريقة جيدة أيضًا في تثبيت المعلومات والتحبيب في العلم والكتاب والتعويد على الصبر على العلم وعلى أدب الخلاف.

وهي طريقة يقوم فيها المعلم ـ بعدما يشرح الإطار النظري للموضوع شرحًا مبسطًا مختصرًا ـ بأن يطلب من الأفراد القيام ببحث علمي مصغر للموضوع الذي هم بصدده ويمكن له أن يُزودهم ببعض من مواضع ومظان البحث من الكتب المختصة والبحوث السابقة.

ثم يتابع كلاً منهم على حدة إذا استصعب عليه البحث في الموضوع، ويسهل عليه ما صعب عليه، ويبين له ما خفي عنه.

وعليه أن يشجعهم جميعًا ويعلمهم أصول البحث عن المعلومة وأصول المقارنة والتحقيق في الوصول إلى المعاني المطلوبة.

ثم تأتي الخطوة التالية، وهي أن يعرض عليهم جميعًا نتائج بحوثهم ـ بعد تقديمها له وقراءته إياها ـ وعليه أن يثني على مجهوداتهم ويبين لهم الإيجابيات في كل بحث من البحوث، كما يجب عليه أن يقف معهم عند كل سلبية من سلبيات البحوث التي كتبوها، ويبين لهم الصواب بوضوح.

ويحسن بالمربي أن يتدرج في هذه العملية فيبدأ معهم بموضوع سهل في متناول الجميع، ويطلب منهم تعليقات بسيطة عليه، ثم يزيدهم شيئًا فشيئًا حتى يعتادوا على هذه الطريقة في التعليم.

وفي هذه الطريقة عدة فوائد منها:

- إنها طريقة جيدة جدًا في تثبيت المعلومة ـ مناط البحث ـ في الذاكرة.
- تكسر هذه الطريقة الجدر الموجودة بين الطالب وبين الكتب الكبير منها والصغير.

- تساعد على حب البحث العلمي وجمع المعلومة.
- تنبت الطموح العلمي لدى الأفراد القائمين ببحث الموضوع.
- تُعَوِّد على الصبر على العلم والتعلم والبحث.
- تربي على أدب الخلاف واحترام المخالف وتقدير رأيه مادام رأيه اجتهادًا معتبرًا.
- تكسر حواجز الملل والركود في الدروس العلمية التي قد تطرأ في بعض الأحيان من أسلوب التدريس أو من سوء تفاعل المتعلمين.

ثالثًا: محاذير وتوجيهات

- إن حماسة الابتداء لا تعني أبدًا صحة الابتداء، إنما لصحة الابتداء شروط ثلاثة (عقيدة صحيحة، ونية صالحة، وانتصاح مستمر)، إن الهمة العالية مطلوبة في الابتداء، ولكن يجب أن يقيدها نصح المربي.

- الحذر كل الحذر من التصدر قبل التأهل.

- لا ينبغي على المعلم أن يمنع أفراده وتلاميذه أن يتعلموا من آخرين؛ لأن منعه دليل مرضي في داخل نفسه، فليعالجه.

- إياك - أيها المربي - وكبت الطاقات، فأنت محاسب عليها أمام الله، وليس عيبًا بحال أن يتفوق تلميذك عليك في مجال ما، تذكر دائمًا أن ذلك العلم لله وأن هذه الدعوة لله، وأن كبت الطاقات منقصة للمعلم وضدها مكرمة.

- احذر أن يتعلم منك الناس سوء الأدب في الخلاف، وإياك أن تحاول دومًا الانتصار لرأيك، إن الذين هم حولك يفهمون كثيرًا مما تحاول أن تخفي، ولكنهم لا يصارحونك إلا قليل منهم، كن متجردًا في خلافك يهديك الله إلى ما تحب، وتذكر قول الحكيم:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة[١] وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

- تذكر دائمًا أن النجاح في العملية التربوية التعليمية لا يتم إلا بتصحيح النية وابتغاء رضا الله، وإلا قلب الله عملك على وجهه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

- تابع دائمًا متعلميك من ناحية ظهور أثر الخشية والإيمان على سلوكهم وتصرفاتهم، وإن لم تجد أثرًا لذلك فراجع العلم الذي تعلموه، فإنهم لم يتعلموا شيئًا، إن العلم هو الخشية.

- تذكر دائمًا أن العلم ما وقر في القلب وظهر في العبادة والعمل، وليس هو ما وقر في العقل وظهر على اللسان فحسب.

- لا تبحث عن التوقير والاحترام والتبجيل ولا تطلبه من الناس، الهيبة هيبة التقى، ومهما طلبت الهيبة وأنت عاص فسيراك الناس وضيعًا.

- التواضع مع الناس الذين يتعلمون منك هو الدافع الكبير لهم أن يستمروا في التعلم منك، وكم فر أناس من متكبرين.

- إذا أردت أن تعرف قدرك حقًا وماذا يجب أن تكون بين الناس، فانظر إلى مقام العلماء حقًا وقارن حالك بحالهم، ستستحي من نفسك، ولعلك تعود إلى قدرك.

- بادر بحسن الفعال وبالاعتذار وبالعفو وبالاعتراف بالخطأ، إن هذه صفات أهل العلم ومن سلك سبيلهم، فهل أنت تسلك هذا السبيل؟

- أيها المربي: لا تُدَرِّس علمًا لم تتشربه بعد، إنك بذلك تدخل البحر ولم تتقن العوم، فحاذر من الغرق، أتقن الموضوع أولاً وتعلمه من آخرين ثم علمه غيرك، ذلك هو الصواب.

---

(١) يعني: خُلق أو صفة.

- اقترب جيدًا من الناس وخصوصًا الذين يتعلمون منك، واطمئن على أحوالهم الخاصة، وحاول أن تحل مشكلاتهم - ما استطعت - ولا تجعل حواجز بينكم إلا ما شرعه الشرع فقط.

- اطلب النصح من الآخرين دائمًا، واحذر أن تكون دائمًا ناصحًا غير متقبل لنصح الآخرين، إن هذا علامة كبر النفس.

- اعلم أن القدوة ليست عدم الوقوع في الخطأ أمام الآخرين، إنما القدوة هي الصدق مع الله سبحانه، ومن صدق مع ربه سبحانه وقاه ربه الزلة والخطأ، وإنما يتعثر من لم يخلص.



٢- العلاقة الإيمانية بين المعلم والطالب

إن العلاقة الإيمانية بين المعلم والطالب هي الطريق الذي من خلاله تمر العمليات التربوية والتعليمية بينهما، إذ لا سبيل لإحداث العملية التعليمية والتربوية بدون طريق بين المرسل والمستقبل، وهذا الطريق هو العلاقة الإيمانية بينهما، فإن نجحت وأخلصت وكانت لله صلحت العملية التعليمية والتربوية، وإن فشلت أو شابها ما يفسدها فشلت العملية التربوية والتعليمية بينهما.

وتقوم العلاقة الإيمانية النموذجية الناجحة بين المعلم والمتعلم على ثلاثة أسس أصلية، نحاول توضيحها بإيجاز:

أسس العلاقة التربوية:

«الحب في الله، والنصيحة في الله، والعطاء لله»

أولاً: الحب في الله

هو ركن ركين في العلاقات الإيمانية بين الناس جميعًا، ويتأكد دوره وأثره في العلاقة بين الأستاذ والتلميذ، وبين المربي والمتعلم، وبين الداعية والمدعو، وهو شعبة من شعب الإيمان، وطريق أكيد للشعور بحلاوة الأخوة الإيمانية ولذة الإيمان.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[١].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري ١/ح ٢١، فتح، مسلم ١/إيمان/ ٦٦/ ح٦٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»[(١)].

أ - أساس الارتباط... الحب:

يصعب أن تجد أحدًا من الناس يقبل على آخر ليتعلم منه ويقتدي به من غير أن يحبه وينفتح له قلبه وتطمئن عنده نفسيته، لذا فإني أقول للدعاة إلى الله جميعًا: دعوتكم أيها الدعاة إلى الله هي دعوة حب كما أنها دعوة علم، فبلا حب تفشل دعوتكم وتفشلون مع الناس.

ومن كرهه الناس وأبغضوه فلا سبيل له أن يدعوهم أو يعلمهم أو يوجههم.

وأنت أيها الداعية المعلم قد يسر الله عليك سبيل الحب في الله لينشأ بينك وبين الناس بشيء واحد فقط ليس غيره، ألا وهو اقتفاء سنة نبيك ﷺ والاقتداء بأفعاله، فهو سبيل بناء الحب بينك وبين الناس، أن تتخلق بأخلاقه ﷺ في البشاشة والتبسم في اللقاء، والإقبال على الناس، والتواضع للكبير والصغير، واختيار أحسن الكلام، والسعي في حاجة الناس، والصبر على الأذى، واليسر في التعليم، واختيار طرق الفهم المناسبة للناس، إلى غير ذلك كثير كثير مما اتصف به ﷺ كخير المعلمين وسيد المرسلين، فابحث إذن عن أخلاقه ﷺ واقتد بها فثم الطريق.

وإذا تمت علاقة الحب في الله بين الداعية وبين الناس أطاعوه، وتعلموا منه، وأقبلوا عليه، ودافعوا عنه وأعانوه، وصاروا يدعون معه إلى فكرته وعلمه.

والله سبحانه قد علمنا أن الطريق إلى ذلك صفاء القلب والإخلاص لله في العمل والاقتداء بسنته ﷺ في كل شيء، فإذا تم له ذلك تمت له محبة الله سبحانه، قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) رواه مسلم ١/إيمان/ ٧٤/ ح٩٤.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وإذا تمت محبة الله سبحانه للعبد فقد وضع له القبول في الأرض ولا شك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[١].

وقد بوب الإمام مسلم رحمه الله له بابًا قال فيه: باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، وروى بسنده عن سهيل بن أبي صالح أنه قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم[٢]، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبت، إني أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز. قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس، فقال: بأبيك أنت سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر الحديث السابق.

وقال النووي رحمه الله في شرح مسلم: ومعنى «**يوضع له القبول في الأرض**»: أي الحب في قلوب الناس ورضاهم عنه، فتميل القلوب إليه وترضى عنه، وقد جاء في رواية: «**فتوضع له المحبة**»[٣].

وقال ابن علان في شرح رياض الصالحين: المراد بالقبول: الحب في قلوب أهل الدين والخير له والرضا به، واستطابة ذكره في حال غيبته، كما أجرى الله عادته بذلك في حق الصالحين من سلف هذه الأمة ومشاهير الأئمة[٤].

---

(١) رواه البخاري ومسلم (البخاري ١٣/ح٧٤٨٥/فتح)، ومسلم (٤/بر/٢٠٣٠/ح١٥٧).

(٢) وهو على الموسم يعني: وهو أمير الحجيج.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٨، ص٤٣٥، شرح حديث رقم ٢٦٣٧.

(٤) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، لابن علان، ٢/٢٦٩، الريان.

ب - حب في الله وفقط :

فهذه العلاقة الحميمة التي هي الحب لا تتم أواصرها ولا تترسخ قواعدها إلا إذا كانت في الله وفي الله وفقط ، فهي العلاقة التي تدوم ، وما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل ، فيجب أن ينزه المربي علاقته بالمدعو عن كل متعلقات الدنيا أيًا كانت ، وعن كل مصالحها مهما بلغت وليجعلها صافية خالصة ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

بل لقد نصح بعض الدعاة ألا يقيم الداعية علاقة مالية أو مادية أيًا كانت مع المدعو ، وإن لكلامهم وجاهة ؛ فإن علاقات الشراكة والتجارة وغيرها علاقات قد تنتهي بشكل من أشكال الاختلاف ، وقد تدعو إلى الغضب والحزن وتتسبب في تجرؤ كل طرف على الآخر ، فتفسد علاقاتهم خصوصًا إذا كانت في مراحلها الأولى.

وهاك موقف قل وجوده ؛ من إمام أهل السنة الإمام أحمد مع إمام كبير أيضًا هو الإمام عبد الرزاق.

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن إسحاق بن راهويه قال : لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الحمالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئًا ، ثم قال : وقال الرمادي : سمعت عبد الرزاق - وذكر أحمد بن حنبل فدمعت عيناه - فقال : قدم وبلغني أن نفقته نفدت ، فأخذت عشرة دنانير وأقمته خلف الباب ، وما معي ومعه أحد ، وقلت : إنه لا تجتمع عندنا الدنانير وقد وجدت الساعة عند النساء عشرة دنانير ، فخذها فأرجو ألا تنفقها حتى يتهيأ عندنا شيء ، فتبسم وقال لي : «يا أبا بكر : لو قبلت شيئًا من الناس قبلت منك» ولم يقبل[1].

---

(١) صفة الصفوة ، جـ٢ ، ص٢٢٤.

وروى الذهبي رحمه الله أن عبد الله بن الإمام أحمد قال: كنت أسمع أبي كثيرًا يقول في دبر الصلاة: «اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك»[١].

فهل ينتفع الدعاة وأهل العلم والمربون بمثل هذه الصفات السامية وبمثل هذا التجرد في العلاقات لله وبمثل هذا الزهد مما في أيدي الناس.

وهو معنى صحيح معنى ذلك الأثر: «ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[٢]، فإن الناس إذا علموا منك زهدًا وإعراضًا عما في أيديهم عظمت في أعينهم، وزادت هيبتك، ونبتت في قلوبهم محبتك.

ونقل ابن جرير عن إمام التابعين طاوس بن كيسان قوله: «الشح أن يحب المرء أن له ما في أيدي الناس، ثم ذكر أن سفيان بن عمرو كان يقول: وما رأيت أحدًا أشد تنزهًا مما في أيدي الناس من طاوس[٣]، رحمهم الله جميعًا.

جـ - نموذج وبُشرى:

عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ ابن جبل رضي الله عنه، فلما كان من الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه ثم قلت: والله إني لأحبك، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فأخذني بحبوة ردائي فجذبني إليه، فقال:

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء، جـ٢، ص٨١١.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢/٤١٠٢، وصححه الألباني في الصحيحة(٩٤٤).

(٣) انظر صفة الصفوة ٢/١٨٩.

أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ**»[1].

فهذا معاذ رضي الله عنه نموذج للمعلم والمربي الناجح المحبوب، المبتسم المقبل على الناس الذي التف حوله الناس ليتعلموا منه ويصدروا عن رأيه وعن علمه وهم جميعًا يحبونه ويقبلون عليه.

وهذا أبو إدريس الخولاني ـ التابعي الجليل ـ نموذج للمتعلم، أحب معلمه لِما رآه من حسن فعله ولِما سمعه من كثير علمه وجليل فضله.

ثم هذه هي العلاقة الإيمانية الصافية النقية البعيدة عن شوائب المصالح الدنيوية والمتعلقات المادية، يحدوها الحب بين يديها، فتدفع المتعلم أن يُهجِّر ويُبَكِّر ليلتقي بحبيبه ومعلمه ليخبره بحبه.

ثم ها هو ذا يتأدب مع أستاذه تمام الأدب فينتظره حتى ينهي صلاته، ثم يأتيه من قبل وجهه ـ تأدبًا ـ فيسلم عليه ثم يقبل عليه فيقول له ـ يقسم ـ: والله إني لأحبك.

ويرتقي هذا الحب ليبلغ الآفاق فتعجز عنه الأمثلة والحكايات ويصفو شيئًا فشيئًا حتى يصير رقيقًا كالماء الزلال، محببًا كقطرة الماء البارد، ترطب الحلق عند شدة العطش، عزيزًا كقطراتها في جدب الصحراء!

قال الذهبي[2]: وقال عبد الله بن أحمد: ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، ثم قال: وكان من أحيى الناس، وأكرمهم، وأحسنهم عشرة، وأدبًا، كثير الإطراق، لا يُسمع منه إلا المذاكرة للحديث، وذكر الصالحين في وقار وسكون ولفظ حسن، وإذا لقيه إنسان بش به، وأقبل عليه، وكان يتواضع

---

(١) رواه مالك في الموطأ ٢/٩٥٣ - ٩٥٤ / ج١٦، وأحمد في المسند ٥/٢٣٣، وإسناده صحيح.
(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/٨١٨.

للشيوخ تواضعًا شديدًا ويحبهم، وكانوا يعظمونه ويحبونه، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره من التواضع والتكريم والتبجيل.

د - حب بلا تجاوز:

قال في حلية طالب العلم: «تنبيه مهم: أعيذك بالله من صنيع الأعاجم والطرقية والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع من لحس الأيدي وتقبيل الأكتاف والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام كحال تودد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد»[1].

والواقع أن التجاوز ليس فقط في طريقة التوقير الزائدة التي ينكرها كل من عنده مسكة عقل، ولكن من التجاوز في المحبة أشكال أخرى كثيرة.

فكثرة اللقاءات الزائدة عن الحد المقبول تَجَاوُز؛ خصوصًا إذا صاحبها ضياع وقت أو اطلاع على نواقص أو عيوب، فإن كثرة اللقيا وطول الاصطحاب مذموم غير مرغوب فيه، إلا إذا كان في علم وتعلم، وهذا صعب الحصول طول الوقت.

فنحن لا ننصح المربين بطول فترة اللقاء مع المدعويين والمتعلمين، ولا ننصحهم بكثرة العشرة وكثرة المبيت معًا والسفر معًا إلا أن يكون في شأن من شئون العلم أو الدعوة أو المشاركة في صالح الأعمال، ولسنا ننصح بذلك إلا لأن التجارب أكدته؛ فإن كثرة الصحبة - إن لم تكن فيما سبق من خير - تفسد كثيرًا وتضر ضررًا بالغًا، فهي تظهر من عيوب المعلم لطالبه ما خفي عنه، وتجرئه عليه، وتزهده فيه، وتنشئ الحسد من قرنائه له من كثرة مصاحبته وهم ممنوعون من ذلك، وإنما يفعل ذلك من المربين من قلت خبرته.

---

(١) حلية طالب العلم، د. بكر أبو زيد، ص ٢٥.

روى ابن الجوزي عن علي بن المديني أنه قال: «قال لي أحمد بن حنبل: إني لأحب أن أصحبك إلى مكة، وما يمنعني من ذلك إلا أني أخاف أن أملّك أو تملّني، قال: فلما ودعته قلت: يا أبا عبد الله توصيني بشيء؟ قال: نعم، ألزم التقوى قلبك، وألزم الآخرة أمامك»[1].

وكذلك فإن من التجاوز في المحبة الاقتصار على أستاذ واحد أو معلم واحد فقط في تعلم العلم والأدب، ولكن ليكن لكل طالب علم معلم يعلمه ويوجهه ويربيه، ولا يمنعه ذلك من الأخذ عن الآخرين والجلوس إليهم، وقد سبق أن بينا أن على المعلم أن يوجه المتعلم إلى منابع العلم المختلفة وإلى أهل العلم الأتقياء الصلحاء النابهين.

قال جعفر بن محمد: سمعت الإمام البخاري يقول: «كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة»[2].

وقد بين الحافظ ابن حجر رحمه الله في هدي الساري في تقديم فتح الباري بشرح صحيح البخاري أن طبقات الشيوخ الذين حدث عنهم البخاري خمسة، ثم قال: «روى ابن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجل عالمًا حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه، وعن البخاري أنه قال: لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمن فوقه وعمن مثله وعمن دونه»[3].

وقال النووي رحمه الله: «أخذ مالك عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين وستمائة من تابعيهم، ممن اختاره وارتضى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها، وخلصت الثقة به، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون الرواية»[4].

قال الذهبي: وأول طلب مالك للعلم في حدود سنة عشرين ومائة، وفيها توفي الحسن البصري، فأخذ عن نافع ولازمه، وعن سعيد المقبري، ونعيم المجمر

---

(١) صفة الصفوة جـ٢، ص٢٢٤.
(٢) طبقات الشافعية ٢/٢٢٢.
(٣) هدي الساري ص٥٠٣.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٧٨/٢، ٧٩).

ووهب بن كيسان، والزهري وابن المنكدر، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن دينار، وزيد بن أسلم، وصفوان بن سليم، وإسحاق بن أبي طلحة، ومحمد بن يحيى، ويحيى بن سعيد، وأيوب السختياني، وأبي الزناد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وخلق سواهم من علماء المدينة[1].

وأما الشافعي رحمه الله فقد تعلم الفقه أولاً على يد مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة، ثم رحل إلى المدينة قاصدًا الإمام مالك بن أنس ولازمه، ثم سافر إلى اليمن وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى العراق وأخذ عن علمائها، ونشر العلم هناك، وأقام مذهبه وكتب كتابه القديم المسمى «كتاب الحجة»، ثم خرج إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة، وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر[2].

وكذا كان جميع أهل العلم قاطبة يأخذون العلم عن أكثر من معلم، وإن كانوا يكثرون من أحدهم وينتمون إليه.

وربما قال قائل: إن الحال تغير وليس الزمان هو الزمان، ولا شك أن هناك تغير وتبدل عن زمان العلماء الكبار هؤلاء إلا أن مقصود كلامنا أن لا يمنع المعلم طلبته من الأخذ من أكثر من معلم، وكذا لا يقتصر الطالب على أستاذ واحد فقط.

ولكن لا بأس أن يتأدب ويتوجه ويكثر من أحدهم عن الآخر خصوصًا مع قلة أهل العلم وجودًا في هذه الأيام، أما إن لم يتيسر له العلم إلا من أستاذ واحد فلا بأس أيضًا بذلك على أنها أقل الأحوال.

وكذلك فإن التعصب لمذهب الشيخ أو المعلم أو رأيه أو فكرته بغير حكمة ونظر من أشكال المحبة المذمومة، ذلك أن كل الناس يؤخذ من رأيهم ويرد إلا رسول الله

---

(١) تاريخ الإسلام (١١/٣١٨).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/٤٧، ٤٨) مختصرًا.

ﷺ، وللاختلاف أدب وليس من آدابه التعصب بحال، وإنك لتعجب حين ترى من الناس من يتكلم كثيرًا في ذم التعصب الفقهي المذهبي وذم فاعله ويؤصلون ذلك تاصيلاً، ثم إنك تراهم حينًا يتعصبون لرأي مخالف ويدافعون عنه، لا لشيء إلا أنه من معلمهم أو شيخهم أو أستاذهم، وإن ذلك والله لهو الجور وهو الكيل بمكيالين.

فعلى طالب العلم أن يتعلم العدل وحسن التأدب في الاختلاف، كما إنه على المربين أن يعلموا الناس فقه الاختلاف وآدابه وأحكامه، ويدرسون لهم قاعدة «عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية»، وهي القاعدة التي تلقاها العلماء بالقبول والتطبيق.

روى الذهبي أن يحيى بن معين قال: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير[1].

وروى ابن كثير أن الإمام الشافعي رحمه الله قال للإمام أحمد رحمه الله: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازيًا كان أو شاميًا أو عراقيًا أو يمنيًا. قال ابن كثير: يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين، وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب، وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له، وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه[2].

وأكثر جورًا من التعصب للمعلم في مسائل الاختلاف هو جور التعصب للمعلم في مسائل الدعوة وطرقها وأساليبها، فإن الاختلاف والتعصب في هذه المسائل عندئذ يكون تحزبًا وفرقة، ويكون مخالفة للأمر الصريح للأمة بالاعتصام في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص٨١٣.
(٢) البداية والنهاية، جـ ٦، ص٣٤١.

يقول الدكتور بكر أبو زيد:

«لا طائفية ولا حزبية يعقد الولاء والبراء عليها؛ فأهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام، فيا طالب العلم بارك الله فيك وفي علمك، اطلب العلم، واطلب العمل، وادع إلى الله تعالى على طريقة السلف[1]، ولا تكن خرَّاجًا ولاَّجًا في الجماعات، فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادة ومنهج، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام، وأعيذك بالله أن تتصدع فتكون نهابًا بين الفرق والطوائف والمذاهب الباطلة والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها، فكن طالب علم على الجادة تقفو الأثر وتتبع السنن، تدعو إلى الله على بصيرة، عارفًا لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم، وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهدها السلف من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي وغشيت المسلمين بسببها الغواش، فاحذر رحمك الله أحزابًا وطوائف طاف طائفها، ونجم بالشر ناجمها، فما هي إلا كالميازيب تجمع الماء كدرًا، وتفرقه هدرًا؛ إلا من رحمه ربك فصار على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم» اهـ[2].

ولست هنا أتهم أحدًا ممن تعاون مع إخوانه على البر والتقوى لنشر العلم والهدى مخلصًا خالصًا مستنًا بسنته ﷺ، بريئًا من التعصب والتحزب والغيبة والنميمة والصراع والشجار وسوء الظن وتصيد الأخطاء والسقطات والهفوات والزلات، بعيدًا عن الاتهام والسخرية والتحقير، متأدبًا بأدب الخلاف، محبًا

---

(١) وهي الطريقة التي نرتضيها لأنفسنا ولمن نحب، علما وعقيدة وعملاً وتبليغا ودعوة وصراطا، ونسأل الله أن يحينا عليها ويتوفنا عليها.

(٢) حلية طالب العلم، ص٦١.

لجميع العاملين لدين الله، معينًا لهم، متعاونًا معهم، يعذرهم إذا أخطأوا ويسترهم إذا هفوا، ويغفر لهم إذا زلوا، ويدعو لهم بالتوفيق والهداية والصواب.

إذن فهاك أمور من اجتنبها فقد اجتنب الزلل[1]:

١ - عقد الولاء والبراء على حزبية أو طائفية سوى الإسلام.

٢ - نسيان فضل أهل العلم وسابقتهم.

٣- اتهام شخص أو أكثر بتهمة قبل التثبت والتأكد والتبين.

٤ - الوقوع في تكفير المسلمين بالذنوب والأخطاء.

٥ - الوقوع في تبديع الناس بمجرد شبهة.

٦ - إعاقة عامل يعمل لنشر دين الله.

٧- سوء الظن بالعاملين في الدعوة إلى الله.

٨- نقل الكلام من قوم إلى آخرين واستباحة غيبة الناس.

٩- الوقوع في عرض أهل العلم والدعاة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى عند علامة أهل العبودية:

العلامة الثانية: قوله: «ولم ينسبوا إلى اسم» أي لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق، وأيضًا: فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة، وأما العبودية المطلقة فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال:

(١) وأيما امرئ أو قوم أو جماعة وقعت في تلك المحظورات فقد أساءت وزلت وإن ظنت بفعلها الإحسان!!

الرسول، وعن طريقه؟ قال: الاتباع، وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة، وعن مقصده ومطلبه؟ قال: يريدون وجهه. وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾، وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ثم قال رحمه الله: «وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار إليهم ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم أو طريق، أو مذهب أو شيخ أو زي، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة، وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها ولزوم الطرق الاصطلاحية والأوضاع المتداولة الحادثة، هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون، والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله، وهم ـ إلا الواحد بعد الواحد ـ المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود. وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى السنة». يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي أو هيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه، فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل» اهـ[1].

---

(١) مدارج السالكين، نقلاً عن حلية طالب العلم، ص٦٢.

ثانيًا: النصيحة في الله

هي أمر شرعي وسلوك إيماني مؤثر في جميع أنواع العلاقات بين المسلمين، والنصيحة طريقة رفيعة سامية في بث الخير ونشر الاستقامة بين الناس.

وتخيل معي مجتمعًا ينصح بعضه بعضًا ويتقبل بعضه النصح من بعض، كيف يكون حاله؟ إنك لتجد حاله في استقامة بعد إعوجاج، وإيجابية بعد سلبية، وتقدم بعد تأخر، لذا ولغيره شرع الله سبحانه أمر النصيحة بين عباده، والنصيحة الإيمانية باختصار هي «توجيه المرء أخاه نحو ما يحبه تجاه نفسه»، فهو يوجه أخاه في الله في موقف أو إلى سلوك أو معرفة يحب أن لو كان مكانه لفعلها، فإذن النصيحة مدارها حول حديث النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1].

ولقد جعل الشارع النصيحة من المسلم شاملة حياته كلها.

فعن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2].

وقد كان النبي ﷺ يبايع عليها.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[3].

وأما وصف النصيحة فقد بينه العلماء بيانًا شافيًا، قال ابن دقيق العيد: «النصيحة كلمة جامعة معناها إرادة جملة الخير، وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة»[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، البخاري ١/ح ١٣/ فتح، مسلم ١/ إيمان / ٧١/٦٧.

(٢) رواه مسلم ١/ إيمان / ٩٥/٧٤.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري ١/ ٥٧ / فتح، ومسلم ١/ إيمان / ٧٥/ ٩٧.

(٤) شرح الأربعين - ابن دقيق العيد، ص ٢٩، دار البصيرة.

وقال الخطابي: «وأما نصيحة المسلمين فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وإعانتهم عليها، وستر عوراتهم وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة»[1] اهـ.

فهذا الذي ذكره الإمام الخطابي في تعريف النصيحة شاف كاف لمن أراد التطبيق العملي للنصيحة، فراجعه مرات ومرات فإنه غال وثمين جدًا.

أ - أركان النصيحة: فأركان النصيحة خمسة فكرر معي ففي التكرار تذكار:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفق وإخلاص وشفقة.
- ستر العورات.
- الإرشاد لمصالح الآخرة والدنيا بالتعليم والتوجيه والموعظة الحسنة.
- أن تحب لهم ما تحب لنفسك.
- دفع المضار والذب عن الأموال والأعراض.

ب - فرق بين النصيحة والتأنيب:

قال ابن القيم: «والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه، والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه.

فيتلطف في بذلها غاية اللطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق على المريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

---

(١) نقلاً عن: شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص٣٠.

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه، وشتمه في صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًا للذم والإهانة في صورة ناصح مشفق، وعلامة ذلك أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا ويطلب له وجوه المعاذير فإن غلب قال: وإني ضمنت له العصمة؟ والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساويه، والله غفور رحيم»[1].

جـ - الارتباط بين الحب والنصيحة:

هو ارتباط وثيق لا ينفك، ارتباط المحرك بالفعل، فأنت إذا أحببت: نصحت، وإذا زاد حبك: زاد الإخلاص في نصحك، وقد لا تهتم بمن لا تحب فتهمل نصحه أو تؤثر السكوت على النصح له، ولكنك قلما تؤثر السكوت على نصح المحبوب، فأنت تريد له الخير ولو عاد ذلك عليك بشيء من ضرر. وانظر إلى حديث رسول الله ﷺ يتبين لك:

عن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ إني لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[2].

فتأمل كلامه ﷺ تجد أنه ﷺ قد قدم إثبات الحب لمعاذ رضي الله عنه، ثم نصحه نصيحة تنفعه في آخرته وتضيء بها دنياه.

د - كيف تقوم النصيحة بدور مؤثر في العلاقة التربوية؟

إن المرء دائمًا في حاجة إلى من يوجهه ويحذره ويدفعه ويمنعه ويقيمه ويشجعه، إنه بحاجة دائمًا إلى من ينصحه، لا سيما إن كان في طريق ابتداء طلب العلم أو الدعوة إلى الله أو التوبة والاستقامة.

---

(١) نقلاً عن: المغني عن مجالس السوء، ص٢٥٣.

(٢) رواه أبو داود ٢/ ح١٥٢٢، والنسائي ٣/ ح١٣٠٢ صححه الألباني في صحيح النسائي برقم ١٢٣٦.

والمرء إذا فقد الناصح فقدْ فَقَدَ أهم عوامل الاستقامة وعدم الانحراف أو الاعوجاج، والمربي هنا يقوم بهذا الدور الهام وهو قائم على أساس الحب السابق الذي قد بناه بينهما، فيبتدئ المعلم بتوجيهه توجيهًا يملؤه الحب والشفقة والرحمة، ويبدأ بتعديل سلوكه تجاه الناس والمخلوقات خطوة بخطوة وشيئًا فشيئًا، حتى يعتاد الطالب أن ينصحه أستاذه ولا ينفر من نصيحته ولا يستكبر، والطريق الأكيد لضمان عدم نفرة الطالب من النصيحة والاستكبار عنها أن تخرج بحب ظاهر، وبعطف بالغ، وبكلام هين لين، وبتقديم الثناء الحسن فيما أحسن، وأن تكون النصيحة لله وحده.

وينبغي أن تستمر هذه النصيحة باستمرار العلاقة التربوية التعليمية، وعلى المربي أن يختار الأوقات المناسبة للتوجيه والطريقة المناسبة للتعديل والتقويم، وإذا استوفت النصيحة شروطها بين المربي والطالب أنتجت أحلى الثمار وبالغ الآثار، حتى إنه ليجد يومًا طالبه ومدعوه ليأتيه فيسأله أن ينصحه ويوجهه بغير ابتداء فعل من المعلم، وإذا حصل ذلك فهو دليل على نجاح عملية النصح بينهما، فلقد صارت النصيحة محبوبة لديه ولها مكان بين جانبيه، فهو يستأخرها إذا غابت عنه ويستوحش بدونها إذا أبطأت عليه.

وينبغي على المعلم أن يطبق جميع المعاني العامة للنصيحة، وقد سبق أن بينا أركان النصيحة، فليست النصيحة مجرد كلام لتوجيه الفعل ولكنها فعل أيضًا لتوجيه الفكر، فهي أمر بالمعروف للمتعلم ونهي عن المنكر، وهي قائمة حتى في غيبته، فهي ستر لعوراته ورد لغيبته ودفع للضرر عنه.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره، وما من امرئ خذل مسلمًا في موطن تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته**»[1].

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠، وأبو داود ٤٨٨٤، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٩٠.

وقد يجد المربي من طالبه يومًا رغبة أن ينصحه أو ينبهه إلى خير، وعندئذ يجب على المربي التواضع لنصحه وقبوله وشكره على فعله والدعاء له وتشجيعه على أن يعود إلى ذلك كلما رأى خيرًا يريد أن ينصحه به.

فالنصيحة عملية تبادلية بين الطرفين، إلا أنها تكثر من الطرف كثير العلم والتجربة القائم بالتوجيه والتربية أكثر، ولكن ذلك لا يمنع المبادلة في الخير فإنه ليس على النصح كبير.

ثالثا : العطاء في الله

وهو الأساس الثالث من أسس العلاقة الإيمانية بين الداعية والمدعو وبين المعلم والطالب، وبدونه لا تكتمل هذه العلاقة ولا تتم التمام الصحيح ولا تؤتي ثمارها المرجوة.

ونقصد بالعطاء في هذه العلاقة عدة معان يصعب أن تنفصل عن بعضها إذا أردنا إكمال معنى العطاء:

«الكرم والخدمة وقضاء الحوائج وإدخال السرور».

١- الكرم:

وهو خلق لازم للمؤمن ويتأكد لزومه لأهل العلم والدعوة، فينبغي على هؤلاء أن يكونوا كرامًا جوّادين إلى أقصى الدرجات؛ فإن الناس يبخلون لأنهم يجمعون الدنيا، وأهل العلم إنما يجمعون للآخرة، فينبغي عليهم بذل الدنيا للآخرة، وما ظنك بمربٍ أو معلم لا يتصف بصفة الكرم إلا أن يكون شحيحًا منفرًا للناس عن دعوته، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ أمامك فتعلم منها:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**»[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا[2].

بل إنه ﷺ كان يحذر من البخل والشح، بل كان يحذر من الادخار.

فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا توكي فيوكِ الله عليك**»[3] وتوكي أي تدخري.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[4].

ورسول الله ﷺ - وهو خير المعلمين - علم أصحابه الجود والكرم والعطاء في كل الأحوال حتى صار ذلك سمة من سماتهم وخلقًا من أخلاقهم رضي الله عنهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «**من كان معه فضلُ ظهر فليعُد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له**»، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحدٍ منا في فضل[5].

فعلى الدعاة إلى الله أن يتصفوا بصفة الكرم وأن يبذلوا أموالهم للناس وخصوصًا طلبة العلم والسائرين في طريق الاستقامة.

---

(١) رواه مسلم ٢/ زكاة/ ٧١٨/ ح٩٧، والترمذي ٤/ ح٢٣٤٣.

(٢) متفق عليه، البخاري ١٠/ ح٦٠٣٤/ فتح، مسلم ٤/ فضائل/ ١٨٠٥/ ح٥٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ح١٤٣٣/ فتح. (٤) أخرجه مسلم ٤/ بر/ ١٩٩٦/ ح٥٦.

(٥) رواه مسلم ٣/ لقطة/ ١٣٥٤/ ح١٨.

قال القاسمي رحمه الله[1]: «والمواساة بالمال مع الإخوة على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداءً ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

والثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال.

والثالثة: وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصديقين ومنتهى رتبة المتحابين.

فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك، فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون ابن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور.

وأما الدرجة الأولى فليست أيضًا مرضية عند ذوي الدين، روي أن عتبة الغلام ـ رحمه الله ـ جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه. وقال: آثرت الدنيا على الله؟ أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله وتقول هذا!

وأما الرتبة العليا فهي التي وصف الله تعالى بها المؤمنين في قوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي: كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض.

(١) نقلاً عن كتاب: موعظة المؤمنين، ومعلوم أنه اختصار لإحياء علوم الدين للغزالي ـ رحمه الله ـ فنسبة القول للقاسمي هنا هي نسبة لاختصاره فقد يكون الكلام للغزالي نفسه.

كان منهم من لا يصحب من قال: نعلي؛ لأنه أضافه إلى نفسه، ومنهم من كان يعتق أمته إذا حدثته بمجيء أخيه وأخذه من ماله حاجته في غيبته سرورًا بما فعل.

وقال زين العابدين علي بن الحسين لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كُم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذن؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان.

وقال ابن عمر رضي الله عنه: «أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: أخي فلان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وقال أبو سليمان الداراني: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له»[1].

٢- الخدمة وقضاء الحوائج:

وأقصد به قيام كل أخ بخدمة أخيه وقضاء حوائجه ويبذل في ذلك جهده وطاقته، قال الشيخ أحمد فريد: «ومن أخلاق السلف رضي الله عنهم: كثرة سؤالهم عن أحوال أصحابهم، وذلك لأجل أن يواسوهم بما يحتاجون إليه من الطعام والثياب والنقود ووفاء الديون وتحمل الهموم، وهذا خلق صار أهله غرباء في هذا الزمان، فإن الناس اليوم على خلاف ذلك، وربما يقول أحدكم لصاحبه: إيش حالكم؟ فيقول: طيب، ويكتم أمره لعلمه بفراغ قلب صاحبه منه، وأن قوله: إيش حالكم؟ بحكم العادة من غير ثمرة، كما هو مشاهد، بل وكثيرًا ما يقول المار على صاحبه: إيش حالكم؟ ولا ينتظر الجواب مثلاً، فلا السائل يتربص حتى ينتظر الجواب، ولا المسئول يكلف نفسه النطق بالجواب»[2].

---

(١) موعظة المؤمنين: للقاسمي جـ١ ص١٧٨، ١٧٩.

(٢) من أخلاق السلف، أحمد فريد، ص٥٢.

وروى الذهبي أن ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصحبك، فيقول: «هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم، ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم ثم يخرجون من مكة.

فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وسروا، دعا بالصندوق، ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته عليها اسمه»[1].

وروى ابن الجوزي عن مصعب بن مصعب قال: «قدم المروزي إلى بغداد يريد مكة، وكنت أحب أن أصحبه، فأتيته واستأذنته في الصحبة فلم يأذن لي في تلك السنة، ثم قدم سنة ثانية وثالثة فأتيته فسلمت عليه وسألته فقال: أعزم على شرط: أن يكون أحدنا الأمير لا يخالفه الآخر، فقلت: أنت الأمير. فقال: لا بل أنت، فقلت: أنت أسن وأولى. فقال: فلا تعصين، فقلت: نعم، فخرجت معه، وكان إذا حضر الطعام يؤثرني فإذا عارضته بشيء قال: ألم أشترط عليك أن لا تخالفني؟ فكان هذا دأبنا حتى ندمت على صحبته لما يُلحق نفسه من الضرر، فأصابنا في بعض الأيام مطر شديد ونحن نسير، فقال لي: يا أبا أحمد اطلب الميل «يعني اذهب إلى أقرب حجر يبنى للمسافر للحج للاهتداء به» ثم قال لي: اقعد في أصله، فأقعدني في أصله وجعل يديه على الميل وهو قائم قد حنا عليّ وعليه

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٥٤.

كساء قد تجلل به يُظلني من المطر، حتى تمنيت أني لم أخرج معه لما يلحق نفسه من الضرر، فلم يزل هذا دأبه حتى دخل مكة رحمة الله عليه»[١].

قال القاسمي رحمه الله: «وللأخوة حق في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة وهذه أيضًا لها درجات.

فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة، قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره الثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾، وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجاتهم يتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منهم ما لم يروا من أبيهم في حياته، وكان أحدهم يتردد إلى باب دار أخيه يقوم بحاجته من حيث لا يعرفه أخوه، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، وإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها، قال ميمون بن مهران: من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته، وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال إلى الاستعانة، ولا ترى لنفسك حقًا بسبب قيامك بها، بل تتقلد منه بقبول سعيك في حقه وقيامك بأمره»[٢].

٣- إدخال السرور:

وهو المعنى الثالث المكمل لمعاني العطاء ولا عطاء بغير إدخل السرور؛ إذ إن السرور هو الدليل على الانتفاع بالعطاء والبذل، وهو الدليل على الانتفاع بالكرم

---

(١) أين نحن من أخلاق السلف، ص١١٢.

(٢) موعظة المؤمنين، للقاسمي، ص١٨٠.

والخدمة، لذا كان السرور الذي يدخله المسلم على أخيه من أحب الأعمال إلى الله سبحانه كما قاله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن، وأن يفرِّج عنه غمًّا، أو يقضي عنه دينًا، أو يطعمه من جوع**»[1].

وهناك ألف طريق وطريق لإدخال السرور على قلب أخيك أذكرك ببعضها:

- تبشيره بالبشرى التي يحبها.
- إخباره بأخبار الخير التي ينتظرها.
- قضاء دينه.
- إهداؤه الهدية.
- إخباره بأنك تحبه.
- إكرام أهله وأولاده.
- توقيره بين معارفه وأصحابه.
- المسارعة في محباته.

وغيرها كثير جدًّا وهي معلومة معروفة ولكننا فقط نذكر ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقد يكون إدخال السرور على المسلم بكلمة خير واحدة أو ببسمة رائقة أو بمصافحة مقبلة فتأمل ذلك.

٤- معان قريبة:

هذا ويلحق بتلك المعاني كل معنى حسن يزيد في إيضاح المراد من العطاء من التضحية في سبيل الأخوة والصبر عليها وتحمل الأذى والثبات أمام التقلبات والتغيرات.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وحسنه الألباني في الصحيحة ١٤٩٤، صحيح الجامع ١٠٩٦.

وعلى المعلم أن يضرب للمدعو المثال في التضحية والعطاء بفعاله، فربما تلقى المعلم السهام بصدره رجاء ألا تصيب الناس، وربما وضع نفسه موضع الضرر حتى لا يصيب الناس الضرر[١]، وهو في كل ذلك يضرب أروع الأمثلة في الصبر لله والتضحية لله والبذل لله، فيكون معطاءً أينما كان، باذلاً أينما حل، تنطق أفعاله كلها بهذا المعنى، وهو في ذلك يقتدي بمعلمه ﷺ.

ففي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: هل كان رسول الله ﷺ يصلي قاعدًا؟ قالت: نعم، بعدما حَطَمه الناس[٢].

وكان الشافعي رحمه الله ينفي أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة، فكان يقول: «طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان».

وقال ابن الجوزي عن سبيل المؤمن ليكون من صفوة الله: إذا خلع الراحة أعطى المجهود في الطاعة.

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في محنته وحياته هذه الأوصاف عملاً حتى قال لابنه: «يا بني، لقد أعطيت المجهود من نفسي» وهو بذلك قد حد حدًا لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه.

فعلى الداعية إلى الله بذل المجهود من نفسه، واستفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة، طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه، ومقدار قدَّره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه، نصيبًا مفروضًا هو: المجهود من النفس، وعلامته حين المحن: الصبر على الأذى حتى الموت، وعلامته في حياتك اليومية: أنك إن جئت

---

(١) وهو من باب تحمل الضرر الخاص في سبيل تفادي الضرر العام.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم ٧٣٢، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا.

إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتيك أنينًا وفي عضلاتك تشنجًا، لكثرة تعبك في نهارك.

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرمانًا من لذة الدنيا، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية: راحة الآخرة لا راحة الحياة الدنيا، ولذلك لما قيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة[(١)].

ولما تعجب غافل من باذل وقال له: إلى كم تتعب نفسك؟ كان جواب الباذل سريعًا حاسمًا: راحتها أريد[(٢)]، فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله في أفراح آخرته[(٣)].

الحق الذي على طالب العلم والمدعو تجاه معلمه وأستاذه (الوفاء)

سبق وأن ذكرنا سمات العلاقة بين المربي والطالب، وبين الداعية والمدعو ووقفنا عند عدة نقاط فيها بينا فيها دور المربي الذي ينبغي أن يقوم به، وها نحن هنا نختم الكلام عن العلاقة الإيمانية بينهما بواجب وحق أخلاقي وأدبي عظيم ينبغي أن يعده طالب العلم مبدأ من المبادئ التي ينشأ عليها ويتربى في ظلالها، ذلك هو خلق «الوفاء».

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٩٣، مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٣٣٩.
(٢) الفوائد لابن القيم، ص ٦٤.
(٣) الرقائق ص٦١، ٦٢.

وأعني به حفظ العهد ودوام تذكر الخير الذي أسدي إليه من معلمه، ووقاره والسعي في محباته والدعاء له.

قال في حلية طالب العلم: «عليك إذًا بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق، فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير، أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبًا الإكثار من السؤال لاسيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل، ولا تناديه باسمه مجردًا أو مع لقبه كقولك (يا شيخ فلان) بل قل: (يا شيخي أو يا شيخنا)، فلا تسمه فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعْد من غير اضطرار، وانظر ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية «يا فلان أو يا والدي فلان» فلا يجمل بك مع شيخك.

والتزم توقير المجلس وإظهار السرور من الدرس والإفادة به، وإذا بدا لك خطأ من الشيخ أو وهم فلا يسقطه ذلك من عينك، فإنه سبب لحرمانك من عمله، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟

واحذر أن تمارس معه ما يضجره، ومنه ما يسميه المولدون «حرب الأعصاب»، بمعنى امتحان الشيخ على القدرة العلمية والتحمل، وإذا بدا لك الانتقال إلى شيخ آخر فاستأذنه بذلك فإنه أدعى لحرمته وأملك لقلبه في محبتك والعطف عليك، إلى آخر جملة من الآداب يعرفها بالطبع كل موفق مبارك وفاءً

لحق شيخك في أبوته الدينية، واعلم أنه بقدر رعاية حرمته يكون النجاح والفلاح، وبقدر الفوت يكون من علامات الإخفاق»[1].

وإنها والله لآلام وعذابات يشعر بها المربي يوم أن يرى تلميذه وقد تنكر له أو نسيه أو أساء في معاملته، وهو الذي بذل معه التعب الكثير والمجهود الوفير، فتلقاه تائهًا جاهلاً يتحسس الخطا، فلم يلبث أن أخذ بيده وربت على صدره وأرشده الطريق وعلمه العلم وبصره بالخير وكان يعده أقرب إليه من ولده وأخيه، وأحب إليه من كل مقرب إليه، وما زال يدعو له أن يعينه الله على طريقه ويثبته على توبته، ثم ما زال ينصحه ويقومه ويدفعه ويقويه حتى قوي عوده واشتد في الخير ساعده، فلما اكتمل له ذلك إذا به ينساه أو يتنكر له أو يسيء في معاملته، فينكسر قلب المربي لذلك وتذرف دمعاته وينفطر حسه ويعلم برحيل الوفاء من الدنيا وبقرب اليوم الآخر.

وهذا نموذج من نماذج الوفاء قل وجوده في هذه الأزمان.

يقول د. بكر أبو زيد في كتابه «**ابن القيم حياته وآثاره**»:

«حفاوة ابن القيم بشيخه ومحبته له: وقد وفى ابن القيم رحمه الله تعالى حق الأستاذية والوفاء بالشدة والرخاء، فقد ظل يشارك شيخه في أعماله وأحواله منذ ملازمته له حتى آخر لحظة من حياة شيخه رحمه الله تعالى. وقد امتحن وأوذي من أجل مناصرته لشيخه في ذات الله، وفي ذلك يقول ابن رجب: وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

ويقول ابن حجر: «إنه اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبًا بالدرة، فلما مات أفرج عنه».

---

(١) حلية طالب العلم، ص٢٥.

وكما احتفى بشيخه وعلومه حال حياته وأخلص في محبته وولائه فقد كان خليفته الراشد بعد وفاته، فتلقف راية التجديد وثبت على جادة التوحيد بنشر العلم، ويرَدِّ الخلف إلى مذهب السلف، فاتسعت به دائرة المدرسة السلفية، وانتشر روادها في كل ناحية وصقع.

وكان من حفاوته بشيخه أن دون في ثنايا كتبه جملاً من مواقفه وسؤالاته له وأسئلة غيره له وطائفة من أحواله ومرائيه واختياراته مما لو استل من مؤلفات ابن القيم لظهر في مجلدة لطيفة ترفل بعزيز الفوائد ولطائف العلم»[١].

رابعًا: محاذير وتوجيهات في موضوع العلاقة التربوية الإيمانية بين المعلم وطالب العلم

هذه العلاقة دوامها بالطاعة والعبادة فما تفارق اثنان مجتمعان إلا بذنب أحدثه أحدهما، فاحرص دومًا على طاعة ربك.

هذه العلاقة قوامها النصح في الله فاحرص عليه دومًا، وتخير طرقه وأدواته.

إن النصيحة على الملأ فضيحة، فإياك النصيحة في جماعة فإنها تورث البغض والكره وتوغر القلب.

احرص على عدم المبالغة في الحب، ولكن أحبب حبيبك هونًا ما، فإن المبالغة في الحب سبب في كثير من المضار، ولكن كن معتدلاً ووسطًا.

احرص ألا تذوب شخصيتك في شخصية الآخر، بحيث تكون صورة منه أو نموذجًا له، ولكن ليكن لك سمتك الخاص بك.

---

(١) ابن قيم الجوزية.. حياته وآثاره، د. بكر أبو زيد، ص٨٣.

إن الحب بين المربي والمدعو لا يعني أبدًا إزالة جميع الجُدُر بينهما ، ولكن لابد أن يحرص الاثنان على إبقاء جدار الوقار والاحترام والتأدب.

ولتكن أيها المربي دومًا مصدر خير لتلميذك ، وإياك أن تكون له مصدر ألم بأي شكل كان ، ولو بدعوى التربية والتعليم ، احرص على هذا وتأمل فيه.

لا تعامل المدعو على أنه ولدك في التأديب والتربية فتفاجأ منه بسلوك لا تحبه ، ولكن احرص دائمًا على مقامات الناس واحترم شخصياتهم.

نحن نتعامل في هذه الأيام مع طلبة علم ومدعوين قد كبر عمرهم ، فمعظمهم قد تربى بطرق مختلفة قد صلب فيها عوده ، فإياك أن تحاول أن تكسر عوده فجأة فتفقده ، ولكن اصبر عليه شيئًا فشيئًا ، فلربما يلين العود.

لتكن أيها المربي مصدر تذكير بالله دائمًا للناس ولا يزل لسانك في كلمة سوء أو تزل فعالك في سقطة شر ، فإن الناس ينظرون إليك ليتعلموا.

إياك أيها المربي والمعلم أن تريد دائمًا أن تُحَب ولا تحاول أن تُحِب ، فإن علاقة الحب في الله علاقة تبادلية لا تقوم من طرف واحد ، وإن قامت فمآلها الفشل.

إن الأصل في خلق العطاء أن يكون من جانب المربي والمعلم والأستاذ لتلميذه ، فإن حصل وكان عطاء من الطالب لأستاذه فهو خير... ولكنه فرع وليس أصلاً فانتبه لذلك أيها المعلم.

إن حق الوفاء الذي على المتعلم لأستاذه حق لا يطلب أبدًا ، ولكن يُتربى عليه ، فإن لم يتربى المرء عليه صعب عليه استيعابه.

الدعاء بظهر الغيب دليل قوي من أدلة النجاح في العلاقة التربوية الإيمانية فاجعله مقياسًا تقيس به قوتها.

إن من أهم معاني الوفاء للمعلم معنى الطاعة في المعروف ، ولكن انتبه أيها المربي فإن الطاعة أيضًا لا تكون قصرًا ، إنما طريقها الحب ، فاغرس الحب واسقه

بماء الإخلاص لله تحصد الطاعة في المعروف ولا شك، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨].

احرص أن يجمعكما دومًا العبادة في الله، والتواصي بالحق والصبر واحذر أن يجمعكما لهو أو ضياع وقت أو نزهات بغير هدف أو أن تجتمعا على أمر دنيا إلا في الحاجة الماسة، وأما ما دون ذلك فاجعله كله في المعروف.

إياك أيها المربي ومعاقبة من تربيهم بفعل طاعة من الطاعات، فبعض المربين إذا أخطأ من يربيه عاقبه بقيام ليلة أو صوم يوم أو أكثر، وهذا من أخطر أنواع الحواجز النفسية التي تحول بين قلب المتربي وبين العبادة، فتُحدث في قلبه كراهية نحو تلك العبادة التي عوقب بها، ولا يستشعر لذتها، وكذلك العقاب المالي، فلا ينبغي العقاب بفعل الفضائل أو بإنفاق الأموال.

بعض المربين يجد سعادة إذا قام طلبته بخدمته وتسارعوا في ذلك، وهو أمر غير حسن، وليس عادة أهل العلم قبول الخدمة من طلبتهم، ولكن التواضع يقتضي أن يقوم المربي هو بخدمة طلبته، فإن حصل له خير من الناس عن غير طلب منه ولا استشراف نفس فلا بأس، وكان الإمام أحمد رحمه الله لا يجعل أحدًا يصب عليه ماء الوضوء.



٣- استبدال التصورات الإيجابية بدلاً من التصورات السلبية:

يبدأ المتعلم والمدعو حياته الإيمانية محملاً بتصورات شتى عن الكون والحياة والإسلام، وتكون معظمها تصورات سلبية لم يوجهه فيها أحد أو يعلمه أحد، وإنما تكون معظمها مستقاة من واقع المجتمع الذي ظل عمره يعيش بداخله، فتأثر بأدوات الإعلام فيه وبالقيم والمبادئ السارية فيه.

وكان دومًا ما يرى مبادئ الإسلام غريبة عنه لم يجد هناك من يوجهه إليها ولا من يربيه عليها، ولكن اكتفى ذلك المجتمع منه بكونه مسلمًا، ولم يكن ذلك المجتمع بهيئاته ومؤسساته الموجهة نحو التغريب أن يقوى إيمان هذا المسلم أو يدفعه إلى الطاعات والعبادات، ولكن كان دومًا ما يبث فيه التصورات السلبية تجاه ما يحيط به من حياة.

وللمعلم هنا دور بالغ الأهمية في تعديل تلك التصورات السلبية واستبدالها بتصورات إيجابية إيمانية تجاه الناس والحياة والعبادات وغيرها من تصورات الإسلام وقيمه. وهو دور صعب في واقع الأمر ويصعب أن يقوم به معلم وحده، ولكن ينبغي أن تكون هناك مؤثرات أخرى تؤثر على ذلك الإنسان ليستبدل تصوراته تلك السلبية بأخرى إيجابية إيمانية.

ونحن في هذا المقام نوجه النظر إلى مجموعة تصورات ينبغي التأكيد على تغييرها فاتحين المقام لكل معلم أن يوجه سلوك متعلميه إلى الأحسن والأفضل دومًا.

أولاً: استبدال تصور الفقر إلى الله والحاجة لتوحيده وحب الطاعة بدلاً من تصور مشقة التكليف في التوحيد والعبادة:

فكثير من الناس ينظرون إلى واجبات الإسلام كتكليف ومشقة يلزمهم أن يقوموا بها، وقليل منهم من ينظر إليها من جهة حاجتهم إليها وفقرهم تجاه ربهم سبحانه وتعالى.

ويترتب على شعورهم تجاه التوحيد والعبادة أنها مشقة وتكليف أنهم لا يشعرون بحلاوة التوحيد والإيمان والعبادة وكذلك فإنهم قد يتركون الالتزام بالعبادة في بعض الأحيان لشعورهم بمشقتها عليهم، أما إن صار لديهم شعور وفهم وتصور صحيح تجاه التوحيد والعبادة، وأنها لا غنى للمرء عنها، وأن حاجته للتوحيد والعبادة أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، وأنه لا تقوم حياة مسلم بغيرهما، إذا فهموا هذا المعنى أحبوا التوحيد والعبادة، وصار إيمانهم بربهم بحب للإيمان به، وحب لله ولرسوله ولكل ما يقرب إلى حبه سبحانه وتعالى.

قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان ضرورة التوحيد للعباد:

«هذه قاعدة جليلة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له، عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ثم قال ـ رحمه الله ـ: وذلك أن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب؛ فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

---

(١) رواه البخاري، باب حلاوة الإيمان، ح ١٦.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ولا يقوم صلاحه إلا بها، إذا تبين لك ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

١ - أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب، وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة (التي لا تقوم حياة العبد إلا بها) دون ما سواه.

وهذا معنى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية؛ إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً، والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله...

٢ - أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة له ومحبته والإخلاص له، وحاجتهم إليه في عبادته إياه كحاجتهم في خلقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة، ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول لا إله إلا الله رأس الأمر».

وهذا الأصل الثاني مبني على أمرين:

أ - أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه كما عليه أهل الإيمان وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام أن عبادته تكليف ومشقة لمجرد الامتحان والاختبار أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم.

فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما قد وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب ليس هذا موضعها، وهذا يفسر في موضعه.

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي، كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي وإن وقع في الأمر تكليف فلا يكلف إلا قدر الوسع.

لا أنه يسمي الشريعة تكليفًا، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم.

ب - أن النعيم في الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم: أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى، كما في الدعاء المأثور: «**اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**» رواه النسائي[1]، وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟! ويدخلنا الجنة؟! ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»[2] وهو الزيادة، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

---

(١) أخرجه النسائي باب الدعاء بعد الذكر وصححه الألباني في صحيح النسائي برقم ١٢٣٧ عن عمار بن ياسر.

(٢) أخرجه مسلم باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ٢٩٧/٨٠ عن صهيب.

فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة وعليهما أهل العلم والإيمان.

٣- أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصره وهداه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله...

٤- أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه؛ إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره وكذلك من النكاح واللباس.

واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير الله فلابد أن يضره محبوبه ويكون ذلك سببًا لعذابه، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه**»[1] رواه الترمذي وغيره.

٥- أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذله من تلك الجهة، وهو معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب، ولا استنصر بغير الله إلا خذل.

٦- أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول إنما يقصد منفعته بك، والرب سبحانه يريدك لك ولمنفعتك بك لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة، فتدبر هذا.

٧- إن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك، وإن كان ذلك ضررًا عليك فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه الألباني عن أبي هريرة (صحيح الترمذي رقم ١٨٩١).

٨- أنه إذا أصابك مضرة فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.

٩- أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر الله، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك، فلا تعلق بهم رجاءك»[١].

هذا وقد سقت هذا الكلام الثمين بطوله لعظم الفائدة التي فيه وجليل النفع الذي به. فينبغي أن يتعلم طالب العلم هذه المعاني الواردة في كلام شيخ الإسلام، وقد بسط الإمام ابن القيم شرحها في كتابه إغاثة اللهفان فراجعه هناك، ويحسن أن يجعل المعلم من دراسة هذه الأبواب[٢] مقدمة تعليمية لكل مدعو، وليحاول المعلم تبسيط هذه المعاني والمفاهيم وشرحها لطلبته وتبيين عظيم فائدتها لهم، ولا يكتفي بمجرد قراءتها عليهم أو أمرهم بقراءتها.

ثانيًا: استبدال تصور الخوف من الله سبحانه وتقواه في ارتكاب المعاصي بدلاً من تصور الاعتماد على عفوه ورحمته لتضييع أمره ونهيه:

فإنه قد ساد في مجتمعات المسلمين مفهوم خاطئ للغاية تجاه الذنب والمعصية، وهو أنه لا بأس للإنسان من أن يرتكب الذنب تلو الذنب والمعصية بعد المعصية، وإذا أنكر عليه أحد أو نصحه أو عاتبه رد عليه بأن الله غفور رحيم، وأنه سبحانه سيغفر الذنوب في أي وقت ولا بأس بأن يظل الإنسان يعبث بدينه ويجاهر ربه بالآثام لأنه في أي وقت سوف يتوب ويتوب الله عليه.

ونتج من هذا المفهوم ـ الذي فيه حق وباطل ـ أن استهان الناس بالمعاصي وجاهروا بها ورفضوا كل منكرٍ لها، بل حتى لقد عاتبوا من ينصح فيها وجعلوه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جـ١، من ص٢٠ - ٣٢ مختصرًا.

(٢) إغاثة اللهفان ابتداءً من الباب السادس، (في أنه لا سعادة للقلب...).

متشددًا وناسيًا لرحمة الله تعالى، كذلك فقد نتج عن هذا المفهوم الادعاء بأن النية قد تكون في القلب صالحة تقية عالية رغم أن صاحبها لا يفعل الطاعات أبدًا، فإذا سألته لماذا لا يصلي؟ رد عليك قائلاً: النية في القلب وربك غفور رحيم، وإذا سألته لماذا لا يخرج الزكاة؟ رد عليك قائلاً: النية في القلب وربك غفور رحيم... وهكذا.

فتهاون الناس في كثير من الطاعات معتمدين على عفو الله ورحمته ومضيعين أمره ونهيه.

وفي مقولتهم حق وباطل، وقد اتخذوا الحق الذي فيها سُلَّمًا للباطل.

فأما الحق الذي في مقولتهم فهو أن الله غفور رحيم عفو يغفر الذنب ويستر العيب، ولو جاءه العبد بملء الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئًا لجاءه بملئها مغفرة.

وأما الباطل الذي فيها فهو اتخاذهم عفو الله ورحمته حجة لعصيانه ومخالفته ونسيانهم الخوف منه سبحانه وخشيته وتقواه وعذابه وتضييع أوامر الشرع ونواهيه.

وقد بين الشيخ الإمام ابن قيم الجوزية هذا المعنى بوضوح وجلاء في كتابه الجواب الكافي إذ يقول:

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيع من الخذلان والحمق، وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا.

وقيل للحسن: أراك طويل البكاء؟ فقال: أخاف أن يطرحني ولا يبالي. وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا، خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١].

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: «مر رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: «**أفٍّ لك!**» فظننت يريدني، فقال: «**لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعيًا إلى آل فلان فغل نمرة، فدرع الآن مثلها من نار**»[٢].

وفي مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**»[٣]. وفيه أيضًا من حديثه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون**

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، البخاري جـ٦/٣٢٦٧/فتح، ومسلم جـ٤/ الزهد/ ٥١.
(٢) أخرجه أحمد، وهو ضعيف جـ ٦، أحاديث فاطمة رضي الله عنها، ص٣٩٣.
(٣) أخرجه أحمد، وهو ضعيف جـ٣، ص١٨٠.

في أعراضهم»[١]، وفيه أيضًا عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: **«يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»**، فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: **«نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء»**[٢]، وفيه أيضًا عنه، أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: **«ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار»**[٣].

وفي صحيح مسلم عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»**[٤]»[٥].

ثالثًا: استبدال تصور الحب والرحمة للمجتمعات بدلاً من تصور العداوة:

قد يسيطر على الشاب في بداية طريق التزامه بدين الله وتعلمه العلم شعور بالمفارقة بينه وبين مجتمعه، وبالغربة في الحياة لأنه يستمسك بآداب الشرع وأحكامه، والناس أكثرهم لا يفعلونَ ذلك.

وإذا به يقرأ من الأحاديث الصحاح عن غربة الإسلام في آخر الزمان ما يفهم منه المبتدئ ـ خطأ ـ تقوية هذا الوازع في مفارقة المجتمع. وهذا الشعور بمفارقة

---

(١) أخرجه أحمد جـ٣ ص٢٢٤، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٥٣٠.
(٢) رواه ابن ماجه ٣٨٣٤/ باب دعاء النبي ﷺ ومداره على يزيد الرقاش، وهو ضعيف.
(٣) أخرجه أحمد عن أنس وهو ضعيف جـ٣ / مسند أنس.
(٤) أخرجه أحمد ومسلم (جـ٤/ صفات المنافقين/ ٥٥).
(٥) الجواب الكافي ص٣٦ وما بعدها.

المجتمع والاغتراب عنه ـ رغم ما يمكن أن ينشأ منه من سلوك التزامي واستمساك بالسنة ـ قد ينتج عنه من الأخطاء الكبيرة ما ينبغي على المربين وأهل العلم أن يقوموه ويعدلوه.

ذلك أن هذا الشعور بمفارقة المجتمع والبعد عنه قد يتطور في بعض الأحيان لرؤية المجتمعات رؤية غير صائبة، فيصف الشاب المجتمع بالكفر وربما يتهم آحاده كذلك، أو إنه ليحكم على الناس بالضلال والشرك، أو إنه يتوقف في أمر أناس لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان، وهذه الزلة زلة خطيرة، وهي كفيلة بإفساد دعوته ووقوعه في المحظور الشرعي والمحظور الدعوى، فأما المحظور الشرعي فلخطأ ذلك شرعًا مما سنبينه بعد قليل، وأما المحظور الدعوى فلأنه إذا نظر إلى الناس بهذه العين مقتهم واحتقرهم ولم يبذل نفسه في دعوتهم وساء خلقه معهم، إلى غير ذلك مما هو معلوم معروف.

وإنما يكبر هذا الشعور لدى الشاب في بداية طريقه لكثرة ما يجده من حوله من تضييع لأوامر الله تعالى والمجاهرة بالمعاصي والذنوب والآثام وغلبة للباطل وانتفاش له وأذية عباد الله من أهل العلم والدعاة واضطهاد شرائع الدين وكثرة الفجور وضعف أمة الإسلام وغيره فيجب الانتباه لهذه الزلة وعلاجها ببيان المنهج الإسلامي الصحيح عقيدة وعلمًا وعملاً ودعوة.

ونحن هنا نبين ما على المعلم أن يعلمه للشاب في بداية طريقه تجاه الناس ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك، مؤثرين الاختصار على الإسهاب ومحددين الكلام في نقاط أساسية كالتالي:

١- الإيمان قول وعمل:

قال شيخ الإسلام في الواسطية: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح»[١].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لخليل هراس، ص١٦١.

فقول القلب: اعتقاده وتصديقه وإقراره.

وقول اللسان: إقراره العمل؛ أي النطق بالشهادتين والعمل بمقتضياتها.

وعمل القلب: نيته وتسليمه وإخلاصه وإذعانه وحبه وإرادته للأعمال الصالحة.

وعمل اللسان والجوارح: فعل المأمورات وترك المنهيات.

فإن قال قائل: أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟ قلنا: قال النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»[1]، فهذا قول القلب، أما عمل القلب واللسان والجوارح فدليله قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[2]. فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء.

فبهذا يتبين أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال المفسرون[3]: أي صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيمانًا، مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان؛ هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة[4].

وشمول الإيمان لهذه الأشياء لا يعني أنه لا يتم إلا بها، بل قد يكون الإنسان مؤمنًا مع تخلف بعض الأعمال، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله.

---

(١) رواه مسلم (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/١).

(٢) رواه مسلم باب بيان عدد شعب الإيمان ص٥٨ من حديث أبي هريرة والبخاري بلفظ (الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان).

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٦٧.

(٤) وراجع: شرح الواسطية لابن عثيمين، جـ٢ص٢٣٢.

٢- الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١]. وهذا صريح في ثبوت الزيادة، وأما النقص؛ فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ وعظ النساء وقال لهن: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[١]، فأثبت النقص، ثم لو فرض أنه لم يوجد نص في ثبوت النقص، فإن إثبات الزيادة مستلزم لإثبات النقص.

وأسباب زيادة الإيمان أربعة:

أ - معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.

ب - النظر في آيات الله الكونية والشرعية.

جـ - كثرة الطاعات وإحسانها.

د - ترك المعصية تقربًا إلى الله عز وجل.

وأسباب نقص الإيمان أربعة:

أ - الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

ب - الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية.

جـ - قلة العمل الصالح.

د - فعل المعاصي.

---

(١) أخرجه مسلم، باب بيان نقصان الإيمان ح٧٩ عن عبد الله بن عمر.

وخالف أهل السنة في هذا طائفتان بدعيتان:

الأولى: المرجئة: وهم يقولون: إن الإيمان هو الإقرار بالقلب وما عدا ذلك فليس بإيمان، ولهذا كان الإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وكل الناس في الإيمان سواء؛ فالإنسان الذي يعبد الله عندهم كالذي يعصي الله.

الثانية: الخوارج والمعتزلة: وهم يقولون: إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وأنها شرط في بقائه، فمن فعل معصية من كبائر خرج من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: إنه كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين[١].

وجميع هذه الطوائف مبتدعة، ومناقضة حججهم في كتب المطولات ولا مجال لها هنا.

قال الشافعي رحمه الله: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ثم تلا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾»[٢].

وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان»[٣].

وقال وكيع بن الجراح: «أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل»[٤].

وقال الإمام أحمد: «الإيمان يزيد وينقص؛ فزيادته بالعمل، ونقصانه بترك العمل»[٥].

---

(١) راجع شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين، مرجع سابق ص٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر: فتح الباري، ج١، ص٦٢، كتاب الإيمان.

(٣) انظر: «كتاب الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٣٠ وما بعدها.

(٤) انظر: كتاب السنة ١/ ٣٠٩ وانظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي

(٥) المرجع السابق ١/ ٣١٠.

٣- أهل السنة لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بالمعاصي والكبائر:

فإن أهل السنة لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بكل ذنب، إلا ذنبًا يزول به أصل الإيمان.

قال شيخ الإسلام: «وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]. ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار...».

ثم قال: «ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته»[(١)].

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة لا يزول إلا بزوال أصله، وأما زوال فرعه بارتكاب المحذورات وترك الواجبات فيُنْقص الإيمان ويضعفه ولكنه لا يزيله ولا يذهبه بالكلية.

والعبد لا يخرج من الإيمان إلا إذا أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو بجحود ما أدخله في الإيمان، أو بطعنه في الإسلام أو في النبي ﷺ، أو باستهزائه بالله ورسوله وكتابه، أو بالشرك بالله، وهذه المسائل كلها تخرجه عن الإسلام بإجماع أهل العلم[(٢)].

---

(١) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام(المتن).
(٢) راجع تعليقات الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على العقيدة الطحاوية، ص١٨، ١٩.

فأهل السنة والجماعة لا يكفرون المسلم بالمعاصي والكبائر، بل الأخوة بين المؤمنين ثابتة ولو مع المعصية[١]، وعلى هذا فلو مررت بصاحب كبيرة فإني أسلم عليه لأن النبي ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم: «**إذا لقيته فسلم عليه**»[٢]، وهذا الرجل ما زال مسلمًا فأسلم عليه، إلا إذا كان في هجرة مصلحة، فحينئذ أهجره للمصلحة، وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق؟ فالجواب: لا هذا ولا هذا، بل نحبه بما معه من إيمان، ونكرهه بما معه من المعاصي وهذا هو العدل[٣]. ولو أن إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا وأعتقه في كفارة أجزأه، والله تعالى يقول: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾، فكلمة مؤمنة تشمل الفاسق وغيره[٤].

٤ - أهل السنة والجماعة لا يخرجون أحدًا من الإسلام فَعلَ فعلاً مكفرًا، إذا كان جاهلاً أو متأولاً أو مكرهًا - إن كان قلبه مطمئنًا بالإيمان - إلا بعد إقامة الحجة عليه التي يكفر تاركها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالمتأول الجاهل والمعذور، ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدرًا...»[٥].

---

(١) قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأه».. قال: «والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم البعض» .. قال: «فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، و إن رأى بعضهم ضالا أو غاويًا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك..» مجموع الفتاوى ٣/٢٨٦.

(٢) مسلم عن أبي هريرة رقم ٢١٦٢، باب حق المسلم على المسلم/ كتاب السلام.

(٣) راجع شرح الواسطية لابن عثيمين، جـ٢ ص٢٤٠.

(٤) مرجع سابق، شرح الواسطية لان عثيمين ص٢٤١.

(٥) الفتاوى ٣/٢٨٨.

وقال ـ رحمه الله ـ: «وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه مع الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يبين لهم بها أنهم مخالفون للرسول، وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في جميع تكفير المعينين» اهـ.

فأهل السنة لم يكفروا أحدًا لم يدل دليل من الكتاب والسنة على كفره، وإذا مات على هذا فأمره إلى الله تعالى[١].

وقد حذر النبي ﷺ من اتهام الناس بالكفر أو اتهام المجتمعات بالكفر تحذيرات شديدة جدًا:

فقال ﷺ: «**أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بهما أحدهما؛ إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[٢].

وقال ﷺ: «**من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه**»[٣].

وقال ﷺ: «**لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»[٤].

وقال ﷺ: «**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[٥].

---

(١) فتبين لك جليا خطأ الذين يسارعون في إتهام الناس والمجتمع بالكفر بلا حجة، وكذلك الذين يصفون المجتمع بأنه جاهلي بالكلية، يعني غير إسلامي، وقد ثبت له أصل الإسلام، فليس هذا سبيل أهل العلم من أهل السنة والجماعة، فتدبر!

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب حال إيمان من قال لأخيه، رقم ١١١، عن عبد الله بن عمر.

(٣) متفق عليه من رواية أبي ذر، البخاري، جـ٦، ٣٥٠٨، مسلم، كتاب الإيمان، حال من قال لأخيه، ١١٢.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب ما ينهى من السباب واللعان، رقم ٥٦٩٨ عن أبي ذر.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم ٥٧٥٢ باب من أكفر أخاه بغير تأويل عن أبي هريرة، ورواه مسلم بلفظ إذا كفر الرجل أخاه، كتاب الإيمان، حال من قال لأخيه، عن ابن عمر.

وأهل السنة كذلك لا يكفرون المعين، وإنما يفرقون بين الحكم على القول بأنه كفر والحكم على صاحب القول بأنه كافر؛ لأنه يمكن أن يكون متأولاً أو جاهلاً أو مكرها ـ كما سبق ـ، فتكفير المعين من الجهال وأمثالهم لا يجوز إلا بعد إقامة الحجة عليه من أهل العلم، والحجة ينبغي أن تكون على مستوى فهمهم، ويعطي لعقولهم فرصتها حتى يستوعبوا الحجة والأدلة، وإنما يقوم بذلك أهل العلم من القضاة الشرعيين أو العلماء المرضيين.

٥- أهل السنة يرون وجوب طاعة ولاة أمور المسلمين ما لم يأمروا بمعصية، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني**»[١].

وقال ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[٢]. والمقصود باستعمال العبد الحبشي أن يكون مأمورًا من جهة الإمام الأعظم وهو الخليفة على المسلمين.

وقال ﷺ: «**تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع**»[٣].

وقال ﷺ: «**من كره من أميره شيئًا فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرًا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية**»[٤].

---

(١) متفق عليه، عن أبي هريرة، البخاري ٩٣، كتاب الإحكام، باب قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾.

(٢) البخاري، ٦٧٢٣، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

(٣) رواه مسلم برقم ١٨٤٧، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند الفتن، عن حذيفة بن اليمان.

(٤) رواه مسلم برقم ١٨٤٩، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، عن ابن عباس.

فطاعة أولي الأمر في المعروف من أصول أهل السنة والجماعة، وهي أمر أساسي لوجود الانضباط في دولة الإسلام والوقاية من الفتن.

وأهل السنة يرون الصلاة خلفهم والدعاء لهم بالصلاح والاستقامة ومناصحتهم، ويحرمون الخروج عليهم بالسيف إذا ارتكبوا مخالفة دون الكفر.

قال النووي رحمه الله: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا»[2].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فأهل السنة رحمهم الله يخالفون أهل البدع تمامًا، فيرون إقامة الحج مع الأمير وإن كان من أفسق عباد الله...» ثم قال: «فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء وإن كانوا فساقًا، حتى وإن كانوا يشربون الخمر في الحج، لا يقولون: هذا إمام فاجر لا نقبل إمامته؛ لأنهم يرون أن طاعة ولي الأمر واجبة وإن كان فاسقًا».

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه مما لا يسوغ فيه الاجتهاد، وأما ما يسوغ فيه الاجتهاد فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام؛ لنبين لهم الحق لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم فليس من طريق أهل السنة والجماعة»[3].

---

(١) شرح مسلم، جـ٢، ص٢٤١.

(٢) شرح العقيدة الواسطية، مرجع سابق (المتن).

(٣) شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين، جـ٢، ص٣٣٧ وما بعدها.

ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه، قال الحافظ ابن حجر: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير»[٢].

وهذه الطاعة التي ذكرناها لأولي الأمر ما لم يحصل منهم كفر بواح:

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «بشرط أن لا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، فهذا لا طاعة له، ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين»[٣].

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان**»[٤].

وقال ﷺ: «**إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون؛ فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا؛ ما صلوا**»[٥].

---

(١) فتح الباري ج١٣، ص٩.

(٢) منهاج السنة النبوية ج٢٢، ص٢٤١.

(٣) شرح الواسطية لابن عثيمين جـ٢، ص٣٣٧.

(٤) رواه البخاري ومسلم، البخاري ٩٢، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورًا تنكرونها**». ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم ١٧٠٩.

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم ١٨٥٤، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وقال النووي - رحمه الله - «فيه معنى أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئًا من قواعد الإسلام» شرح مسلم ٤٨٦/٦.

وعلى الإمام وولي الأمر أن يتقي الله في الرعية ويحكم بشرع الله سبحانه ويخدم دين الله تعالى وشريعته وينفذ حدوده على العام والخاص، وأن يقوم بأمور المسلمين ويحرس الدين وينشره، وينفذ الأحكام الشرعية ويوالي المسلمين ويعادى أعداء الدين، وأن يكون أمينًا على المسلمين وعلى دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم ومصالحهم وأمنهم، قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[1].

٦- يجب على الداعي إلى الله سبحانه أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس ويريد لهم الخير والنصح، فيدعوهم إلى شرائع الدين، ويحب لهم ما يحبه لنفسه من الإيمان والهدى.

فالداعي الرحيم لا يكف عن دعوته ولا يسأم من الرد والإعراض؛ لأنه يعلم خطورة عاقبة المعرضين العصاة وهو يعلم أن إعراضهم بسبب جهلهم، فهو لا ينفك عن إقناعهم وإرشادهم.

وهو حليم بهم رحيم محب لهم، شفيق عليهم وله في ذلك قدوة في رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار**- أو بمن تحرم عليه النار؟ - **تحرم على كل قريب هين لين سهل**»[3].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان رقم ١٤٢، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق ٢/٢٥٩ وأبو داود وأحمد وابن ماجه.

(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٥).

وهكذا كان الأنبياء جميعًا رحماء بمن أرسلوا إليهم مشفقين عليهم من العذاب[1].

قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فقوله عليه السلام: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يصدر إلا عن قلب رحيم وشفقة ظاهرة عليهم.

وكذلك قوله عليه السلام وقد رموه بالضلالة: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٣].

فجواب نوح عليه السلام مشحون بالرحمة والشفقة عليهم واللطف في مخاطبتهم ولم يغضبه كلامهم؛ لأنهم قوم يجهلون ولأن الداعي الرحيم لا يغضب لنفسه قط.

وهكذا كان سلوك هذا النبي الكريم مع قومه وكانوا كفارًا مشركين، فكيف بالداعية إذا كان قومه مسلمين؟!!

ولقد كان النبي ﷺ لا يغضب لنفسه من الناس أبدًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»[2].

---

(١) راجع أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، ص٣٥٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم (البخاري ٦/ ح٣١٤٩/ فتح، ومسلم ٢/ زكاة ٧٣٠، ح ١٢٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ضربه قوم فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

والرحمة تهون على الداعي ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجهالة؛ لأنه ينظر إليهم من مستوى عال رفيع أوصله إليه إيمانه بربه وصلته به، ولذا فهو ينظر إليهم كصغار يعبثون، والشأن في الصغار العبث والجهل وعدم الإدراك لما ينفعهم؛ ولذلك لا يعجب الداعي من مقابلة نصحه لهم بالإعراض والصدود والأذى، ولكنه يعيد الكرة عليهم ومعهم ويتحمل أذاهم ويدعو لهم بالهداية[2].

٧- على الداعي إلى الله سبحانه أن يعفو وأن يغفر وأن يسامح وأن يتصف بالحكمة في المعاملة مع الناس ومع المجتمع الذي هو فيه، وأن يقيس المصلحة والمفسدة في كل عمل يعمله حتى وإن كان عمل خير أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر.

ذكر ابن الجوزي عن ميمون بن مهران أنه قال: سمعت ابن عباس يقول: «ما بلغني عن أخ مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به، هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرض الله واسعة»[3].

وعن حميد الطويل عن أبي قلابة قال: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[4].

(١) متفق عليه، البخاري (٦/ح ٣٤٧٧/ فتح)، ومسلم (٣/ جهاد/ ١٤١٧/ ح١٠٥).
(٢) أصول الدعوة - مرجع سابق - ص٣٥٦.
(٣) صفة الصفوة ٢٣٨/٣.
(٤) أين نحن من أخلاق السلف، ص١١٧.

وعن ابن المديني قال: سمعت سفيان يقول: كان ابن عياش يقع في عمر بن ذر ويشتمه، فلقيه عمر فقال: يا هذا لا تفرط في شتمنا وأبق للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه[1].

وقال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟!![2].

وقال ابن السماك ـ لما قال له صديق له: الميعاد بيني وبينك غدًا لنتعاتب ـ قال له: بل بيني وبينك غدًا لنتغافر.

وفي الحقيقة جواب ابن السماك يأخذ بمجامع القلوب، ملؤه فقه وواقعية يشير إلى وجود قلب وراء هذا اللسان يلدغه واقع المسلمين وتؤلمه أسباب تفرقهم، فلماذا التعاتب المكفهر بين الإخوة؟ كل منهم يطلب من صاحبه أن يكون معصومًا؟ أليس التغافر أولى وأطهر وأبرد للقلب؟ أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته: رب اغفر لي ولأخي هذا، ثم تضمر في قلبك أنك قد غفرت له تقصيره تجاهك؟ أوليس عبوس التعاتب تعكيرًا تصطاد الفتن فيه كيف تشاء؟ بلى والله[3].

أما عن الحكمة في معاملة الناس والمجتمع:

فالدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، وتظهر الحكمة في معرفة المناسب لكل مجتمع من أساليب الدعوة مما يتلاءم مع عاداته وصفاته وأحواله، وكذلك المناسب من الدعوة لكل فئة من الناس، والداعية الحكيم لا يقول كل ما يعرف لكل من يعرف، وهو يتعامل مع العقول حسب مقدرتها لا حسب مقدرته ولا يحملها فوق طاقتها.

---

(١) نفس المرجع ص١١٨.
(٢) نفس المرجع ص١١٨.
(٣) العوائق، الراشد ص١٢٩.

وقد دعا النبي ﷺ لعبد الله بن عباس فقال: «**اللهم علمه الحكمة**»[١]، وقد فهم ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ فقال: «كونوا حكماء فقهاء».

وقال الحافظ: والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره[٢]. والبدء بصغار العلم مرجعه مراعاة العقول حتى لا تنفر من الدعوة، قال الحافظ: والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دق منها.

قال البخاري رحمه الله: «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**يا عائشة لولا أن قومك حديثٌ عهدهم لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس وباب يخرجون**»، قال ابن الزبير: «حديث عهدهم» يعني بكفر، قال ابن حجر: «ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة»[٣].

فالحكمة إذن تكون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضًا، وللأسف فإن كثيرًا من الدعاة إلى الله يفتقرون الحكمة في التعامل مع مجتمعاتهم ودعوتها.

وعلى المعلمين والمربين بيان معاني الحكمة لطلبتهم وللمدعوين، وعليهم أن يعلموهم اجتناب خوارم الحكمة وموانعها وهي كالتالي ـ باختصار ـ:

١ - الهوى وعدم التجرد:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

---

(١) رواه البخاري ٣٧٥٦.

(٢) فتح الباري ١/ ١٦٠.

(٣) فتح الباري ١/ ٢٢٤، ٢٢٥.

٢- الجهل:

قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣- الاستدلال بالأدلة في غير موضعها أو الأخذ بظاهر النص دون فهمه.

٤- الاعتداد بالنفس وعدم مشاورة الأكثر خبرة وتجربة وعلمًا[(١)].

٥- العجلة وعدم ضبط النفس والحماس الزائد غير الموجه ولا المتعقل.

٦- عدم إتقان قاعدة المصالح والمفاسد:

وهذا يؤدي إلى تقديم جلب المصلحة على دفع المفسدة ويؤدي إلى دفع المفسدة الصغرى بالكبرى، وجلب المصلحة الدنيا وترك العليا، وليس الحكيم هو من يعرف الخير من الشر ولكن الحكيم من يعرف خير الخيرين وشر الشرين[(٢)].

وعلى المربي أن يعلم المدعوين الفروق بين المعاني التي تم الخلط[(٣)] فيها مثل:

- الخلط بين القوة وبين العنف والغلظة.
- الخلط بين الرفق وبين الضعف.
- الخلط بين المداراة وبين المداهنة.
- الخلط بين النصيحة وبين التشهير والتأنيب.
- الخلط بين الحكمة وبين القعود والسكوت عن الحق.
- الخلط بين الحلم وبين البرود والخمول والكسل.

---

(١) فالحكمة إذن تستدعي استشارة أهل العلم والأثبات الناصحين والانطلاق من فتواهم المقبولة المعتبرة، وكم رأينا من بلية سببها التعالم أو إهمال رأي العلماء!!.

(٢) الحكمة، د. ناصر سليمان العمر، ص٥٩.

(٣) الحكمة، مرجع سابق، ص٦١.

رابعًا: استبدال تصور العدل بدلاً من تصور المساواة:

فإنه قد انتشر في المجتمعات تصور المساواة وفكرة المساواة بين جميع الناس، وبنى عليها الغربيون قوانين ومبادئ كثيرة، واستعملها اليهود وأذنابهم عبر الأفكار الماسونية ونوادي هذه الأفكار المنتشرة في جميع نواحي الأرض؛ استعملوها للتشكيك في الإسلام ولتغيير قواعده ومبادئه، والمقصود بها أن يتساوى الناس كل الناس في شتى الحقوق، وهي فكرة لأول وهلة قد تبدو سليمة صحيحة، إلا أن الباحث فيها ليعلم مدى خبثها، حتى لدرجة أنها قد راجت على كثير من أبناء الإسلام، فهم يتكلمون بها وينشرونها.

ولقد أخطأ على الإسلام من قال: إن دين الإسلام دين المساواة، بل دين الإسلام هو دين العدل، وفرق كبير بين العدل والمساواة:

فإن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمة التفريق بينهما، ومن أجل ذلك صار دعاة المساواة يقولون بآراء غريبة على الإسلام فمنها:

- عدم التفريق بين الذكر والأنثى في الميراث بدعوى المساواة.
- عدم التفريق في حق القوامة في منزل الزوجية بين الرجل وامرأته، بدعوى المساواة.
- إسقاط حقوق الوالد على ولده بدعوى المساواة.
- إباحة الشذوذ والمثلية الجنسية بدعوى المساواة.
- إسقاط حق المسلم في دولة الإسلام ومساواته بالكافر والمرتد بدعوى المساواة.
- عدم الإنكار على أي سلوك بذيء أو خارج أو فاضح أو منكر بدعوى المساواة.
- عدم الإنكار على من تجرأ على الإسلام أو النبي ﷺ أو القرآن بدعوى المساواة.

إلى غير ذلك من الويلات والمصائب التي تسببت فيها هذه الدعوى.

هذا ولم يأت في القرآن أبدًا إن الله يأمر بالتسوية، لكن جاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال النبي ﷺ: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»[1].

قال سبحانه: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥].

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ ﴾ [الحديد: ١٠].

قال في شرح الواسطية: «ولم يأت حرف واحد في القرآن يأمر بالمساواة أبدًا إنما يأمر بالعدل»[2].

والإسلام بدعوته للعدل يعطي كل ذي حق حقه المناسب له والمقدر له من عند خالقه سبحانه وتعالى، وهو سبحانه أعلم بخلقه وبما يصلحهم، وإنما لجأ الغربيون إلى تلك المعاني الأخرى لخواء قيمهم ومبادئهم من مثل هذا التشريع العظيم التام الكامل الصالح لكل زمان ومكان، قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ

(١) رواه البخاري، رقم ٢٤٤٧، باب الإشهاد في الهبة، ومسلم رقم ١٦٢٣، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة عن النعمان بن بشير.

(٢) شرح الواسطية، مرجع سابق ١/٢٢٩.

وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وقال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[المائدة: ٤٩، ٥٠].

خامسًا: استبدال تصور الهوية الإسلامية بدلاً من تصور انعدام الهوية:

والهوية[1] هي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، فهي ماهيته وما يوصف به من صفات، والهوية هي المفهوم الذي يكونه الفرد عن سلوكه وفكره اللذين يصدران عنه من حيث مرجعهما الاعتقادي والاجتماعي أو هي بعبارة أخرى: تعريف الإنسان نفسه عقيدة وانتماء وفكرًا وثقافة وأسلوب حياة، وكما أن للفرد هوية فكذلك للمجتمع هوية مستقلة يتميز بها عن غيرها، وكلما توافقت هوية الفرد مع هوية المجتمع كلما تعمق إحساسه بالانتماء له واعتزازه به وانتصاره له، أما إذا تصادمتا فهنا تكون أزمة «الاغتراب».

وإذا فقدت الهوية داخل المجتمع تشتت المجتمع وتنازعته التناقضات؛ لأن الهوية بالنسبة للمجتمع هي الواحة النفسية التي يلوذ بها أفراده والحصن الذي يتحصنون بداخله.

---

(١) راجع (هويتنا أو الهاوية) محاضرة للشيخ محمد إسماعيل المقدم، و«التغريب» محاضرة للشيخ ناصر سليمان العمر، و«مع الرعيل الأول» لمحب الدين الخطيب، و«المفترون» خطاب التطرف العلماني في الميزان لفهمي هويدي.

والهوية تقوم على أسس أصيلة لا تستغني عنها أي هوية: وهي العقيدة والتاريخ واللغة والقيم والمبادئ.

وفي الواقع فإن الهوية الإسلامية إذا نظرنا إليها لوجدناها مستوفية لكل مقومات الهوية الذاتية المستقلة بحيث تستغني تمامًا عن أي لقاح أجنبي عنها.

هوية المسلم عقيدته :

إن العقيدة الإسلامية التوحيدية هي أهم الثوابت في هوية المسلم وشخصيته وهي أشرف وأعلى وأسمى هوية يمكن أن يتصف بها الإنسان، قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]

والانضواء تحت (الهوية الإسلامية) ليس أمرًا اختياريًا ولا مستحبًا، ولكنه فرض متعين على كل بني آدم المكلفين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[1].

إن عقيدة المؤمن هي وطنه وقومه وأهله، ولذلك فالناس يجتمعون عليها وحدها لا يجتمعون على المرعى والكلأ كما يجتمع البهائم.

وهوية المسلم الإسلامية لا تعارض شعوره الفطري بحب الوطن الذي ينتمي إليه، ولا الحرص على الخير لهذا الوطن، بل المسلمون الصادقون هم أصدق

---

(١) رواه مسلم، رقم ١٥٣ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الناس وطنية، والوطن الحقيقي للمسلم هو الجنة، ونحن في هذه الدنيا منفيون عن هذا الوطن، ساعون في العودة إليه، والمنهج الإسلامي هو الخريطة التي ترسم لنا طريق العودة، وأما في الدنيا فأحب الأوطان إلى المؤمن مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، فمحبتنا لهذه البقاع التي اختارها الله وباركها وأحبها فوق محبتنا لأي مكان آخر. وأما ما عدا هذه البلاد المقدسة فإن الإسلام هو وطننا وأهلنا وعشيرتنا[١].

من مظاهر أزمة الهوية:

يقول محمد إسماعيل المقدم: «يمكنك أن تراها في الشباب الذي يعلق علم أمريكا في عنقه وفي سيارته، وفي الشباب الذي يتهافت على تقليد الغربيين في مظهرهم ومخبرهم، وفي المسلمين الذين يتخلون عن جنسية بلادهم الإسلامية ـ بغير عذر ملجئ ـ ثم يفتخرون بالفوز بجنسية البلاد الكافرة، وفي المذيع المسلم الذي يعمل بوقًا لإذاعة معادية لدينه من أجل حفنة دولارات أو جنيهات، وفي الجاسوس والعميل الذي يخون أمته ويبيع وطنه، وفي تاجر المخدرات الذي لا يبالي ـ في سبيل تحصيل المال ـ بتحطيم شباب المسلمين ونسفهم نسفًا، وفي «أستاذ الجامعة» الذي يُسبح بحمد الغرب صباح مساء، وفي مدعي الإسلامي الذي يقبل الانتظام في جيوش الدول الكافرة المحاربة لأمة الإسلام، وفي كل ببغاء مقلد يلغي شخصيته ويرى بعيون الآخرين ويسمع بآذانهم، وباختصار: يسحق ذاته ليكون جزءًا من هؤلاء الآخرين ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾.. ثم قال:

«إن نظرة إلى الحيز الإعلامي الذي شغله موت «أميرة ويلز» في كل أرجاء العالم المنتسب إلى الهوية الإسلامية وما صاحبه من الطقوس الكنسية وبين الحيز

(١) هويتنا أو الهاوية، ص ١٩، دار الصفوة.

الذي شغله موت العلامة الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - في نفس الفترة - على سبيل المثال - يكشف لنا مدى «أزمة الهوية» في عصرنا».

وقد يتبجح البعض - إذا تأثر بالمجتمعات الغربية غير الإسلامية - بحب المدنية والتقدم.

يقول الرافعي: «ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ، فهذا سهل ميسور، ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله بعد...»[1].

وإن سيد المصلحين وأفضل رسل الله أجمعين هو صاحب الرسالة الوحيدة التي تولى الله حفظها وتكفل بالخلود لكتابها وحاط مبادئها وسننها وأحكامها وأهدافها بحياطة الصمدانية، وأقامها بين أيدي البشر غضة سليمة كأن نبرات صوته الشريف تنطق بنصوصها وحروفها في كل حين، فتبهر الناس بكمالها الذي لا يدركه كمال[2].

وهل في استطاعة إنسان أن يأتي بدور من الأدوار كان فيه الدين الإسلامي مغايرًا للمدينة والتقدم؟!! إن الإسلام هو دين المدنية والعلم والتقدم والتطور في كل شيء إلا في معصية الرب سبحانه وتعالى، وإنما أذناب الغرب لا يريدون تقدمًا ولا مدنية، إنما يريدون لهوًا ولعبًا وشهوة وفجورًا، وأين هي المدنية وأين هو التقدم في فعل هؤلاء؟ إنهم حتى إذا قلدوا الغرب الكافر لا يقلدونهم فيما نفع من مدنيتهم وتقدمهم وإنما يقلدونهم فيما ضر من لهوهم ومجونهم.

الصراع بين الهوية الإسلامية والعولمة:

إن مشكلة الهوية الإسلامية تكمن في أن أكثر المسلمين لم يقتنعوا أن الأعداء من حولهم على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم لا هدف لهم إلا استئصال شأفة الإسلام

---

(١) مع الرعيل الأول، لمحب الدين الخطيب، ص٩.

(٢) نفس المرجع ص١٠.

وطمس الهوية الإسلامية، وصهرها في أتون العالمية الأممية وإزالتها من الوجود لأنها لا غيرها هي الخطر الماثل أمام القوى الراغبة في احتواء العالم الإسلامي والسيطرة عليه سيطرة فعلية ودائمة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن هويتنا الإسلامية مصدر عزتنا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وحين تمسكنا بها سدنا العالم، وخافت بأسنا الأمم، حتى كانت كنائس أوروبا لا تجرؤ على دق نواقيسها حينما كانت السفن الإسلامية تعبر البحر المتوسط، وحين تخلينا عنها نزع الله من قلوب عدونا المهابة منا وقذف في قلوبنا الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت[١]، قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[٢].

في آخر عام ٦٧ ألقى «أبا إبان» وزير خارجية الدولة اللقيطة محاضرة بجامعة برنستون الأميريكية قال فيها: يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف على نسبه الإسلامي بعد الهزيمة، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل، ولذا كان من أول واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي.

هذا مع أن المجتمع اليهودي في فلسطين يتألف من مهاجرين من نيف ومائة دولة مختلفة، يتكلمون سبعين لغة مختلفة من شتات الأرض، جمعتهم عقيدتهم

---

(١) هويتنا (مرجع سابق) ص٣٧.

(٢) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر برقم ٣٤٦٢، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١١.

الواحدة رغم اختلاف اللغات والألوان والقوميات والعناصر والأوطان، وهذا «أدولف كريمر» اليهودي يعلنها: «جنسيتنا هي دين آبائنا، ونحن لا نعترف بأية قومية أو جنسية أخرى».

قال الأستاذ يوسف العظم: «لقد سمعت وزير إعلام عربيًّا إبان حرب حزيران يقول: دعونا من خالد بن الوليد وصلاح الدين ولا تثيروها حربًا دينية. قال ذلك وهو يعلق على ما يذيعه بعض الدعاة من حث الجند على الثبات وتشجيع للمقاتلين على الجهاد والاستشهاد، فقلت لمن حولي: منهزمون ورب الكعبة!»[1].

أساليب لطمس الهوية الإسلامية:

١- محاولة تجفيف المنابع الإسلامية:

وهي مؤامرة قديمة يحاولون فيها إضعاف العقيدة الإسلامية، وإحلال العقائد والأفكار الأخرى بديلاً عنها، وتشويه العقيدة السلفية الصالحة بعقائد الصوفية الحلولية والقبورية والشيعة والباطنية والاعتزال، كما يحاولون فيها غزو التعليم والمناهج التعليمية وتغييرها وإبعادها عن الوحي الإسلامي العظيم حتى إنهم ليبدءون ابتداءً من العام القادم في بعض بلاد المسلمين من إلغاء المواد الدينية بأجمعها واستبدالها بخليط من مفاهيم مختلفة!!

٢- التغريب:

وهو رفع كل ما هو غربي وكل ما هو غريب عن الإسلام واحترامه وتقديره والاعتزاز به والنظر إليه على أنه النموذج والمثال، وفي الوقت نفسه تنكيس كل ما هو إسلامي واحتقاره والاستهزاء به والخجل منه والنظر إليه على أنه رجعية وتخلف.

---

(١) نقلاً عن: هويتنا أو الهاوية: ص٣٩.

وهو ما يحدث أمام أعيننا ليل نهار وعلى كل وجه وبكل طريقة، ويستخدمون في ذلك أساليب الدعاية والإعلام والقهر والقوة، وعلى الجانب الآخر يمنعون كل إعلام إسلامي ودعاية إسلامية ويعتبرونها إجرامًا وخيانة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإن القلب لينفطر والعين لتبكي دمًا على ذلك، والأكف لتتضرع إلى الله أن يكشف الكربة ويرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٣- إشغال المسلمين بالترفيه واللهو والشهوات:

وذلك عن طريق دعاوى تحرير المرأة ونزع الحجاب وابتكار الموضة من عاري الثياب ودفع المجتمع إلى السطحية في النظر إلى الحقائق، وذلك بزيادة معدلات تعرضه للإعلام الترفيهي مع تقليل الزمن المتاح للتأمل والتفكير، وتشجيع الأغاني والمغنين والأفلام والممثلين والمهرجين وبرامج الترفيه بشتى أنواعها، ورفع شعار الحب بين كل شاب وفتاة، والتهوين من شأن القيم الإسلامية والمبادئ الإسلامية، وتكسير قواعد الآداب العامة التي أمر بها الإسلام، وكثرة الاهتمام بالألعاب الرياضية والمسابقات وغير ذلك من محاولة إشغالهم بالبحث عن المال والغنى والشهرة، إلى غير ذلك مما هو معروف معلوم.

٤- التهوين من شأن القضايا الإسلامية وإهمالها:

فتصور القضايا الإسلامية بصور شتى مخالفة للحقائق الواقعية، فتصور كقضايا قومية أو جغرافية أو سياسية أو أمنية ليتم إهمالها والتهوين من شأنها؛ فقضايا الحجاب يسمونها حرية شخصية، وقضايا التعليم الإسلامي يسمونها تطورًا وتحديثًا، وقضايا الأقليات الإسلامية يسمونها قومية داخلية، وقضايا التنصير يسمونها سماحة ووحدة أديان، حتى قضية فلسطين والمسجد الأقصى الحبيب جعلوها قضية قومية فلسطينية، ولقد سمعنا من أصحاب الأبواق من يرفع صوته قائلاً: ما لنا والقدس؟ لنهتم بقضايانا الداخلية ولا شأن لنا بالمشاكل الأخرى؟! وهو في الحقيقة مأجور موتور، تافه بلا هوية حتى لو سمى نفسه بأسماء المؤمنين!! وشرب من ماء النيل!!

٤- التدرج

يبدأ طريق الالتزام بدين الله عادة عند كل أحد بابتعاث الهمة للتوجه إلى الله سبحانه والتوبة من الذنب، وسؤال الله العون والمغفرة، فماذا يفعل المعلم والمربي بهؤلاء الراغبين في الإقبال على الله سبحانه؟!

للجواب على هذا السؤال ينبغي أن ننظر إلى المراحل التي ينبغي أن يسلكها المعلم مع هؤلاء الراغبين في الالتزام بدين الله سبحانه، وخصائص وسمات كل مرحلة من المراحل ودور المعلم فيها.

المرحلة الأولى

وهي أهم المراحل على الإطلاق ففيها توضع المبادئ الأولى للفرد المسلم والتصورات، وترسخ القيم والسلوكيات، وتبنى العلاقة الإيمانية بين المسلم وبين ربه سبحانه، وقد سبق أن بينا خطأ إسناد المراحل الأولى من التربية لمربين ومعلمين مبتدئين، وما ينجم عنه من سلبيات كبيرة، وسنضع بين يدي القارئ مجموعة سمات لهذه المرحلة تصفها وتوضح المراد منها:

سمات وخصائص المرحلة الأولى من التربية القلبية الإيمانية:

أولاً: توثيق الصلة بالله سبحانه:

وهو أول ما يوجه إليه المسلم نفسه ويوجهه إليه معلمه في هذه المرحلة، وينبغي أن يكون نصب عين الإنسان ومربيه ومعلمه، وينبغي أن يكون ذلك هو الموضوع الغالب على جميع المحادثات واللقاءات والتوجيهات والبرامج سواء كانت علمية أو عملية.

وقد يجد المعلم مشقة في إتمام هذا الأمر في المرحلة الأولى، ولكن ليعلم أن توثيق الصلة بالله سبحانه هو هدف الدعوة الكبير الذي لا ينتهي بانتهاء مرحلة ولكنه هنا هو الغالب على هذه المرحلة، فمن أجل ذلك نبين القول فيه، ولتوثيق الصلة بالله سبحانه يركز له على المفاهيم الآتية:

١- التوبة والاستغفار والإكثار منها مع تذكر تقصيره في حق ربه سبحانه وكثرة ذنبه[1].

٢- فقره إلى ربه سبحانه وحاجته إلى عبادته دائمًا وعدم استغنائه عنه سبحانه طرفة عين، وأن حاجته إلى توحيد ربه والإيمان به أشد من حاجته إلى طعامه وشرابه وتنفسه.

٣- تصحيح النية دائمًا في كل عمل من الأعمال وفي كل سلوك من السلوكيات.

٤- الارتباط بالقرآن الكريم قراءة وحفظًا وتطبيقًا.

٥- الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى.

٦- التخويف من المعاصي والذنوب والابتعاد عنها بكل الطرق.

٧- توقير الله سبحانه وتعالى وتعظيمه وإجلاله.

٨- الارتباط بالدعاء في كل وقت.

٩- الإكثار من الوضوء والحرص على الطهارة المستمرة.

١٠- الارتباط بالتوكل على الله سبحانه وتعالى والاستعانة به.

١١- تطهير القلب لكل مسلم.

١٢- مفهوم طاعة الله سبحانه وطاعة النبي ﷺ.

١٣- مفهوم محاسبة النفس وتأديبها وتقويمها.

---

(١) وانظر فصل وسائل التربية القلبية، التوبة (من هذا البحث).

١٤- الخشوع والإخبات والخوف من الله سبحانه.

١٥- مفهوم الفرار إلى الله سبحانه.

١٦- السعي للجنة وإحياء معنى ذلك في القلب، والهروب من النار وإحياء معنى ذلك في القلب.

١٧- الحرص على أداء الفرائض وعدم التفريط فيها.

١٨- مفهوم حب الله وحب رسوله وحب الإسلام، ومفهوم الانتماء للإسلام.

١٩- الارتباط بالحديث النبوي الشريف ومعانيه.

٢٠- معاني العبادات والشعور بلذة العبادة.

٢١- غض البصر.

وهذه المفاهيم والموضوعات يقوم المعلم بتدريسها وتعليمها من خلال بحث مفصل في كل موضوع على حدة، مستدلاً بالآيات والأحاديث وكلام العلماء، ومستعينًا بطرق التدريس السابق ذكرها.

وإذا تعذر وجود معلم للتدريس فعلى الفرد المسلم في مرحلته الأولى أن يحاول أن يقرأ في تلك الموضوعات ويعيد القراءة أكثر من مرة ومن أكثر من مصدر معتبر، حتى يتشرب فهم الموضوعات ويطبق ما فهمه.

ثانيًا: تعديل السلوك والأخلاق:

فهي مرحلة يتم فيها تعديل السلوك والأخلاق من سلوك وأخلاق غير سليمة إلى سلوك وأخلاق إسلامية سليمة، وفي هذا الموضوع يتم دراسة المفاهيم الآتية:

١- أخلاق النبي ﷺ والاقتداء به.

٢- التواضع للخلق وعدم التكبر عليهم.

٣- الصدق في جميع الأقوال وترك الكذب.

٤- البشاشة والتبسم وترك العبوس والتجهم.

٥- الحلم وكظم الغيظ وعدم الغضب.

٦- آفات اللسان وضررها مع التركيز على «الغيبة» وضررها.

٧- انتقاء الكلام الحسن كما ينتقي أطايب التمر.

٨- العفو والصفح والمغفرة ودفع السيئة بالحسنة.

٩- خفض الصوت وقلة الكلام وحفظ السر.

١٠- الأدب مع أهل العلم والفضل وكبير السن.

١١- الوفاء بالعهد وبالوعد.

١٢- الوقار والسكينة.

١٣- الكرم والجود والسخاء.

١٤- الإقبال على الناس وإفشاء السلام والتعارف والتحبب.

١٥- السعي في خدمات المسلمين وقضاء حوائجهم.

١٦- أهمية الاهتمام بالهدي الظاهر، وبدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب.

وينبغي أن يعلم المربي أن مسألة تعديل السلوك من المسائل الصعبة جدًا؛ حيث إنه لا يكفي فيها بحال مجرد التدريس والوعظ وقراءة الموضوعات أو استماعها، ولكنها عملية تخضع لمجموعة من الخطوات المتتالية المتشابكة، تبدأ بتعليم المادة النظرية للموضوع عن طريق بيان الأمر القرآني والنبوي فيها، ثم طريقة السلف والعلماء في تطبيقهم لها.

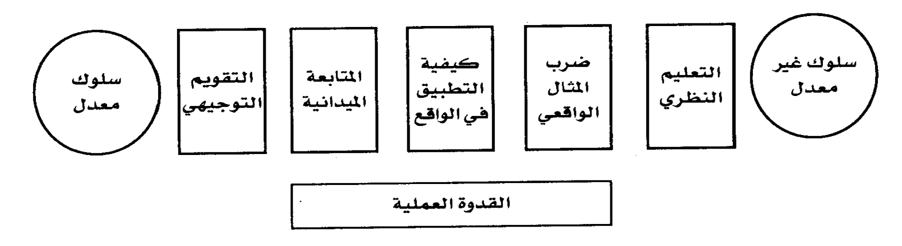
ثم تأتي الخطوة التالية في ضرب الأمثلة الواقعية لمن اتصفوا بالصفات الحميدة وبنقضائهم الذين اتصفوا بالصفات الذميمة.

ثم تأتي الخطوة الثالثة في بيان كيفية تطبيق هذه الأخلاق والسلوكيات في المواقف المختلفة مع ضرب الأمثلة الواقعية في الحالات المختلفة.

ثم تأتي الخطوة الرابعة في المتابعة في المواقف المختلفة وكيفية تعامل الأفراد معها بعد تعليمهم.

ثم تأتي الخطوة الخامسة في تقويم هذه السلوكيات بعد المتابعة ورؤية الخلل ومعرفة نقاط الضعف ونقاط القوة.

وفي أثناء كل هذه الخطوات يقوم المعلم بوصف السلوك عمليًا عن طريق كونه قدوة في ذلك السلوك؛ فالمتعلمون يستمعون وصف السلوك الأخلاقي وأمامهم نموذج حي يطبق هذا السلوك هو المعلم والمربي...



ثالثًا: تعديل الأفكار والتصورات:

وفي هذه المرحلة الأولى أيضًا يتم القيام بعملية تعديل للفكر والتصور، من فكر وتصور غير سليم إلى تصور إسلامي سليم محكوم بأحكام الشرع وقيمه ومبادئه وأفكاره، لذا فيتم توجيه الفرد المسلم نحو المفاهيم الإسلامية الآتية:

١- نظرة الإسلام إلى الدنيا وطريقة النبي ﷺ في نظرته إليها.

٢- العقيدة الإسلامية هي عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالحين.

٣- فهم الكتاب والسنة لابد أن يكون حسب فهم الصحابة والتابعين وعلماء السلف الصالح.

٤- وجوب الالتزام بالسنة وحرمة ترك الالتزام بها والاكتفاء بالقرآن.

٥- الإسلام دين المحبة والمودة والرحمة والشفقة واليسر والبشارة لكل العالمين.

٦- الحكمة في التصرف والسلوك وتوجيه الحماس إلى النافع من الأعمال.

٧- الحياة بالعقيدة الإسلامية في كل نواحي الحياة.

٨- بيان مقام العلم وفضله ومقام الجهل وضرره.

٩- دراسة كلام (ربعي بن عامر) رضي الله عنه: «لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

١٠- دراسة سيرة النبي ﷺ دراسة تفصيلية دقيقة، والوقوف عند كل موقف، واتخاذ الدروس والعبر منه[1].

١١- الاهتمام بأمر المسلمين وحمل هم الإسلام.

وتعديل الفكر المقصود في هذه المرحلة هو التعديل إلى الفكر الإسلامي كما سبق بما يحتوي على أهداف ومبادئ وقيم ووسائل ومناهج:

فيوجه المسلم في هدفه من هدف دنيوي زائل إلى هدف عالٍ سامٍ هو إرضاء الله سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته.

ويوجه في مبادئه وقيمه من مبادئ مادية لا أخلاقية إلى مبادئ روحانية أخلاقية محترمة رفيعة فاضلة.

ويوجه من وسائل سفلية مادية تبررها الغايات إلى وسائل فوقية شرعية يرضاها الله سبحانه.

---

(١) وننصح في دراسة السيرة بالكتب الآتية:
١- السيرة دروس وعبر للسباعي.
٢- الرحيق المختوم للمباركفوري.
٣- تهذيب سيرة ابن هشام (أو السيرة الحلبية).
٤- وقفات مع السيرة النبوية لأحمد فريد.

ويوجه من مناهج أرضية وضعها الناس إلى منهاج الله الواحد القهار.

المنهج العلمي المقترح في المرحلة الأولى:

١ - دراسة تجويد القرآن وكيفية قراءته.

٢ - حفظ ثمانية أجزاء على الأقل من القرآن الكريم.

٣ - دراسة تفسير الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن.

٤ - دراسة كتاب الأربعين النووية للإمام النووي (أو ما يقوم مقامه).

٥ - دراسة أبواب الرقائق من الصحيحين (أو ما يقوم مقامها).

٦ - دراسة سيرة النبي ﷺ كاملة.

٧ - دراسة كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب مع شرحه.

٨ - دراسة سلسلة العقيدة للدكتور الأشقر (أو ما يقوم مقامها).

٩ - دراسة تراجم الصحابة والتابعين والعلماء من الكتب المختلفة.

١٠ - دراسة كتاب إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم، وكتاب الداء والدواء له.

١١ - قراءة كتب الرقائق المختلفة كتهذيب موعظة المؤمنين للقاسمي، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، وما سار على نهجها من الكتابات الحديثة.

١٢ - دراسة فقهية مبسطة للعبادات والمعاملات.

١٣ - دراسة مبسطة لعلم مصطلح الحديث.

١٤ - قراءة في موضوع: علو همة الصالحين في العلم والعمل والعبادة والجهاد.

١٥ - دراسة مقدمة في اللغة العربية.

١٦ - دراسة مقدمة في التاريخ الإسلامي.

رابعًا: خطوات عملية في المرحلة الأولى لتطهير القلب والقرب من الله سبحانه:

- عقد المقارنات المستمرة بين الدنيا والآخرة وبين متاع الحياة ومتاع الجنة.
- ضرب الأمثلة الدائمة بأبطال الإسلام وقادته وعظمائه رضي الله عنهم ورحمهم الله[١].
- الأمر بأهمية التبكير إلى الصلاة وأهمية ختم الصلاة وإعطاء ذلك أهمية مناسبة.
- الأمر بالإكثار من الاستغفار بقول: «أستغفر الله» ومتابعة ذلك.
- التدريب والمتابعة في موضوع أذكار الصباح والمساء.
- التدريب على حفظ أحاديث الدعوات للنبي ﷺ والدعاء بها.
- الأمر بالمحاسبة اليومية الذاتية قبل التوجه إلى النوم والوقوف على الأخطاء.
- الأمر بنبذ الشرك بجميع علاماته، والإقبال على التوحيد بجميع سلوكياته.
- التعود على الورد اليومي والأمر به، وأهمية متابعة الاستمرار عليه، وهو ورد من القرآن الكريم ومن قراءة حديث النبي ﷺ[٢].
- متابعة شئون الفرد المسلم طالب العلم الشخصية، وتوجيهه إلى الاهتمام بدراسته والتفوق فيها وتحسين النية في ذلك، وجعلها لخدمة الإسلام، وكذلك تشجيع كل صاحب مهنة أو وظيفة أو تجارة أن يتميز فيها وينجح، ومساعدته في ذلك، وتوجيهه للاهتمام بعمله وبتحسين صورة الإسلام وبالالتزام بالأحكام والأخلاق الإسلامية في عمله والمتابعة والتوجيه في ذلك.

---

(١) ويحسن دراسة كتب التراجم للصحابة والتابعين وصور حياتهم.

(٢) ونحن نرشح كتاب رياض الصالحين للنووي رحمه الله للقراءة اليومية في حديث رسول الله ﷺ. ثم نرشح من بعده قراءة الكتب الستة في حديث رسول الله ﷺ بتصحيحات الألباني رحمه الله.

- التوجيه نحو الإنجاز والإيجابية والجدية في كل عمل يتولى الإنسان عمله مقتديًا بأمر النبي ﷺ بأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.
- التوجيه نحو الرجولة وصفاتها والمروءة وسماتها والفروسية وعلاماتها، ولتكن أخلاق طالب العلم المسلم هي أخلاق الفارس المسلم.
- الأمر بالانتظام في صلاة الجماعة وحضورها قبل الوقت، والتركيز على حضور صلاة الفجر.
- توجيه الفرد نحو التعود على النوم مبكرًا والاستيقاظ مع صلاة الصبح.
- توجيه الفرد نحو اختيار الصحبة الحسنة الخيرة الخلوقة المؤمنة.
- استغلال الشريط الإسلامي في توصيل المفاهيم السابق ذكرها.
- مراعاة عدم اصطدام الفرد مع والديه وإخوته، بل يؤمر الفرد بأن يحسن معاملة والديه ويزيد في إحسانه لمعاملتهم ومعاملة إخوانه وأقربائه كلما اقترب من ربه وكلما ازداد علمًا، ويُعلَّم منزلة طاعة الوالدين والإحسان إليهما.
- مراعاة عدم تشويه صور العلماء المسلمين والشخصيات التي يراها الفرد شهيرة وكبيرة حتى ولو كان عليها ملاحظات أو كانت واقعة في أخطاء، ما دامت هذه الأخطاء ليست كبيرة، ولكن ليراع المربي في ذلك التدرج في تفهيم الفرد الأخطاء خطوة بخطوة مع تعليمه الأدب مع أهل العلم والفضل.
- توجيه الفرد نحو قراءة الفضائل والثوابات والمكرمات من الأحاديث والآثار، ويراعى تحري الصحيح من الحديث والأثر.
- تنبيه المسلم إلى التخلص من حقوق العباد وأداء مظالمهم.
- الربط بالمسجد وتبيين معنى قول النبي ﷺ: **«ورجل قلبه معلق بالمساجد»**، وكذلك معنى قوله ﷺ: **«وانتظار الصلاة بعد الصلاة»**.



• التنبيه على دوام الوضوء والطهارة.

• الأمر بغض البصر عن النساء، والتنبيه إلى أحكام العلاقات بين الرجل والمرأة، وبيان أهمية ذلك الأمر وفضله.

• توجيه المسلم نحو الإقبال على مجالس الذكر[١] وإعراضه عن مجالس اللهو.

• التنبيه على مخاطر «التليفزيون» وأضراره[٢].

• تشجيع الفرد أن يحيا حياته الطبيعية ولا يغترب عن الناس ولا ينطوي عنهم ولا يحتجب ولا يتقوقع عن أصحابه والمجتمع الذي يعيش فيه، وأن يقبل على الحياة الإسلامية السعيدة، وأن يجعل يومه كله يومًا إسلاميًا سعيدًا، وأن يستمتع بالمتاع المباح وبالطيبات من المأكل والمشرب والأفعال والأقوال، وليحذر من التشدد والتعسير على نفسه وعلى الناس، وليلزم التبسط والتيسير على نفسه وعلى الناس، ما دام في حدود المباح في شريعة الله.

• توجيه المسلم إلى إحسان معاملة زوجته، وتأدية جميع حقوقها وعدم إهمالها، والاهتمام بها وتعليمها وأمرها بالحجاب والاحتشام والصلاة والإيمان والعمل الصالح، وإحسان الكلام لها، والبشاشة في وجهها وعدم التقبيح وعدم الإيذاء، وإبداء الثقة ونزع سوء الظن وتقديم الهدية لها، والتحبب إليها والتودد وذكر محاسنها لها، وغض الطرف ومنع اللسان عن مساوئها وأخطائها، والتعاهد معها دائمًا على العمل الصالح والتوبة المستمرة ورغبة اللقاء في الجنة.

---

(١) وهو كل مجلس يُذكر الله تعالى فيه بطريقة سنية صحيحة كمجالس العلم والفقه والحديث والمحاضرات الإسلامية وحلقات القرآن ومثالها، أو المكث في المساجد للتسبيح والتحميد والتكبير.

(٢) وأنصح في ذلك بقراءة رسالة «الإجهاز على التلفاز» للشيخ محمد إسماعيل المقدم حفظه الله.

- الاهتمام بأموره الشخصية ومشكلاته الذاتية، فإنها أحد مفاتيح فهم شخصيته والتعامل معها.
- البدء بتعليمه صغار العلم قبل كباره، والأصول قبل الفروع، والعقيدة قبل غيرها.
- التأكيد على موضوعات الرقائق والترغيب والترهيب[١].
- يتعلم المسلم في هذه المرحلة أخذ العلم والخير والنصح من كل الناس، ولا يتكبر على ذلك أبدًا، وليبدأ بأخذ العلم ممن هو أورع وأعلم، فإن لم يجد فليأخذ ممن هو أورع، فإن لم يجد فيأخذ ممن هو أعلم، فإن لم يجد فيتساوى الناس إلا من قام بالعبادة وأحسنها واجتهد في تحصيل العلم واشتهر عنه حسن السمت والخلق.

علامات النجاح في المرحلة الأولى:

إذا تمت المرحلة الأولى بنجاح فإنه يكون قد خرج إلينا منها الفرد المسلم الوثيق العلاقة بربه، حسن السمت والخلق، صاحب الأهداف الإسلامية والمبادئ الإسلامية والوسائل الإسلامية، يحمل هم الإسلام، ناجح في عمله، كثير الإنجاز في حياته، إيجابي في سلوكه، محب للعلم مقبل عليه، عقيدته سلفية صحيحة، وتوحيده خالص بلا شائبة، يعلم حق ربه وحق نبيه وحق دينه، فإذا تحقق ذلك فقد عبر المرحلة الأولى بنجاح، وإذا تعثر فإنه لا يزال فيها ولم يعبرها.

وهاك بعض علامات النجاح في المرحلة الأولى:

- كثرة ذكر الله سبحانه وتخصيصه وقتًا في كل يوم للذكر.
- محافظته على فرائض العبادات وأداؤه للنوافل والإكثار منها.

---

(١) وننصح بقراءة كتاب الترغيب والترهيب للمنذري بتصحيح الألباني رحمهم الله جميعًا.

- تجنبه كل شبهات الشرك ولو في الكلام، ومحاولة تطبيقه لكلمة التوحيد خالصة وقيامه بالتوحيد حق قيام.
- حزنه على ما يصيب الدين من ضراء، وفرحه لما يصيبه من سراء في أي مكان في الأرض.
- كثرة محبيه وقلة مبغضيه في الله.
- توسع دائرة معارفه وعلاقاته الإيجابية.
- تحصيله القدر الكبير من القرآن الكريم (وقد يكرم الله البعض بتمام حفظه).
- تحريه الحلال في كل طعام وشراب وتجنبه الحرام.
- التزامه بالهدي الظاهر في سلوكه وسمته.
- شهادة الناس له بحسن المعاملة في شتى أمور الحياة.
- إقباله على سنة النبي ﷺ، وحبه لحديث النبي ﷺ، وكثرة قراءته.
- انتهاؤه من المناهج العلمية التي بدأ فيها وحسن استيعابها.
- عودته في كل شئونه التي يجهلها إلى معلمه ليسأله ويوجهه.
- انتماؤه العاطفي والنفسي للدين الإسلامي والصف الإسلامي والعمل الإسلامي.
- تحسن أخلاقه بصورة ملحوظة وكبيرة.

وليس هناك وقت محدد لهذه المرحلة، ولكن متى تحققت الخصائص وظهرت العلامات واستوعبت المناهج فقد انتهت المرحلة، وما لم تتحقق خصائص المرحلة أو لم تظهر علامات النجاح ولم تستوعب المناهج العلمية فإن المرحلة ما زالت قائمة ولو ظلت عشر سنين.

المرحلة الثانية

وهي أطول المراحل زمنًا وأكثرها عملاً ومجهودًا، وهي مرحلة تحصيل العلم والاهتمام بإصلاح النفس والاهتمام بشئون الدعوة الإسلامية، وينبغي أن يتم التركيز فيها على تلك النقاط الثلاث السابقة تركيزًا كبيرًا لأنها بالنسبة لحياة الإنسان كالجذع بالنسبة إلى الشجرة يقوم به قوامها ويصلب به عودها وتتغذى عن طريقه أوراقها وثمارها، فإن فسد الجذع ماتت الشجرة وفسدت ثمارها وذبلت أوراقها، وإن قوى الجذع فالأمل قائم لإخراج الثمار الجديدة وإنبات الحياة الجديدة. وخصائصها ما يلي:

أولاً: تحصيل العلم: ويهتم فيه بالموضوعات الآتية[١]:

١- آداب طالب العلم[٢]: السلوكيات والآداب للطالب في نفسه ومع شيخه ومع الناس وصفات المروءة وخصال الرجولة وكبر الهمة في العلم، والأمانة في العلم وكثرة الاطلاع.

٢- فقه التعامل مع السنة: منزلة السنة، الواجب تجاهها، الوصل بين الحديث والفقه، الصحيح والضعيف من السنة، الالتزام بالسنة، وغيرها من الموضوعات الهامة.

---

(١) ويقوم المعلم بتدريس هذه المفاهيم الآتية لطلبته على وجه التفصيل حتى يتم استيعابها ويزينها بالمُلَح والقصص والأخبار ويكررها مرة وأخرى حتى يتم فهمها فهمًا تامًا، وله أن يزيد عليها أو ينقص.

(٢) وترشح دراسة الكتب الآتية في هذا الموضوع:
- تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة.
- حلية طالب العلم، بكر أبو زيد.
- إيقاظ الهمة، عادل العيدان.
- علو الهمة، محمد إسماعيل المقدم.

٣- التفقه: ما هو التفقه وما لوازمه، وما خطواته وكيفية التحصيل، والتعلم والتدرج في التعلم، وذم التعصب المذهبي وأدب الاختلاف مع أهل العلم وبينهم، وفقه الاستدلال والبحث في الدليل.

٤- البحث العلمي: أهميته وقيمته وكيفية الانتفاع به، وطرقه وخطواته ومناهجه المختلفة.

٥- طرق التخريج: تخريج الأحاديث وطرقها، تخريج المسائل وطرقها.

٦- التعارض والترجيح: بحث أصولي.

٧- الاجتهاد والتقليد: بحث أصولي.

٨- أصول التفسير ودراسة القرآن: مناهج المفسرين، أصول التفسير، الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول.

٩- التأويل: معنى التأويل، وموقف أهل السنة منه.

١٠- علم الحديث: دراسة لعلم مصطلح الحديث متدرجة وشاملة.

١١- العلاقة بين العلم والدعوة: ضرورة العلم للدعاة، الانطواء لا يليق بأهل العلم، دعوة أنصاف المتعلمين وخطرها، خطأ التصدر قبل التأهل، الدعوة الإسلامية دعوة العلم والعمل لا أحدهما فقط، لا تكن كالشمعة تضيء للآخرين وتذوب حتى تتلاشى.

١٢- الشمولية في العلم والتعلم: تعدد فنون العلم وأنواعه، أهمية المعرفة بكل فن، التدرج في المعرفة، لا تهمل نوعًا فتصير أعرج في العلم، تعلم ما لا تحسن ممن يحسن.

١٣- التوازن في الأخذ بين أنواع العلم: معنى التوازن في العلم والتعلم، عدم إهمال نوع وفن على حساب الاهتمام بفن آخر.

١٤- التكامل قبل التخصص: خطأ التخصص قبل التكامل العلمي والشمول، الأضرار التي نتجت ممن تخصص قبل أن يتعلم جوانب العلم المختلفة.

١٥- تراجم العلماء ودراستها دراسة دقيقة ومعرفة علو همتهم في العلم.

١٦- قيمة الزمن عند العلماء وكيفية إدارة الوقت.

١٧- العلاقة بين العلم والعبادة.

١٨- مناهج التفقه: دراسة لمناهج أصحاب المذاهب الأربعة في التفقه: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ودراسة لمناهج التفقه الأخرى كمنهج الظاهرية وغيره...

وما ذكرناه من المواضيع السابقة هي مجرد ترشيحات للدراسة وللمعلم أن يزيد من الموضوعات ولكنني لا أرى أن ينقص من الموضوعات السابقة لأهميتها الكبيرة لكل طالب علم.

ثانيًا: الاهتمام بإصلاح النفس:

وفي هذا المجال ـ مجال إصلاح النفس ـ لا يقتصر الأمر على تدريس المفاهيم واستيعابها، ولكن ليراجع كل معلم ما ذكرناه من طرق التدريس ومن أدوار المربي المختلفة وكذلك يستعين كل امرئ بمشورة الآخرين الذين هم أكثر منه علمًا وخبرة، ولعل الله أن ييسر لنا أن نلحق بالكتاب بابًا خاصًا بذلك.

المفاهيم التي ينبغي توجيه المسلم إليها لإصلاح النفس[1]:

١- الحقيقة التي يغفل عنها الناس أن العمل للآخرة هو الحق ودونه زائل.

---

(١) وهذه المفاهيم الآتية، يتم الإعداد لكل مفهوم منها إعدادًا كاملاً شاملاً عن طريق الأخذ من الكتب والبحوث والمحاضرات العلمية المختلفة، ويتم دراسة كل مفهوم منها على حدة، ويراعى ضرب الأمثلة وتبيين الطريقة العملية للتطبيق، ويحسن تكرار تدريس هذه الموضوعات مرة بعد مرة.

٢- نصيحة الصالحين: قلة الهم بما يهتم به الناس.

٣- غاية الناس في الدنيا طرد الهموم، والطريق إلى طرد الهموم الإقبال على الله.

٤- النظر في الدنيا إلى من هو أقل، وفي الآخرة إلى من هو أعلى.

٥- لا تبذل نفسك إلا في هم الآخرة؛ فباذل النفس في عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى، فالعاقل لا يرى لنفسه ثمنًا إلا الجنة.

٦- ترك المبالاة بالناس وكلام الناس ونظر الناس ومدح الناس وذمهم، والمبالاة بالخالق وكلام الخالق ومراقبته سبحانه وتعالى.

٧- دراسة معنى الرياء وخطره دراسة مستفيضة.

٨- دراسة معاني الإخلاص وجوانبه وتطبيقه وكيفية الاستمرار عليه.

٩- دراسة أمراض النفوس وطريقة علاج كل منها.

١٠- الحذر من أنس النفس بالرذائل والمعاصي.

١١- طريقة التدريب على الخلق الحسن (التصبر والتحلم... إلخ).

١٢- كيف تتحقق طهارة القلب للناس وأثر ذلك.

١٣- الرغبة في الشهادة وسؤال الله الشهادة بصدق.

١٤- كثرة ذكر المحبوب يداوي الأمراض النفسية ويقوي القلب.

١٥- تعظيم حرمات الله سبحانه.

١٦- البكاء من خشية الله سمت الصالحين، فكيف الاتصاف بهذا السمت؟!

١٧- العفة أن تغض بصرك وفرجك وجميع جوارحك عن كل ما لا يحل لك، وما عدا ذلك فهو عهر[١].

---

(١) العَهْر والعَهَر: الزنى والفجور (انظر: لسان العرب ٤/ ٣١٥١).

١٨- حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين أو عن العرض أو عن المظلوم، والتقصير عن ذلك جبن وخور، وبذل الشجاعة في شئون الدنيا حمق وتهور[1].

١٩- إهمال ساعة يفسد رياضة سنة[2].

٢٠- كراهية الشهرة وكراهية الإمارة.

٢١- حسن الظن.

٢٢- المسارعة بالتوبة بعد الذنب مباشرة واتباع السيئة الحسنة.

٢٣- الحذر من عبودية المال والحذر من إنفاق الوقت في جمعه.

٢٤- معرفة عيوب كل إنسان لنفسه، (ولو علم الناقص نقصه لكان في طريقه للكمال).

٢٥- الصدقة تطفئ الخطيئة.

٢٦- صلاة الليل حصن من الزلل.

٢٧- الخلوة وأثرها، وإنما الاختلاط مع الناس لقضاء الحوائج والدعوة لدين الله.

٢٨- في الأخلاق المحرمة (الكبر والفحش والخيانة والتجسس والكذب... إلخ).

٢٩- باطن الإثم وأثره، وظاهر الإثم وضرره.

٣٠- الإنابة طريق الصالحين.

ثالثًا: الاهتمام بشئون الدعوة الإسلامية:

ويُهتم هنا بالمواضيع الآتية:

١- فضل الدعوة إلى الله سبحانه.

---

(١) من كلام ابن حزم ـ رحمه الله ـ، مداواة النفوس، ٨١ دار المشرق العربي.

(٢) المرجع السابق.

٢- شرح حديث «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[١].

٣- الدعوة الإسلامية دعوة للناس كافة لا فرق بينهم في ذلك.

٤- آداب الدعوة إلى الله.

٥- آداب إنكار المنكر والأمر بالمعروف وأحكامه والحكمة فيه.

٦- الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة.

٧- أخلاق الداعي إلى الله سبحانه.

٨- وسائل البلاغ في الدعوة.

٩- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله أن التوحيد أولاً وقبل أي شيء.

١٠- على الداعية إلى الله أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني.

١١- سيرة الصحابة وبذلهم وقتهم وجهدهم في الدعوة إلى الله.

١٢- تحمل النبي ﷺ وأصحابه الضرر في دعوتهم إلى الله.

١٣- الموازنة بين العلم والدعوة والعبادة.

١٤- الدعوة إلى الله هي البلاغ[٢].

١٥- مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

١٦- الابتداء بدعوة الأقرب فالأقرب.

١٧- الداعية إلى الله محب ودود متودد قريب سهل هين بشوش معطاء.

---

(١) أخرجه البخاري ٦/١١١، فتح.

(٢) فالأصل في الدعوة الإسلامية العلنية والبلاغ، ومن ظن أن الدعوة تقوم على السرية والإسرار فقد أخطأ، بل قد تبين خطؤه بالتجربة العملية، نعم قد يصح الإسرار ببعض الأعمال لمصلحة راجحة أو لخوف الضرر، ولكن تبقى الدعوة الإسلامية علنية وقادتها العلماء الربانيون يتصدرون للناس فيعلمونهم الخير وينشرون الدين ويثبتون في الابتلاء.

١٨- الحذر من المسارعة في تبديع الناس أو تجهيلهم أو تخطيئهم.

١٩- الداعية إلى الله جزء من المجتمع يهمه ما يهمه ويضره ما يضره.

٢٠- الداعية إلى الله يحب مجتمعه ويسعى لرقيه وتقدمه ونفعه وأمنه وسلامته.

٢١- منهجنا في الدعوة إلى الله هو منهج السلف الصالحين.

٢٢- من واجبات الداعية إلى الله القيام بحقوق الناس من الخاصة والعامة.

٢٣- الداعية إلى الله يحذر من الخلاف ويبتعد عنه، ويرى كل عامل في سبيل الله ـ مادامت قد صلحت عقيدته ـ عاملاً لله تجب معونته ومساعدته والتعاون معه وخدمته.

٢٤- الداعية إلى الله يحترم أهل العلم ويقدرهم ويوقرهم ويعرف قدرهم ولا يتجرأ عليهم ولو بكلمة صغيرة، بل يرى أن لحوم العلماء مسمومة وأن سنة الله في منتقصهم معلومة.

٢٥- الصبر في الابتلاء والثبات في الفتن.

٢٦- الدعوة الإسلامية في مواجهة العلمانية.

٢٧- الدعوة الإسلامية في مواجهة العولمة.

٢٨- الدعوة الإسلامية في مواجهة اليهودية العالمية.

٢٩- الدعوة إلى وحدة الصف الإسلامي وعدم التفرق، وبيان أن الصف الإسلامي في الدعوة إلى الله هو كل مسلم يدعو إلى الله على بصيرة وقد اعتقد عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالحين، وأنه من خالف عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالحين فليس من هذا الصف[١].

(١) كالشيعة الاثني عشرية والقبورية والمعتزلة، وغيرهم ممن خالف عقيدة أهل السنة.

رابعًا: خطوات عملية في المرحلة الثانية لتطهير القلب وتزكية النفس:

- الالتزام بسمت السنة من الهدي الظاهر والأخلاق النبوية في جميع الأقوال والأفعال.
- الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
- التزام الورد اليومي من القرآن والسنة مع الإكثار ما استطاع من ذلك.
- الالتزام والانضباط في الأذكار الموظفة في كل شئون حياته، فيظل لسانه رطبًا من ذكر الله سبحانه.
- الخشوع في الصلاة والتدريب على ذلك، وقراءة كلام أهل العلم في كيفية الخشوع.
- المسارعة إلى الطاعة والمبادرة إلى الحسنة متى ذكرها فورًا.
- الحرص الشديد على إخراج حق المال من الزكاة ثم من الصدقة.
- الإعداد لأداء فريضة الحج والترتيب لذلك ترتيبًا عمليًا، (ويمكن أن يصنع صندوقًا للادخار حتى إتمام الاستطاعة لأداء الحج ولا يتوانى في ذلك ولا يتراخى).
- أن يجعل لنفسه خطة شخصية من العلم والعبادة لا يطلع عليها أحد.
- أن يجعل له بابًا للتصدق على الأيتام، وبابًا للتصدق على المساكين، وبابًا للتصدق على العجزة وغيرهم، ولا يستصغر ولا يستقل مالاً حتى لو كان نصف درهم في الصدقة.
- الحرص على أداء العمرة إلى العمرة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
- التبكير إلى صلاة الجمعة بعد الاغتسال والتطيب وحسن الاستماع والإنصات للخطيب.

- التدريب على قيام الليل والمحافظة عليه جدًا، ولا يتهاون فيه وليجعل أهميته كأهمية ورده من القرآن والسنة.
- محاولة الخلوة بالله سبحانه والدعاء الطويل والصدق في الدعاء وإطالة السجود والدعاء فيه وتطويل مناجاته لربه سبحانه بكل ما يحب ويريد، وأحسن ما كان من ذلك في وقت الأسحار.
- البدء في قراءة كتب الحديث من الصحيحين والكتب الستة، قراءة يومية ولتكن لمدة ساعة واحدة فإن لذلك عظيم الأثر وبالغه[١].
- تدريب النفس وتهذيبها وتربيتها على المداومة على الأعمال وعدم الانقطاع فيها؛ لأنه ﷺ كان إذا عمل عملاً أثبته[٢].
- الاهتمام بحسن المنظر وطيب الرائحة ونظافة الثياب؛ فإنه سمت النبي ﷺ، ولا يعني هذا تحري الغالي والثمين من الثياب فإن ذلك يخالف سمت طلبة العلم.
- تدريب النفس على العفو والصفح عمن ظلمها أو آذاها، والمسارعة إلى الاعتذار والتأسف، والمسارعة إلى المصالحة وجبران الخواطر.
- التدرب على الصوم، فيدرب نفسه أن يصوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر، وليستمر على ذلك، وليجعل أهل بيته يصومون مثله ما استطاع إلى ذلك، وليجعل يوم صومه يوم سعادة لأهل بيته.

---

(١) من أدام قراءة عشر ورقات يوميًا يوشك أن ينهي مجلدًا (٣٠٠ ورقة) كل شهر، ويوشك أن ينتهي من أكثر من عشر مجلدات كل عام، فتأمل ذلك، ومن ضاعف تضاعف له ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

(٢) سبق تخريجه ص١٣.

- ليدرب نفسه على الحرص على ضبط مواعيده وعهوده.
- ليدرب نفسه على ضبط كلامه ونقله للأخبار.
- لا يطلب من الناس أن ينادوه باسم يفتخر به، كالأستاذ والشيخ وغيره، ولكن ليجعل نفسه من آحاد الناس ولا أن يتفضل عليهم.
- لا يمد عينيه أبدًا إلى نعيم قد أنعم الله به على غيره بل ليرضى ويقنع ويسعد بما آتاه الله.
- ليتقلل في طعامه وشرابه، وحد التقلل الذي أقصده ألا يأكل إلا إذا كان جوعان، ولا يشرب إلا إذا كان عطشان، وإذا أكل لا يصل لحد الشبع أبدًا، وإذا شرب لا يصلّ لحد الارتواء.
- يعود نفسه على صمت حكيم فلا يقل إلا خيرًا، وإذا اشتبه عليه ما سيقوله هل هو خير أم لا فلا ينطق به أبدًا.
- يقلل من خلطة الناس إلا فيما يلي:
  - صلاة الجمعة والجماعات.
  - دروس العلم ومجالس الذكر.
  - تلبية الدعوة إذا دعاه أحد.
  - زيارة الناس للتحبب والتآخي في الله.
  - زيارة المرضى واتباع الجنائز.
  - الالتقاء بالناس بغرض الدعوة إلى الله وتعليم العلم.
  - قضاء حوائجه الهامة وحوائج من يعول.
- وغير ذلك فتفضل الخلوة والعزلة على المخالطة خصوصًا في مثل هذه الأزمان.

- لا يجعل لنفسه في كل وادٍ مالاً أو تجارة أو دكانًا، ولكن ليجمع ذلك في عمل واحد أو واد واحد أو دكان واحد، فإن الأول تشتيت للفكر والثاني يجعل الهم همًا واحدًا.
- ليقلل ما استطاع من التجارة والمشاغل ولا يتوسع، فما سمعنا بأحد توسعت تجارته وأعماله إلا أثرت على علمه وعبادته، إلا من جعلها لله وقليل ما هم.
- لا يشغل نفسه بما أباحه الله من الزواج الثاني والثالث والرابع!! لأنه مشغلة، ومجلبة للهم من فعل الضرائر، إلا لمن احتاج إلى ذلك أو رأى فيه خيرًا، وكان عنده سعة حال، فإن طلبة العلم والدعاة لا وقت عندهم لأمثال ذلك، خصوصًا في هذه الأيام التي يطلب منهم فيها مضاعفة مجهوداتهم الدعوية والعلمية.
- ليحرص على أن يدعو الله سبحانه بدعاء: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1]، وليكثر منه، يقول ابن القيم رحمه الله: «ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل، وذكر الحديث. وقال شيخ الإسلام: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته»[2].
- ليترك زوائد الكلام وفضلاته من المزاح والتعليقات التي تعودها الناس مع بعضهم، وخصوصًا ما اشتهر بين الناس من العبارات التي لا تليق بطلبة العلم ولا الدعاة، وليكن كلامه وقورًا محترمًا رصينًا ولا يبتزل نفسه بهابط الكلام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ح١٥٢٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص٦٥.

- يحاول أن يجعل باطنه خيرًا من ظاهره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مع حرصه على إحسان سلوكه الظاهر اقتداء بالنبي ﷺ.
- لا يليق بالمسلم الداعية طالب العلم إضاعة أوقاته في أي أمر كان، ولكن ليجعل من كل دقيقة في حياته ثمنًا وفائدة وإنجازًا، وليترك ما انشغل به البعض من برامج الانترنت فيضيعون أوقاتهم الطويلة فيها بغير فائدة تذكر، بل قد يصابون بالضرر والأذى من خلال ما يشاهدونه من صور فاسدة أو لهو أو عبث، فليستعْلِ طلبة العلم والدعاة على ذلك فإن لهم سبيلاً أعلى وأسمى، إلا أن يكون في برامج الانترنت إفادة علمية شرعية، فيقضي إفادته وليحصل فائدته وليخرج[1].
- ليحرص المعلم في هذه المرحلة على أن يجعل المسلم طالب العلم طبيعيًا غير متكلف ولا يحيط نفسه بسياج عن إخوانه، وليكن صريحًا مع معلمه أو مع من هو أكبر منه وأكثر علمًا، فيخبرهم بما يعانيه ويسألهم عن كيفية علاج أمراض نفسه، ولا يستحي من ذلك فإن ذلك من التداوي.
- يجب أن يكون المسلم واسع الثقافة محيطًا بما يحصل حوله من تطورات وأحوال مستجدة على الساحة الإسلامية في شتى بقاع الأرض، كما يجب أن يكون على إدراك ومعرفة لمخططات أعداء هذا الدين للنيل منه وتعجيزه.
- يجب توسيع دائرة المسلم المعلوماتية فيما يخص الأقليات الإسلامية في العالم، وكذلك قوة المسلمين وضعفهم وإمكاناتهم والمتاح لهم.

(١) ولا شك أن هناك من المواقع الإسلامية الكثيرة على شبكة الانترنت ما فيه فائدة لنشر الدعوة الإسلامية وتحقيق مصالح أخرى كثيرة.

- ليسع المسلم جاهدًا في البحث عن لذة العبادة وحلاوتها وليكن ذلك شغله الشاغل، وليسأل ربه أن ينعم عليه بلذة العبادة وحلاوة الإيمان وليكثر من الدعاء بذلك، فإنه من أدام طرق الباب يوشك أن يُفتح له.
- ليعود نفسه الإلحاح في الدعاء وتكراره، ولا يستعظم طلبًا من الله سبحانه؛ بل ليطلب عظائم الأمور من ربه عز وجل، وليرفع يديه في كل وقت سائلاً ربه عز وجل بما يريد ويحب، وليوطن نفسه يوميًا على ذلك.
- ليحرص المسلم الصادق ألا يربط بين دعوته وعلمه وبين أي نوع من المكاسب المادية أو المالية أو الدنيوية فإنها مذلة ومنقصة وشينة إلا من اضطر إلى ذلك اضطرارًا، وقلبه مطمئن بالإيمان.

المنهج العلمي المقترح في المرحلة الثانية:

- إتمام حفظ نصف القرآن على الأقل.
- قراءة تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم.
- دراسة كتب العقيدة (الواسطية، الحموية، التدمرية، الطحاوية، ومعارج القبول) وشروحها.
- دراسة فقه العبادات والمعاملات دراسة دقيقة تفصيلية بالدليل والترجيح.
- دراسة علم الحديث دراسة شاملة.
- دراسة علم أصول الفقه دراسة شاملة.
- دراسة علم القواعد الفقهية.
- قراءة كتاب في قواعد اللغة العربية والنحو والصرف.
- قراءة كتاب في البلاغة والشعر.
- دراسة كتاب مدارج السالكين دراسة دقيقة.

- دراسة أبواب الإيمان والعلم والأدب من الصحيحين.
- قراءة أكثر من كتاب في الرقائق من الكتب الحديثة.
- القراءة اليومية في الصحيحين حتى الانتهاء منهما.
- دراسة كتاب في أصول الدعوة الإسلامية.
- قراءة كتاب في التاريخ الإسلامي.
- الاستمرار في قراءة كتب التراجم للعلماء والصالحين السابقين.

علامات النجاح في المرحلة الثانية:

- إذا تمت المرحلة الثانية بنجاح فإنه يكون قد خرج إلينا منها المسلم طالب العلم الخاشع الورع الخلوق المثقف الذي يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.
- وهاك بعض علامات النجاح في المرحلة الثانية:
- استيعاب المناهج العلمية التي درسها والانتهاء منها.
- الإقبال على العلم وحبه، وبذل الوقت له، والسفر في سبيله، والإنفاق عليه.
- التأدب بآداب طالب العلم في الظاهر وحسن السلوك والخلق.
- الإقبال على العبادات.
- الإكثار من ذكر الله سبحانه.
- الاجتهاد في الدعوة إلى الله سبحانه.
- الانتظام في حلقات العلم ودروسه.
- اتساع مستوى تأثيره الإيجابي فيمن حوله.
- الإنجاز فيما يحسن.

- الزيادة على مختلف المستويات وعدم النقص.
- الاهتمام بالنفس وإصلاح عيوبها.
- نضج شخصيته واكتمال جوانبها المختلفة.
- اتساع دائرته المعرفية والثقافية.
- اهتمامه بالصحوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.
- ثباته في الاختبارات والابتلاءات والفتن.
- حمل هم الإسلام.

وهذه المرحلة هي أطول المراحل وقتًا فعلى المعلم وطالب العلم عدم السأم أو الملل أو التسرع في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة إلا بعد التأكد من الاستيعاب التام لمراد المرحلة السابقة ؛ ليكتمل المراد من التدرج التربوي والإيماني.

المرحلة الثالثة

وهي المرحلة التي تتلبور فيها الأفكار وتكتمل فيها شخصية طالب العلم وتتكون معالم حياته وسمات طريقه ، فهي مرحلة هامة ، ويكثر فيها الخطأ وسوء الفهم والتجاوز ، ولذلك فنقف على أهم خصائصها كما يلي :

الخصائص الأساسية للمرحلة الثالثة من التربية الإيمانية:

أولاً: اكتمال المفاهيم ووضوحها: ويهتم بالمفاهيم الآتية :

١ - الارتباط الحق هو الارتباط بالمنهج الإسلامي لا بالمربي أو المعلم أو غيره :

- تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ الآيات.

- ماذا يفعل المسلم إذا وجد نفسه وحده في بلاد ليس فيها الإسلام؟
- هل لو تعثر المربي والمعلم أو تكاسل أو انقلب ينقلب المتعلم تبعًا له؟
- الحق لا يعرف بالرجال ولكن الرجال يعرفون بالحق، اعرف الحق تعرف أهله.

٢- الأمراض الاجتماعية وأثرها على الصف المسلم:
- مرض الإشاعة وأثره.
- مرض التنازع على المصالح والتدافع عليها.
- مرض الفتور وأثره.
- مرض الاستعباد للشهوات وأثره.

٣- الناس يجمعهم أصل الإسلام، والمجتمعات كذلك يجمعها أصل الإسلام، وكذلك المؤسسات في المجتمع، والمخطئ يقدر خطؤه بقدره، والدعوة الإسلامية جزء من ذلك المجتمع يصلح المجتمع بصلاحها وتحرص الدعوة على صلاحه وأمنه واستقراره وتقدمه وتطوره وانتصاره على أعدائه لإعلاء كلمة الله، فالدعوة الإسلامية لا تعادي المجتمعات ولا المؤسسات في المجتمع ولا تفارقها، بل تعلمها وتدعوها بالحكمة والموعظة الحسنة.

٤- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية لا تختص بجنس دون جنس ولا بقطر دون قطر ولا بلغة دون لغة، بل هي دعوة إلى الناس أجمعين، رحمة وهدى ونور قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٥- الدعوة الإسلامية دعوة العلم وهو العلم القائم على الدليل الشرعي من الكتاب والسنة والإجماع.

٦- الدعوة الإسلامية هي دعوة شمولية لجميع مناحي الحياة، فلا دعوة إلى جانب دون جانب ولا إلى بعض الدين دون بعض، ولكنها دعوة لجميع جوانب

الإسلام العلمية والعملية الظاهرة والباطنة، وهي دعوة ترفض تقسيم الدين إلى قشر ولباب.

٧- الحكمة في الدعوة إلى الله هي السلوك العام والفكر المسيطر الذي يتحرك من خلاله المسلم، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، فالحكمة ضرورية في كل سلوك يقوم به الداعية إلى الله، فلا حماس مضر ولا كسل مقعد ولا تحرك بغير علم ودراسة ومشورة لأهل العلم، وإنما حكمة قبل العمل وحكمة أثناءه وحكمة في نتائجه.

٨- هدف الدعوة الإسلامية إقامة البلاغ العام للناس وتعبيد الناس لربهم سبحانه وتعالى تمام العبودية.

٩- الدعوة الإسلامية هي الدعوة إلى العقيدة الإسلامية أولاً، وتحرير الناس من العبودية لما سوى الله سبحانه، ونبذ الشرك بجميع أشكاله وصوره، وتعليم الناس الإيمان بالله ربًا وإلهًا وبأسمائه وصفاته، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتعليمهم بواجبهم تجاه ذلك الإيمان.

ثانيًا: ظهور ثمرات التربية القلبية الإيمانية: ويهتم فيها بالمفاهيم الآتية:

١ - تحقيق لذة العبادة والشعور بحلاوة الإيمان.

٢ - تحقيق الربانية في العلم وفي طلبه.

٣ - تحقيق منزلة الصدق مع الإخلاص لله سبحانه وتعالى وهي المنزلة (التي لا يطلب العامل فيها شاهدًا على عمله غير الله ولا مجازيًا على عمله سواه).

٤ - تحقيق منزلة الرضا بالله وبدينه وبقدره سبحانه وتعالى.

٥ - تحقيق منزلة الإخبات لله سبحانه وهو الطمأنينة والسكينة مع التواضع والخشوع.

٦ - تحقيق عبوديات الجوارح (السمع، البصر، اللسان، العقل، القلب...).

٧ - ترك حظ النفس من العادات والعبادات.

٨ - التزهد في الدنيا والتقلل منها قدر زاد المسافر.

٩ - تأديب النفس على الخطأ والزلل.

١٠ - قطع الشعور بلذة الذنب، واستبداله بشعور الكراهية والبغض له.

١١ - أن يصير الذكر هو دواءه وشفاءه وطعامه وشرابه.

١٢ - تحقيق منزلة التوكل على الله سبحانه والثقة به عز وجل.

١٣ - تحقيق العبودية الكاملة في كل حركاته وسكناته وأقواله وأفكاره.

١٤ - الإنفاق في سبيل الله.

١٥ - التضحية بالنفس في سبيل الله.

ثالثًا: ظهور علامات صحة القلب:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحبوب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، ومنه يخاف، فذكره قوته وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره».

قال رحمه الله: «فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وشعثًا لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده؛ فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده،

فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي خلق الخلق له»[١].

رابعًا: خطوات عملية في المرحلة الثالثة للتربية الإيمانية:

- بذل العلم وتعليمه للناس ودعوتهم به.
- قراءة المطولات من شروح الحديث والفقه وغيره.
- تدبر القرآن للتفسير واستخراج الفوائد.
- إعداد الموضوعات النافعة في المجالات المختلفة.
- يصبر في المواقف الصعبة ويثبت لأن هناك من يقتدى به.
- يأخذ بالعزائم ويضع نفسه موضع القدوة.
- يزداد تواضعه وحياؤه بزيادة علمه وإيمانه.
- يزداد اهتمامه بإصلاح بيته وزوجه وأولاده، وليكن بيته قدوة لبيوت غيره، وكذلك زوجه وولده.
- أن يكون همه واحدًا فقط ويجعله لله وفي الله.
- إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ووجد فيها راحته ونعيمه وقرة عينه.
- يكون شحيحًا بخيلاً بوقته أن يذهب ضائعًا أشد من شح الناس بأموالهم.
- أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم من اهتمامه بالعمل.
- يتألم إذا فاته ورده ويعاقب نفسه على ذلك.
- ليجعل كل علاقاته في الله.

---

(١) من كلام ابن القيم، إغاثة اللهفان، ص٧٩، دار ابن زيدون.

- ليحرص على إصلاح قلبه إذا مرض أكثر مما يحرص على علاج جرحه إذا جُرح .
- يحرص على الصف الأول من الجماعات.
- يحرص على المكوث في المساجد بعد صلاة الصبح حتى الشروق.
- لا يفوته قيام الليل بحال.
- يقوم بحق جاره في دعوته إلى الله وحسن معاملته.
- يقوم بحق رحمه فيصلهم ويدعوهم إلى الله ويحسن إليهم.
- لا يهتم بإدخار المال ولا بجمعه ولكن يهتم بإنفاقه في سبيل الله.
- ليعلم أنه صعب على المرء أن يبلغ رضا الناس، فرضا الناس غاية لا تدرك، فليفعل الخير، وليعرض عن الجاهلين.
- لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن افعل ذلك على سبيل الفضل وفعل الخير ابتغاء وجه الله.
- ادفع حسد الحسود بالكرم، ولا تعجب إذا رأيت أن أول من أحسنت إليه هو أول مُضر بك وساع عليك ومُشهر بك، فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في حال أعلى من أحوالهم.
- ليس في الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح، فليكره المسلم المدح في الوجه.
- ليتعلم أن يحفظ السر أشد حفظ.
- لا يكثر من دعوة الناس لزيارته إلا من أمنه وعلم حسن خلقه.

- ليحرص على الاعتكاف في العشر الأواخر في رمضان.
- ليحرص أن يحمل الطعام إلى المساكين والفقراء، وأن يحمل الهدايا واللعب للأيتام وأن يستمر على ذلك، ويعاهد الله على الاستمرار على ذلك حتى المات.
- ليجعل له من بيته مكانًا يصلي فيه ويهتم بنظافته وتطييبه والخلوة فيه والعبادة.
- ليعود نفسه اتباع الجنائز وزيارة القبور وكثرة ذكر الموت.
- ليعود نفسه البكاء في خلوته وليتباكى إذا صعب عليه البكاء.
- ليتجنب الدخول بين الناس في مشاكلهم وصراعاتهم ما استطاع إلى ذلك؛ فإن في الدخول في مشاكلهم مضيعة للوقت ووهن للقلب، وليقم بذلك من يقدر عليه ويحسن فيه.
- ليجتنب الانغماس في مسألة إخراج الجن والشياطين ونحوه، لاسيما وقد آل الحال إلى مبالغات وشطحات ومخالفات، فالأولى عدم الانشغال بذلك، اللهم إلا رقية يرقي بها أهله أو مريضًا يعوده ونحو ذلك.
- ليعود نفسه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ولا بمجرد السؤال.
- ليحرص ألا يكون أبا شبر!! (فالعلم ثلاثة أشبار: فالأول من دخله تَكَبَّر، والثاني من دخله تواضَعَ، والثالث من دخله علم أنه لا يعلم).
- ليحرص في كل مرة يخاطب فيها الناس أو يكلمهم أو يعلمهم أن يستعين بالله وأن يجدد نيته فيه.

المنهج العلمي المقترح للمرحلة الثالثة:

- إتمام حفظ القرآن الكريم.

- إتمام قراءة تفسيره.
- دراسة دقيقة لعلم أصول الفقه.
- دراسة لباقي فروع الفقه بالدليل والترجيح.
- دراسة خاصة لفقه المواريث.
- دراسة لشرح ألفية ابن مالك في النحو.
- قراءة في فتاوى شيخ الإسلام.
- قراءة في كتاب الإيمان لشيخ الإسلام وكتاب شرح النونية لابن القيم والصواعق المرسلة...إلخ.
- قراءة المطولات من شروح الحديث...
- إتمام حفظ متن أو أكثر في كل فرع من فروع العلم.
- ويمكن بعد ذلك الاستعداد للتخصص في أحد العلوم الشرعية، إذا أتم المناهج الثلاثة باستيعاب وفهم تامين.

الفصل الخامس

وسائل التربية القلبية الإيمانية

- التوبة.
- ذكر الموت.
- الزهد في الدنيا.
- البكاء.
- مدرسة قيام الليل.
- الاستغفار.
- الأدب.
- عمل السر.
- الارتباط المساجد.
- الجلوس في المصلى بعد الصلاة.
- نوافل العبادات.
- قلة المخالطة.
- إدارة الوقت.

أولاً: التوبة الصادقة

وهي رجوع العبد إلى الله سبحانه وندمه على تقصيره، وتركه لطريق العصاة المذنبين، وما أحوجنا إلى التوبة إلى الله سبحانه وقد اسودت منا الوجوه من كثرة ذنوبنا، وغطت الآثام بالران على قلوبنا، فبأي وجه نلقى الله وقد سودنا وجوهنا وغلفنا قلوبنا بمعاصينا له؟ وبأي حال نقبل عليه ونحن نغوص في نعمه علينا ليل نهار؟

وللأسف فإن المؤمنين من الناس إنما يكتفون بالحديث عن التوبة كتذكرة يذكرون بها غيرهم أو يذكر بها معلم تلاميذه أو مربٍ طلابه في دقائق معدودات، ثم يتركونهم في معترك الحياة يقترفون ما يقترفون من آثام ويقصرون ما يقصرون في حق الله، ولم تترسخ التوبة في قلوبهم ولم تسيطر على سلوكهم... ونحن في الكلام على التوبة نوجه الحديث إلى مجموعة من الأسس الهامة في التوبة ومفهومها وتطبيقها وما يترتب عليها وكيف يتخذها المؤمن وسيلة للتربية القلبية الإيمانية:

١- ما التوبة ؟!

حقيقتها ثلاثة أمور:

العلم بها: وأقصد به معرفة تقصير الإنسان في حق ربه ومدى ضرر ذنبه عليه وإبعاده عن عفو ربه ورحمته، ودخوله فيمن غضب عليهم وتوعدهم بعذابه وحاجته الضرورية إلى العودة إلى ربه وقربه إليه سائلاً الغفران.

الألم: والألم يتولد من علمه بأثر ذنبه، فكل من لم يشعر بالألم من ذنبه لم يحقق التوبة، والألم يحدث تلقائيًا مع الذنب في كل قلب به حياة، وإذا لم يشعر القلب بالألم مع مقارفة ذنبه فإنه إلى الموت أقرب.

الندم: ويشعر به العبد بعد فعله للذنب، وإذا كان شعوره بالندم قويًا أحرق ما في قلبه من لذة الذنب، وإذا كان ندمه ضعيفًا لا يزال يشعر بحلاوة الذنب، فهو لم يعزم على التوبة بعد.

فإذا علم الإنسان بآثار ذنوبه ولم يتألم من ذلك ولم يندم عليه لم يخطُ إلى التوبة أصلاً، ومن علم بآثار ذنوبه وتألم من ذلك ولم يندم على فعله لم يخطُ إلى التوبة أيضًا.

ومن علم بآثار ذنبه وتألم من ذلك وندم على فعله الذنب واشتد ندمه، فقد خطا أُولى الخطى في طريق توبته.

٢- توبة واجبة:

التوبة إلى الله واجبة على كل مسلم.

فإن كل إنسان لا يمكن أن يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن معصية القلب، فإن خلا عن معصية القلب لا يخلو عن الغفلة عن الله وعن قصور العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وتقصير. ثم إن أحدنا لا يكاد يختلط بالناس ساعة إلا ناداه الذنب وأقبلت إليه المعصية، لاسيما في هذه الأزمان التي تعج فيها الطرقات والمؤسسات بل والبيوت بالمعاصي والآثام، مع تقصير في العلم بالله وقلة للخشية منه سبحانه، فيقع المرء في الذنب، وإذا غفل تتكاثر عليه ذنوبه.

يقـول الإمام ابن القيم رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]. وهـذه الآيـة في سـورة مـدنية خـاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة وأتى بكلمة «لعل»

إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم»[١].

الأدلة من القرآن والسنة على وجوب التوبة إلى الله:

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**»[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله: «ويجب أن يتوب عن جميع الذنوب، فإن تاب عن بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة»[٣].

٣- تمام التوبة بتدارك ما فات:

قال القاسمي رحمه الله: «ليس معنى التوبة ترك الشهوات فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه، فإذا تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينًا كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، فإذا تراكم الرين صار طبعًا، ينطبع على قلبه، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص١٢١.

(٢) رواه مسلم، ٤/ ذكر/ ٢٠٧٥/ ح٤٢.

(٣) رياض الصالحين ص١٧، دار الحديث.

وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**اتبع السيئة الحسنة تمحها**»، فإذًا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث يقول: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟»[1].

٤- حياة التائبين:

إن الحياة الحقيقية هي حياة التائبين؛ إذ إنها حياة المؤمنين الصادقين، وتوبة المؤمن تصحبه طوال حياته، فهو لا يفتر عن التوبة إلى الله والاستغفار ولا يفتر عن الألم لتقصيره ولا الندم على ذنبه حتى يلقى الله سبحانه.

فهو يبدأ بالتوبة خطواته إلى ربه ويصطحبها في كل خطوة يخطوها إلى ربه، وينهي بها حياته مقبلاً على ربه، ومن رضي بغير حياة التائبين وترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

الأول: أن تتراكم الظلمات على قلبه من المعاصي حتى يطبع على قلبه طبعًا لا يقبل المحو.

والثاني: أن يصيبه المرض أو الموت فلا يجد مهلة لأن يتوب ولا قوة لكي يطيع ويستغفر، فيأتي الله بقلب غير سليم، وقد علم أنه لا ينجو من عذاب الله إلا من أتاه بقلب سليم.

---

(١) موعظة المؤمنين للقاسمي، ص ٣٩٤، التوفيقية.

٥- سبب الوقوع في الذنب:

لقد أحرقتنا ذنوبنا وآلمتنا معاصينا، ولكننا رغم ذلك قليلاً ما فكرنا وتدبرنا ما هو سبب وقوعنا في الذنب؟!

إن سبب وقوعنا في الذنب تركنا الاعتصام بمنهج الله الحق، ذلك الحصن الحصين والركن الركين والصراط المستقيم الذي لو اعتصمنا به لما خرجنا عن هدايته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ثم انظر إلى قوله جل شأنه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨]، قال العلماء في هذه الآية: يعني متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وإن تركتم اعتصامكم به خذلكم.

والخذلان منه سبحانه أن يكلك إلى نفسك ويخلي بينك وبينها، فترى المذنب يتهاون في الاعتصام بأوامر ربه فيجره ذلك إلى الوقوع في المعصية وتكون معصيته مركبة؛ فمعصية التهاون بالأمر ومعصية الوقوع في المخالفة.

٦- هل تفرح بالذنب ؟!

أما المؤمن فإنه لا يفرح بالذنب أبدًا ولا يستلذ بمعصية أبدًا، إن المؤمن لا يفعل ذنبًا أبدًا إلا والحزن يملأ قلبه والألم يصرخ بين جنباته، ولكن أثر الشهوة يمنعه من الشعور بحزنه وألمه، وكلما قل حزنه وزاد فرحه بذنبه فإن ذلك دليل على مرض قلبه وضعف إيمانه، فإذا عاد إلى ذنبه مرة أخرى ووجد الحزن قد ذهب عنه وخلي منه قلبه واقترف الذنب وهو فرح مسرور، فليبك إذن على قلبه وانتكاسه.

٧- الفرح بالذنب أول خطوة في طريق الإصرار عليه:

إن المصرين على الذنوب لا يزالون يشعرون بحلاوة فعل الذنب ويفرحون به ؛ فلذلك فإنهم يعودون إليه.

ومن وصل إلى الشعور بالفرح والسرور أثناء فعل الذنب وبعده كان ولا شك سائرًا إلى مرحلة الإصرار عليه، وهو الاستقرار على المعصية والعزم على المعاودة إليها مرة أخرى، قال الإمام ابن القيم: «والإصرار على الذنب ذنب آخر أعظم من الذنب الأول بكثير».

ومعلوم معروف أن ذلك الإصرار من عقوبة الذنب، فإن من عقوبة الذنب أنه يوصل إلى ذنب آخر أكبر من الذنب الأول، وهكذا حتى يهلك الإنسان ويضيع، فترى الإنسان وقد سيطر عليه الذنب فلا يستطيع الخروج منه، وقد يصل به الحال إلى إدمانه، فإذا به يفعل الذنب ويحاول إخفاء ذلك عن الناس ويجاهر به أمام ربه سبحانه في خلوته، وتجده يداوم على وقت يخلو فيه بذنبه وينتظم فيه أيّما انتظام!! وتجده أثناء فعله لذنبه إنسانًا آخر غير الإنسان ؛ فقد سيطرت عليه شهوته وغلبت عليه معصيته، فتوقف عقله عن الإرشاد، وتوقف قلبه عن الألم والشعور بالخجل، واجترأت جوارحه على معصية الرب، ونسي مقام الله.

ومن وصل إلى هذه الدرجة[1] السابقة من المعصية سهل عليه المجاهرة بذنبه مع تيقنه أن الله سبحانه ينظر إليه، فنزع منه الحياء من الله كما نزع منه الحياء من الناس، وجرأه ذلك على ارتكاب الكبائر والاستهانة بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) والأولى أن نسميها (دركة).

٨- خطوة تحتاج الصادقين:

إن التوبة خطوة عظيمة في طريق العودة إلى الله سبحانه، إلا أنها خطوة تحتاج الصادقين، ويفشل فيها الكاذبون، ويتعثر فيها المترددون، فالتوبة تحتاج إلى قوة نفسية مميزة لتعين الإنسان على ترك شهوته ومعصيته والفرار إلى الله سبحانه، وكثيرًا ما يفشل الناس في التوبة إلى الله سبحانه، ولا يخلصون ولا يصدقون مع ربهم، وكثيرًا ما نسمع قول القائلين: «كيف أتوب؟» أو شكواهم: «نحن لا نستطيع أن نتوب».

وأنصح من شاء - صادقًا - أن يتوب إلى ربه أن يراعي هذه الخطوات:

أولاً: يذكر ذنوبه كلها ويتفكر في ضررها عليه وفي عظمة من عصاه وفي ذنوبه الأخرى التي قد عملها ونسيها وهي قد أحصيت عليه.

ثانيًا: يجمع نيته وإرادته وعزمه بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تقاعس ولا تكاسل عن نيته في أن يتوب.

ثالثًا: يتطهر ويستغفر ربه استغفارًا كثيرًا[(١)].

رابعًا: يخلو بنفسه ويذكر خوفه من ربه ويقرأ آيات العذاب والعقاب وأحاديث الخوف من الله سبحانه، ويتفكر فيها ويتدبر معانيها ويجعل نفسه في منزلة المخاطب بها.

خامسًا: يحاول أن يبكي على خطيئته وذنبه، وإن لم يستطع فليتباك على خطيئته حتى يبكي.

سادسًا: يذكر نعم ربه عز وجل عليه ويعددها ويُذكّر نفسه بها.

سابعًا: يكره ذنبه ويقتل في نفسه حبه والشعور بلذته، بأن يتفكر في ضرره عليه بدنيًا ونفسيًا واجتماعيًا، وضرره عليه في عرضه، وأن الجزاء من جنس

---

(١) ويقرأ سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعتمك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

العمل، وأن الله سبحانه لا يغفل عن فعل الظالمين، وأن الذنب إنما هو فرح ساعة وندم كل ساعة، وحسرة إلى قيام الساعة.

ثامنًا: يرفع يديه بالدعاء لربه سبحانه ويناجي ربه عز وجل باعترافه بذنبه وتقصيره، ويسأله سبحانه أن يمن عليه بالتوبة وأن يرزقه حسن الأوبة والعودة، وأن يعينه على أن يتوب إليه سبحانه.

تاسعًا: يعاود الاستغفار ويكثر منه في كل الأوقات.

عاشرًا: يقوم بين يدي ربه سبحانه ويدعو في سجوده ويتوب، ويعزم على ألا يعود، ويعاهد ربه على الاستقامة.

حادي عشر: يفارق مكان الذنب وأصحابه الداعين إلى الذنب، ويقطع الطريق على نفسه أن يعود إلى الذنب بكل وسيلة.

ثاني عشر: يستحدث الطاعات التي لم يكن يقوم بها والتي كان مقصرًا فيها ويكثر الصدقة فإنها تطفئ الخطيئة.

ثالث عشر: يسأل ربه الثبات على توبته وأن يقبلها منه سبحانه.

رابع عشر: يكرر توبته كثيرًا كثيرًا، ويخشى دائمًا ألا تقبل منه توبته.

خامس عشر: يظل ذليلاً بذنبه بين يدي ربه، ويزيد ذله كلما ذكر ذنبه.

٩- الندم توبة:

إنها ندم[1] صادق يخرج من قلب محترق وعقل راشد، يصحبه دمعة عين مخلصة، فيدفعه إلى عزم ثابت وقصد بلا تردد، ندم يوجع القلب لغضب ربه عليه ولطرده من رحمته ولاتصافه بأسماء الفاسقين والعاصين، ندم علاقته طول

---

(١) حديث «الندم توبة» أخرجه الإمام أحمد في مسنده وهو صحيح (صحيح الجامع، رقم ٦٨٠٢)، وأخرجه ابن ماجه، صحيح ابن ماجه للألباني برقم ٣٤٢٩.

الحسرة وسيطرة الحزن عليه، وإسكاب الدمع كلما ذكره، فإن الإنسان إذا كان ينتظر عقوبة نازلة عليه طال لأجل ذلك ألمه واشتد بكاؤه، وأي عقوبة أشد من عقوبة الله، وأي مخبر أصدق من الله قيلاً؟

فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب أرجى، ومن تمكن الندم من قلبه مع توبته استبدلت حلاوة الذنب في قلبه مرارة وكراهية ونفرة. قال القاسمي رحمه الله: «فكان كمن ينفر عن عسل فيه سم ولو كان في غاية الجوع والشهوة للطعام، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان، ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضًا عن الله تعالى متهاونًا بالذنوب مصرًا عليها، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب»[1].

١٠- شرط بشرط:

وبغير شروطها لا تتحقق التوبة أبدًا، فمن ظن أنه بمجرد حزنه على فعله فقد تاب فهو مخطئ، ومن ظن أنه بمجرد استغفاره بلسانه فقد تاب فقد أخطأ، وإنما للتوبة شروط.

قال الإمام النووي رحمه الله: «**الشرط الأول:** أن يقلع عن المعصية (فورًا)، **والشرط الثاني:** أن يندم على فعلها، **والشرط الثالث:** أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا».

قال ابن القيم رحمه الله: «وينتبه أن الثلاثة يجب أن تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في نفس الوقت يندم ويقلع ويعزم».

وهناك شرط رابع: وهو أداء الحقوق إلى أهلها.

روى البخاري في صحيحه قول النبي ﷺ: «**من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا**

---

(١) موعظة المؤمنين، ص٤٠١.

درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه»[(١)].

قال في موعظة المؤمنين: «ومن أهم ما يجب تداركه الحقوق المالية، فمن تناول مالاً بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس، كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه ليستحلهم أو ليؤدي حقوقهم لهم أو لورثتهم أو ليناقِش قبل أن يُناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال حسابه في الآخرة، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه، فهذا طريق كل تائب في رد المظالم الثابتة في ذمته»[(٢)].

١١- سر التوبة الصادقة:

أمران هما سر التوبة الصادقة، ومن وفق لهما فقد وفق إلى خير الأسرار فبهما تصدق توبته وبهما تحسن أوبته.

الأول: تعظيم الذنب واستكباره: فإن الإنسان إذا استصغر ذنبه لم يبال به ولم يندم عليه، لذلك قال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر لعظمة من عصيت، وعلى قدر تعظيمه للذنب يكون ندمه عليه.

الثاني: ظنه أن توبته قد لا تقبل: فإن الإنسان إذا اطمأن أن توبته قد قبلت اتكل عليها، ولكن عليه أن يخاف ألا تقبل منه وأنه ربما لم يوفها حقها، وأنها ربما تكون توبة سبب يريده كتوبة من له حاجة، أو أنه تاب محافظة على حاله، فتاب للحال لا خوفًا من ذي الجلال.

أو أنه تاب اتقاء ما يخافه على ماله أو مكانته، أو تاب لضعف داعي المعصية في قلبه وخمود نار الشهوة عنده، ومثال ذلك من الأمور وإنما يجب أن تكون التوبة سببها الخوف من الله سبحانه والتعظيم لحرماته وإجلاله وخشيته.

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٤٤٩/فتح). (٢) موعظة المؤمنين، ص٤٠١.

١٢- إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا:

إنه لا بطالة مع التوبة ولا قعود ولا كسل مع التوبة، فلابد للتوبة كي تكتمل من عمل صالح، فكما أنها ترك لما يكره سبحانه فإنها فعل لما يحب سبحانه، وكما أنها تخل عن معصية فإنها تحل بطاعة، لذا قرن الله سبحانه في آيات كثيرة بين التوبة والعمل الصالح، وهاك مثالها:

قوله سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٠] الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [آل عمران: ٨٩].

فكذلك فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها، ولكل قول شاهد من صدق أو كذب من حال قائله.

قال الحسن: «ابن آدم، لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أملك بك من علانيتك...».

١٣- مبشرات:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة**»[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه البخاري ١١/ ٦٣٠٩/ فتح، مسلم ٤/ توبة / ٢١٠٥/ ح ٨.
(٢) أخرجه مسلم، ٤/ توبة / ٢١١٣/ ٣١.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(١).

١٤- من كلامهم في التوبة ـ رحمهم الله ـ:

كان يحيى بن معاذ يقول: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبلها.

سئل سفيان بن عيينة: ما علامة التوبة النصوح؟ فقال: «أربعة أشياء: قلة الدنيا، وذلة النفس، وكثرة التقرب إلى الله بالطاعات، ورؤية القلة والنقص في ذلك».

وكان الفضيل بن عياض يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد: «عليكم بالتوبة، فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف».

وكان عمر بن الخطاب يقول: «جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة»(٢).

١٥- قصة ذكرها الإمام ابن القيم... لكل مذنب:

روى أن أحد الصالحين كان يسير في بعض الطرقات، فرأى بابًا قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه، ودخلت فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مغلقًا فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام ودموعه على خديه، فخرجت أمه بعد حين، فلما رأته على تلك الحال لم تملك إلا أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي أين ذهبت عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني؟ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت، فتأمل

---

(١) رواه مسلم، ٤/ ذكر/ ٢٠٧٦/ ٤٣.

(٢) انظر: «من أخلاق السلف» ص١٠ وما بعدها.

قول الأم... وتأمل قوله ﷺ : «**لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**» رواه مسلم، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة، فإذا تاب عليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

١٦- لا تحقر ذنبًا أو تستصغره:

عن أنس رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا ـ أي بيده ـ فذبه عنه»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ : «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**»[(٣)].

١٧- لا تقنطوا من رحمة الله:

قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]

فلا تقنط أخي التائب من رحمة الله، ولا تحس بأن ذنوبك أكثر من أن يغفرها الله؛ لأن إحساسك هذا ناشئ عن عدم اليقين بسعة رحمة الله، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) رواه البخاري، عن أنس، حديث ٦١٢٧، باب ما يتقي به من محقرات الذنوب.

(٢) رواه البخاري، عن عبد الله بن مسعود، حديث ٥٩٤٩، باب التوبة.

(٣) رواه أحمد في مسنده، انظر: صحيح الجامع ٢٦٨٦، ٢٦٨٧.

واعلم أن ربك العظيم الرحيم قادر على مغفرة جميع الذنوب.

ففي الحديث القدسي الصحيح، قال تعالى: **«من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئًا»**[(١)].

وانظر إلى جميل عفوه سبحانه وواسع مغفرته عز وجل كما في الحديث القدسي العظيم: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**[(٢)].

وانظر إلى فعل التوبة الصادقة في الذنوب، كما يقوله ﷺ: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[(٣)].

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»**[(٤)] ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال ﷺ: **«إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت الأخرى حتى يخرج إلى الأرض»**[(٥)].

---

(١) رواه الطبراني وهو صحيح، صحيح الجامع رقم ٤٣٣٠.

(٢) رواه الترمذي وهو صحيح، صحيح الجامع ٤٣٣٨.

(٣) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ٣٤٢٧، وصحيح الجامع ٣٠٠٨.

(٤) رواه أصحاب السنن الأربعة، صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٨٤.

(٥) رواه الطبراني في الكبير وهو صحيح، صحيح الجامع ٢١٩٢.

وعن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت، فلم يقل الرسول ﷺ شيئًا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ، ثم قال: «ردوه علي»، فردوه عليه فقرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال معاذ ـ وفي رواية عمر ـ: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟ فقال: «**بل للناس كافة**»[١].

وقال ﷺ: «**إن للتوبة بابًا عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»[٣].



(١) رواه مسلم، حديث ٢٧٦٣، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

(٢) صحيح الجامع ٢١٧٧.

(٣) رواه مسلم، حديث ٢٥٧٧، باب تحريم الظلم، عن أبي ذر رضي الله عنه.

ثانيًا: ذكر الموت وقصر الأمل

لا شيء يدفع النفس إلى الصراع على الدنيا وشهواتها أكثر من طول أملها ونسيانها الموت، ولا شيء يغفل عنه المنهمك في الدنيا المنكب على غرورها المحب لشهواتها مثل غفلته عن الموت، فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

ولذلك كان مما تعالج به النفس تذكر الموت الذي هو أثر القهر الإلهي، وقصر الأمل الذي هو أثر عن تذكر الموت.

وبقدر ما يقصر الأمل ويتذكر الإنسان الموت يكون قيامه بحقوق الله أكثر ويكون الإخلاص في عمله أتم، ولا يظنن ظان أن قصر الأمل يحول دون إعمار الدنيا، فالأمر ليس كذلك، بل عمارة الدنيا إنما هي مع قصر الأمل؛ لأن فيه القيام بحق الله تعالى وتطبيق أوامره، وذلك هو عمارتها.

إن قصر الأمل وتذكر الموت ينقلان الإنسان من قلب معلق بالدنيا إلى قلب متجاف عن الدنيا، مقبل إلى الآخرة، ومن هنا يأخذ ذكر الموت وقصر الأمل أهميتهما كوسيلة من وسائل تزكية النفس وطهارة القلب.

والحق أنه ينبغي على كل إنسان يريد أن يطهر قلبه الاهتمام بذكر الموت وقصر الأمل، وينبغي أن يكون ذكر الموت وقصر الأمل من أوائل المفاهيم التي يتربى عليها قلبه بعد توحيد الله والقيام بحقوق العبودية.

١- الناس وذكر الموت:

إن الناس في موضوع ذكر الموت ثلاثة أصناف:

الأول: المنهمك في الدنيا، الناسي للموت تمامًا حتى لو ذُكّر به.

والثاني: من كانت نفسه تذكر الموت عندما يذكره أحد به أو إذا ما زار القبور أو حين يذكر عزيزًا عليه قد مات، أو عند دفن ميت أو صلاة جنازة أو مثله.

الثالث: هو الذي لا ينسى الموت أبدًا ويذكره دومًا، وهو المؤمن قوي الإيمان.

فأما الأول: فلا يذكر الموت وإذا ذكره فيذكره ليتأسف على فوات دنياه، وهذا وللأسف ما يحصل لكثير من الناس اليوم، فهم لا يذكرون الموت أبدًا وإذا ذكروه فإنما يذكرونه أسفًا على فوات دنياهم، ويكرهون المجالس التي يذكر فيها الموت، بل يعتبرون ـ في كثير من الأحيان ـ أن من يذكر الموت أمامهم سيئ الخلق وعديم اللياقة والأدب.

وهم قوم عمروا دنياهم وخربوا أخراهم فكرهوا ما يذكرهم بالخراب، بل كرهوا اليوم الذي يقربهم إلى لقاء الله الذي نسوه وعصوه، وكأنهم في الدنيا بعيدون عن الموت في أي لحظة، أو كأنهم بعيدون عن الله وهو معهم أينما كانوا، ثم يوم القيامة يوفيهم أعمالهم كاملة غير منقوصة.

وينبغي على السائر في الطريق إلى الله أن يجتنب هذه المجالس التي تكره ذكر الموت أو أن يصلحها ويذكرهم بالله تعالى وبقوله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»[1]، ويحسن أن يعلمهم ذلك بالحسنى والتودد وحسن النصح لا بالتجهم والغضب وسوء الخلق.

وأما النوع الثاني: فهو الذي يتذكر الموت في أوقات وينساه في أوقات، فيتذكره عند تذكيره له أو عند حدوثه لمن يحبه أو غير ذلك كما سبق.

وهذا النوع كأكثر حال الطيبين وكثير من شباب الصحوة الإسلامية، فهم لا يكرهون ذكر الموت ولكنهم لا يكثرون من ذكره، وقد تمر عليهم الأيام الطوال

---

(١) رواه أحمد والترمذي وهو صحيح، صحيح الجامع ١٢١٠.

وهم ناسون له ولا يتذكرونه إلا في تذكرة أو موعظة أو جنازة أو موت حبيب، وهم في ذلك يفعلون عجبًا، فتراهم في غاية التأثر أثناء الموعظة وأثناء الجنازة والدفن، ثم ما يلبث أحدهم بعد انتهاء الجنازة ـ وربما في طريق العودة ـ أن ينساه تمامًا، ويأخذ في الضحكات والحكايات، وكأنه لم يدفن ميتًا قبل قليل أو لم يمر الموت أمامه قبل لحظات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم تمكن معنى الموت في قلبه، ويدل على ضعف أثر الموت في بنائه الروحي والتربوي، كما يدل على سهولة تلاعب الشيطان به إذ ينسيه التذكرة سريعًا جدًا، وهذا يُخشى على قلبه؛ إذ إن كثيرًا من الصالحين قد حذر من ضعف تأثير التذكرة على القلوب بأنها نذير الهلكة.

قال إبراهيم بن أدهم: «إن من علامة سواد القلوب ألا يجد في التذكرة مألمًا».

وقال عبد الله بن مطرف: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه.

وجدير بأهل العلم والدعوة أن يتخذوا مثل هذه الأوقات ـ أوقات الموت ـ ليعلموا الناس ويذكرونهم بالموت وبقصر الأمل، ويعطونهم دروسًا عملية بالتأثر والتذكر والتدبر.

وأما الثالث: فهو المؤمن قوي الإيمان وهو الذي مفهومه عن ذكر الموت حق ومفهومه عن قصر الأمل حق، وهو الذي ينبغي أن نربي شبابنا وأبناءنا على مثل فهمه ومثل عمله.

فإنه يذكر الموت دائمًا؛ لأنه موعد لقائه بحبيبه، والمحب لا ينسى أبدًا موعد لقاء الحبيب، وهو يستبشر بذكر الموت والآخرة لأنه سعى في تعمير آخرته وداوم في غرس أشجار جنانه، بل هو يتوق بروحه إلى الجنان، فيشم رائحتها أثناء سيره ورواحه، ويطير إليها طيران الآوي إلى بيته.

كما روي عن حذيفة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم: اللهم إن كنت تعلم أن الفقر كان أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من العيش فسهل عليّ الموت حتى ألقاك».

والصالح في الحقيقة من يفوض أمره إلى الله ولا يختار لنفسه موتًا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فإن النبي ﷺ نهى عن تمني الموت، ولكن كان من دعائه ﷺ: «**اللهم أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما علمت الموت راحة لي**». فهذا انتهى به الإيمان إلى التسليم والرضا.

٢- موت قريب:

إن الموت قريب من كل إنسان كقرب شريانه الدموي، ولكل نفس أجل وهو أجل محتوم وغير مرتبط بعمر ولا صحة ولا حال، فقد يموت الصغير كما يموت الكبير وقد يموت الصحيح كما يموت السقيم، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فالله سبحانه قضى الموت على كل نفس فقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وإنما الصالح التقي من بادر بالصالحات من الأعمال قبل أن يدركه الموت، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[١].

وقال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[٢] أي: أنه لا يغتنمهما، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما.

---

(١) صحيح الجامع ١٠٧٧.

(٢) رواه البخاري، حديث ٦٠٤٩، باب ما جاء في الصحة والفراغ عن عبد الله بن عباس.

وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة، فإنما هي الأنفاس فلو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرءًا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤]. يعني: الأنفاس، آخر العدد: خروج النفس، آخر العدد: فراق الأهل، آخر العدد: دخولك في قبرك.

٣- احذر «سوف»:

إن سبب تأخير الإنسان في المبادرة بالصالحات من الأعمال قبل الموت هو أنه يأتنس بالدنيا وشهوتها، فيملي له الشيطان، ويسوف له، ولا يزال يسوف ويؤخر ويخرج من شغل إلى شغل ومن تسويف إلى تسويف، وهكذا باستمرار يوم يؤخر يومًا، وشغل يفضي إلى شغل إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأكثر أهل النار صياحهم من «سوف»، يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدًا، وإنما يزداد بطول المدة ارتباطه بالدنيا وغرقه فيها، ومن ظن أن للخائض في الدنيا فراغًا فقد وهم، قال الصالحون: «هيهات فما يفرغ منها إلا من طرحها بعيدًا عنه».

٤- ضحك كالبكاء:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: أضحكني: مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس مغفولاً عنه، وضاحك بملء فيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه[1].

إن ضحك أبي الدرداء رضي الله عنه، لهو ضحك التعجب والاستغراب، ضحك الألم والحسرة، على صورة تتكرر في كل ساعة في حياة الناس، صورة الغفلة

(١) الزهد لابن المبارك، ص ٨٤، ٥٥٤.

التي تحجب الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطفهم ويتخطف غيرهم ممن حولهم، فأحدهم يؤمل الدنيا واسمه مكتوب غدًا في الأموات، والآخر غافل وملك الموت يطلبه، والثالث ضاحك بملء فيه وليس يبالي هل يقبضه الله إليه راض عنه أم غضبان... إنه ألم أضحك أبا الدرداء ولكنه ضحك ولا شك كالبكاء.

٥- تذكر الموت دأب الصالحين:

فهو سمتهم ودأبهم؛ كثرة ذكرة الموت، وهو طريق السلف الطاهرين.

قال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحًا.

وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيرًا له من الموت، وكان يقول: لا تشعروا بي أحدًا وسلوني إلى ربي سلاً.

وكان الربيع قد حفر قبرًا في داره فكان ينام فيه كل يوم ليذكر الموت وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

وكان أبو هريرة ﷺ إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فإنا على إثرك ماضون.

وكان مكحول يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنا رائحون. موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول، والآخر لا يعتبر.

وكان الأعمش يقول: كنا نشهد الجنائز ولا نعرف من يعزي؛ لأن الحزن قد عم الناس كلهم.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا.

وكان أويس يقول: يا أهل الكوفة، توسدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم.

وكان الربيع يقول: أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله.

وكان عون يقول: كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومنتظر غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

وقال أبو عبد ربه لمكحول: يا أبا عبد الله أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة، قال: فأحب الموت؛ فإنك لن ترى الجنة حتى تموت.

وقال رجاء بن حيوة: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا ترك الحسد والفرح.

وقال بشر بن الحارث: إذا ذكرت الموت ذهب عنك صفو الدنيا وشهواتها.

وكان محمد بن واسع إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرحل في كل يوم إلى الآخرة مرحلة؟!

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله تعالى.

٦- كيف يتربى الإنسان على ذكر الموت؟

أولاً: أن يتربى الإنسان على أن يفرغ قلبه من كل شغل في الدنيا، ويضع في قلبه انشغالاً بدلاً منه بالآخرة.

ثانيًا: ألا يكثر فرحه بشيء من الدنيا أقبل عليه أو بنعمة حصلت له، وألا يزيد حزنه وألمه بمشكلة حصلت له أو بمصيبة حدثت له، بل يكون وسطًا بين ذلك، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهو إذا فعل ذلك كسر سعادة قلبه بالدنيا.

ثالثًا: أن يذكر الناس الذين كانوا مثله، ثم جاءهم الموت، ويذكر الذين كانوا أقوى منه وأعلم منه وأفضل منه وأغنى منه، ويتذكر مصارعهم تحت التراب.

رابعًا: أن يستحضر دائمًا صورة من عمَّر في الدنيا وكان له مال أو قوة أو جمال أو ثقافة أو فصاحة أو شهرة، ثم يقارن صورته في الدنيا وصورته بعد موته، ويتأمل كيف محا التراب الآن حُسن صورتهم، وكيف تبددت أجزاؤهم وانفصلت في قبورهم، وهو قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «إذا ذكر الموتى فعد نفسك كأحدهم».

خامسًا: أن يتدبر في أن من مات وترك مالاً قد ورثه ورثته ولم ينتفع به بعد موته، إلا ما كان عنه صدقة جارية وهو قول النبي ﷺ: «**أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر**»[1].

ويعلم كيف أن من مات ترملت زوجته وتيتم أولاده، وكيف خلت من الموتى دورهم وصاروا إلى دور جديدة، وكيف خلت منهم مجالسهم ومساجدهم، وكيف انقطعت آثارهم وهو قول النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[2].

وقوله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يرجع أهله وماله ويبقى عمله**»[3].

وتدبر ذلك فعل الصالحين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره».

ونظر أحد الصالحين إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا.

سادسًا: أن يُعود نفسه ويعوده معلمه على اتباع الجنائز وزيارة القبور للعظة والاتعاظ وتذكر الموت، وأن تكون الزيارة إما في صحبة أهل علم وخير أو في وحدة، وأن يحرص على رؤية دفن الموتى لأنها لحظة مؤثرة لمن كان له قلب.

---

(١) رواه البخاري، ١١/ ح٦٤٤٢، فتح.

(٢) رواه مسلم ١/ إيمان/ ١١٢ - ١١٣/ ح١٩٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه، عن أنس رضي الله عنه. البخاري (١١/ ح٦٥١٤/ فتح)، ومسلم (٤/ زهد/ ١٢٧٣/ ح٥).

ومن المربين من يجمع طلبته ويذهب بهم إلى القبور ويعظهم هناك ويذكرهم بالموت هناك، ويقوم إعوجاجهم ويدفعهم للعمل للآخرة.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر بالآخرة**»[١].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»[٢].

وعن البراء بن عازب قال: إن النبي ﷺ أتى قبرًا فجثا عليه، فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا قال: «**أي إخواني لمثل هذا فأعدوا**»[٣].

سابعًا: الذهاب لزيارة المرضى والجرحى وأقسام الفشل الكلوي وأقسام الأورام ومثل ذلك فإن ذلك مما يرقق القلب ويذكر الموت ويباعد القلب عن الدنيا ومتاعها، ويحسن بالمربي هنا أن يصطحب معه من يعلمهم، وعليهم التودد للمرضى وحسن نصيحتهم وقضاء حوائجهم[٤]، وأن يجالسوهم فيحتسبون نية زيارة المرضى، وأن يذكروهم بالله وبالتوبة وبالإكثار من الذكر، ويأمروهم بالصبر، ويحرص المربي على تكرار ذلك كثيرًا، فإنه فضلاً عن كونه يذكر للموت فإنه من الأعمال الصالحات التي ينبغي أن يتربى عليها الشاب ويداوم عليها.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «**يا**

---

(١) صحيح الجامع، ٤٤٦٠. (٢) رواه مسلم ٢/ جنائز/ ٦٧٢/ ح ١٠٦.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وهو صحيح، السلسلة الصحيحة ١٧٥١.

(٤) وكان لنا جار صالح ظل أكثر من عشر سنين يذهب يوميًا للمستشفى بأقسامها كلها، ويتفقد أحوال المرضى ويقضي لهم حاجاتهم كلها من ماله الخاص ويواسيهم لا يكل ولا يمل، حتى شاء الله له أن يلقاه على ذلك العمل الصالح وغيره، رحمه الله.

أخا الأنصار، كيف أخي سعد بن عبادة؟» فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «**من يعوده منكم؟**» فقام وقمنا معه، ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه»(١).

ثامنًا: أن يبدأ في الاستعداد للموت بترك صدقة جارية أو علم ينتفع به، ومثال ذلك.

تاسعًا: ومن الوسائل أن يجلس في خلوة ويتصور نفسه في قبره.

عاشرًا: ومن الوسائل أن يتذكر إخوانه الذين ماتوا ويتخيلهم، ويسأل نفسه متى يلقاهم وبأي حال يلقاهم؟

حادي عشر: ومن الوسائل أن يكتب ورقة ويعلقها أمامه أو قريبًا منه ويكتب فيها: أحسن عملك فقد دنا أجلك.

٧- عمر بن عبد العزيز يصف الموقف:

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «قبور خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان ومصت الدم وأكلت اللحم، ترى: ما صنعت بهم الديدان؟

محت الألوان، وعفرت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء، ترى: أليس الليل والنهار عليهم سواء؟

أليس هم في مدلهمة ظلماء؟

كم من ناعم وناعمة أصبحوا وجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا حتى عادت العظام رميمًا.

---

(١) رواه مسلم ٢/جنائز/٦٣٧/ح١٣.

قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة إلى المضائق.

يا ساكن القبر غدًا، ما غرك من الدنيا؟

أين دارك الفيحاء؟ وأين رقاق ثيابك؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى؟ وبأي خديك يبدأ البلى؟

يا أيها الناس: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب.

وقال لمن رآه لتعجب من نحل جسمه وتغير لونه: كيف بك لو رأيتني بعد ثلاثة أيام من موتي، وقد دليت من حفرتي، فسال حدقي على وجنتي، وسال منخري صديدًا ودودًا...».

٨- علامات على نجاح التربية على قصر الأمل وذكر الموت:

- كثرة ذكر الموت في حديثه وكلامه وتحسره على حاله إذا فاجأه الموت.
- تكراره لما سبق من أعمال وحده أو مع آخرين، كزيارة المرضى والقبور.. إلخ.
- وسطيته في أفراحه وأحزانه.
- اهتمامه بالوقت وعدم إهداره، بل استغلاله في الطاعات.
- عدم اهتمامه بالادخار والاكتناز والزينة، واهتمامه بالصدقة.
- قلة كلامه عن آمال الدنيا وأمنياتها وكثرة كلامه عن الجنة.
- تأثره بالموعظة عن الموت والقبر وأهواله.

٩- حديثان يوضحان المنهج:

الأول: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا مربعًا، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خُططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من

جانبه الذي في الوسط، فقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيطًا به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[١].

الثاني: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»[٢].

١٠- ملاحظات في التربية على ذكر الموت:

يحسن أن يحدد المعلم (أو يحدد الإنسان لنفسه) فترة للتركيز على هذا الموضوع ولتكن شهرًا مثلاً أو أكثر، ويكثر فيها من ذكر هذا الموضوع بجوانبه التي ذكرناها، ويحاول أن يعد في ذلك موضوعات تشمل جميع جوانب الموضوع، وإليك نموذجًا للموضوعات التي يقترح الحديث حولها لتناول ذكر الموت:

أ - مصيبة الموت وعظمها، وموت الفجأة وخوف السلف منها واستعدادهم لها.

ب - شرح حديث البراء بن عازب في الموت والواجب تجاه المحتضر.

جـ - موت النبي ﷺ وموت كبار الصحابة.

د - الاستعداد للموت.

يعتمد المربي من وسائل التأثير لهذا الموضوع مجموعة وسائل منها:

أ - الموعظة المباشرة ـ كما سبق ـ.

ب - شريط الكاسيت الذي يصطحبه المتعلم لبيته أو عمله.

جـ - الزيارة الميدانية للقبور وأماكن الاتعاظ.

د - استغلال المناسبات المؤثرة كموت قريب أو حبيب.

---

(١) رواه البخاري ١١/ ح ٦٤١٧/ فتح.

(٢) رواه مسلم، حديث ١٦٢٧، كتاب الوصية، عن ابن عمر.

هـ - اختيار الآيات القرآنية التي تتحدث عن الموت، ودراستها دراسة جيدة.

يراعى أن تكون التذكرة على فترات لحديث ابن مسعود: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا»[1]، فمن السنة ـ بعد فترة التعليم ـ أن يباعد الإنسان بين فترات مواعظه خوفًا أن يسأم الناس.

يحسن اختيار الموعظة الحسنة عند الوعظ بالموت، وليس من الأدب ولا من الدعوة من شيء اختيار الألفاظ الثقيلة أو اتهام الناس بالمعصية أو الفسق مثل ما يفعله بعض الوعاظ.

يحسن الجمع بين التخويف من الموت وبين تحبيب لقاء الله تعالى والجزاء الحسن بعد الموت والشوق إلى الجنة، ولا يكون التذكير بالموت كله تخويفًا وتهديدًا فقط.

ينبغي أن يكون المعلم والمربي هو أكثر الناس تأثرًا بما يعظ به وأكثر الناس خوفًا من الموت، وأكثرهم عملاً بقوله ونصيحته، وإلا صار كلامه كله بلا قيمة ولا أثر، بل ربما عاد بأثر سلبي على المتعلم.



---

(١) رواه البخاري، حديث ٧٠، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معدودة، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم ٢٨٢١.

ثالثًا: الزهد في الدنيا والتقلل منها

وهي الوسيلة الثالثة من وسائل التربية القلبية، ولها أكبر الأثر على طهارة قلب الإنسان وخلوصه للآخرة وفراغه للعبادة والتقرب إلى الله سبحانه.

قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ويجب أن يهتم المربون، بأمر التقلل من الدنيا أيما اهتمام، ذلك أن هذا العصر هو عصر الانشغال بالدنيا بصورة لم يسبق إليها.

فالمرء لا يكتفي فيه بشغل واحد يقضي فيه بعض يومه، بل يشتغل اليوم كله، والشاب يرى أنه كي ينال آماله لابد له أن ينشغل طول يومه، وعلى الجانب الآخر فإن غني اليوم لا يستطيع أن يفرغ نفسه من الانشغال بمتابعة ماله وأعماله، والرجل الوسط في كل ذلك يحتار بين أن يعمل لمستقبل نفسه وأولاده أو يكتفي بما يتكسبه؛ فيغلب عليه خوفه على المستقبل وينهمك في جمع الدنيا.

وياليت الأمر اقتصر على جمع المال؛ فترى الذين انشغلوا أيامهم بجمع المال لا يقنعون به فقط، بل يتعدونه بالانشغال بأمور أخرى تابعة له أو غير تابعة؛ فينشغل أحدهم بتحصيل المركز والجاه والسلطة، وينشغل الآخر بالزينة وبناء الدور وتشييد القصور، وينشغل الثالث باللهو والعبث والبحث عن السعادة - في ظنه - وهكذا...

ويفاجئ الموت الجميع، فيروا أنفسهم جميعًا في مساكن مظلمة، وحفرة عتمة، ولا شيء حولهم مما بذلوا فيه أيامهم سوى التلال الهامدة، ومشهد الحساب!!

المفاهيم الأساسية التي يجب التأكيد عليها في تربية الشباب المسلم على الزهد في الدنيا والتقلل منها :

١- مقام الدنيا ومنزلتها عند الله:

إن الله سبحانه قد ذم الدنيا وجامعها ومحبها والمنشغل بها، ولم يجعلهم من أهل التقى والصلاح، كما ذمها رسول الله ﷺ وذم جامعها وحذر منها... وإليك دليل ذلك:

قال سبحانه: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]

وقال سبحانه: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال عز وجل: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني عن أبي هريرة (صحيح الترمذي برقم ١٨٩١).

وعن سهل الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[(١)].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كَنَفَتيه، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا أنه أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[(٢)].

٢- الركون إلى الدنيا ليس من أخلاق الصالحين:

إن الله سبحانه جعل الركون إلى الدنيا وطول الأمل فيها والتنعم فيها ليس من أخلاق الصالحين.

قال سبحانه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

قال الحافظ في الفتح:

«هذا تنبيه على إن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين»[(٣)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي وهو صحيح، صححه الألباني (الصحيحة ٩٤٣).

(٢) رواه مسلم ٤/ زهد/ ٢٢٧٢/ ح٢ «وكنفتيه: يعني عن جانبيه، والأسك: الصغير الأذن أو مقطوعها».

(٣) انظر: فتح الباري ج١١ ص٢٣٩/ دار الريان للتراث.

(٤) رواه مسلم ٤/ زهد / ٢٢٧٢/ ح١.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لقد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافًا وقنعه الله بما آتاه»**[(٢)].

وعن فضالة الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع»**[(٣)].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدنيا فقال رسول الله ﷺ : **«ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان إن البذاذة من الإيمان»**[(٤)].

٣- لا تضع أملك أمامك، وعش كأنك غريب أو مسافر:

لقد نهى النبي ﷺ أن يؤمل الإنسان في دنياه، بل أمره أن يعيش كأنه غريب أو مسافر، وأمره ألا يضع أمله أمامه لأنه ربما يقطع عليه الموت.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»**[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ح٢٣٧٦) وأحمد في مسنده (٣/٤٥٦، ٤٦٠) صححه الألباني صحيح الترمذي رقم ١٩٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢/ زكاة/ ٧٣٠/ ح١٢٥.

(٣) رواه الترمذي ٤/ ح٢٣٤٩ وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد ١٩/٦ وإسناده صحيح (انظر: الصحيحة ١٥٠٦).

(٤) رواه أبو داود (٤/ح٤١٦١) وابن ماجه بإسناد صحيح، انظر: الصحيحة (٣٤١)، (والبذاذة هي: ترك فاخر اللباس وترك الترفه).

(٥) متفق عليه، البخاري رقم ٣٥٨٥، باب دعاء النبي ﷺ : **«أصلح الأنصار والمهاجرة»**، ومسلم رقم ١٨٠٤ عن سهل بن سعد، باب غزوة الأحزاب.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»(١).

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا، ولا تُحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير موطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله...».

إن الدنيا أمل أبيض وضاء، كلما أضاء وبرق زهت في نظر صاحبه الأموال والحسان والعطور والقصور والمناصب والشهادات، فينسى مع نظره المفتون متطلبات دينه وأمته، ويغمض عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود ولا يعود أنفه يشم رائحة شواء دعاة الإسلام في الهند، ولم تعد أحاسيسه تشعر باستباحة الحرمات في شتى بقاع الأرض، لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء إنما يلفه محيط أسود حالك من علامات النهاية(٢)...

إن الذي يعيش مترقبًا النهاية يعيش معدًا لها، راضيًا بها، حتى إذا جاءت لم يتحسر.

٤- حال النبي ﷺ وصحبه:

لقد كانت حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه تطبيقًا عمليًا لترك الدنيا والتقلل منها والزهد فيها وقصر الأمل فيها، ولم يكونوا يحرصون على متاع منها ولا مال ولا تشييد بناء، وإنما كان حرصهم منها على التزود بالتقى والعمل الصالح.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ح٦٤١٦/ فتح).

(٢) الرقائق «باختصار» من ص ١٠١: ١٠٣.

فأما عن حاله ﷺ، فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[(١)].

فقد كان بيته ﷺ أقل البيوت متاعًا وأثاثًا وكان يفترش الحصير تارة ويفترش الأدم (الجلد) تارة، وكان عنده ركوة للوضوء وكساء ورداء أو كساءان ورداءان أحدهما للعيش والآخر للقاء الوفود.

وكان ﷺ معرضًا عن الدنيا، فلربما أهداه بعض الناس عباءة أو جبة أو ثوبًا فأهداه أسامة بن زيد أو غيره، وكان في بيته لا توقد النار على اللحم أو الطبخ إلا في أيام متباعدات، ﷺ، ومن حاله تعلم أصحابه، فكانوا خير قدوة لخير قوم يقتدون.

ولا شك أن حياة الزهد والتقلل من الدنيا هذه هي خير حياة، ذلك لأن الله رضيها لهم ولو كان خير الحياة في الغنى والتنعم لما رضي الله سبحانه بها لنبيه ﷺ، لأن النبي ﷺ أحب الخلق إلى الله وأكرمهم عنده.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ»[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ح٢٣٧٧، وأحمد ١/ ٣٩١ وصححه الألباني، الصحيحة (٤٣٩، ٤٤٠).

(٢) أخرجه مسلم ٤/ زهد/ ٢٢٨٥/ ح٣٦، والترمذي وأحمد، والدقل: رديء التمر.

(٣) رواه البخاري ومسلم، البخاري ٥٠٥٩ كتاب الأطعمة، ومسلم ٢٩٧٠.

وعن أبي بردة رضي الله عنه قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا فقالت: «قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين»(١).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلفُ الخبز والماء**»(٢).

وعن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي إن كنا ننظر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات»(٤).

وكذا كان أصحابه رضوان الله عليهم.

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة ـ وهم أصحاب الصفة ـ حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم فقال: «**لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (وملبد: يعني مرقع) حديث ٢٠٨٠، باب التواضع في اللباس.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ح٢٣٤١) وقال: صحيح، وأحمد (ح ٤٤٠/ شاكر) وإسناده صحيح، لكن ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم ٤٠٦ (والجلف: غليظ الخبز).

(٣) متفق عليه، البخاري ٢٤٢٨، ٦٠٩٤، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم ٢٩٧٢.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٠٨٥، باب فضل الفقر.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي وصححه الألباني (الصحيحة ٢١٦٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداءٌ، إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساق، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة، وهذا السمر حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط»[2].

وقال أنس رضي الله عنه: «رأيت عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها على بعض».

وكان أغنياء الصحابة رضي الله عنهم أيضًا عزوفين عن الدنيا، فيكثرون من الصدقة غير ناظرين إلى ما يبقى لهم، وكانوا إذا قرب إليهم متاع أو طعام ذكروا فناء الدنيا ولقاء الله، فعافوا الطعام والشارب وأقبلوا على البكاء، وهذا معروف مشهور من أحوالهم تمتلئ به كتب سيرهم وتراجمهم، رضوان الله عليهم أجمعين:

قال الحسن: خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة.

وقال ابن الجوزي: روى أحمد عن مصعب بن سعد قال: قالت حفصة لعمر: يا أمير المؤمنين، هلا اكتسيت ثوبًا هو ألين من ثوبك، وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك؛ فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير! فقال: إني سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش، وكذلك أبو بكر، فما زال يُذكرها حتى أبكاها، فقال لها: أما والله لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرضي.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ح٤٤٢/ فتح).

(٢) متفق عليه، البخاري ٥٠٩٦، كتاب الأطعمة/ باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ومسلم حديث ٢٩٦٦. الحُبلة والسَّمر: نوعان من شجر البادية.

وقال علي بن ربيعة: إن عليًا بن أبي طالب ﷺ جاءه ابن التياح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء - يريد الذهب والفضة - فقال: الله أكبر، فقام متوكئًا على ابن التياح حتى قام على بيت المال فقال: يا ابن التياح عليّ بأشياخ الكوفة، قال: فنودي في الناس، فأعطى جميع ما في بيت المال وهو يقول: يا صفراء، يا بيضاء غُري غيري، ها، وها، حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين.

وعن عمرو بن قيس أن عليًا رئي عليه إزار مرقع، فعاتبوه أن يلبسه فقال: يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب.

وروى أحمد أن عمر لما قدم الشام تلقاه الناس وعظماء الأرض فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك. فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك، فقال: يا أمير المؤمنين هذا يبلغني المقيل.

وروى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائمًا فبكى وقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وإنا خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك طعامه.

وأتي عبد الرحمن بن عوف بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت بكى عبد الرحمن بن عوف، فقالوا: يا أبا محمد ما يبكيك؟ فقال: مات رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير.

وعن سعيد بن حسين قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده[1].

---

(١) صفة الصفوة ١/١٨٥.

وعن جعفر بن برقان قال: أعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف بيت[١].

وعن جويرية قالت: باع الزبير دارًا له بستمائة ألف فقيل له: يا أبا عبد الله غُبنت، قال: كلا والله لتعلمن أني لم أُغبن، هي في سبيل الله.

وقال ابن الجوزي عن نهيك: كان الزبير يأتيه ربح تجارته وأملاكه كل ليلة، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان رسول الله ﷺ يسميه «أبا المساكين»[٢].

٥- لا تلتفت إلى المتاع:

إن ترك الدنيا والزهد فيها إنما يتأتى بعدم التعلق بها وعدم انتظار متاعها، ولو جاء متاعها لم يبال به ولم يلتفت إليه، بل هو حاله لا يتغير إذا جاءه فقر أو غنى، فالمال في يده لا يمس قلبه، ويستوي عنده وجود المال وعدمه، ويستوي عنده مديح الناس وذمهم له، ويستوي عنده حصول الجاه أو عدمه.

قال يونس بن ميسرة: ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة، وحالك إذا لم تُصَب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

وقيل لابن المبارك: أنت زاهد، فقال: الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) رواه ابن ماجه، ٤١٢٥، باب مجالسة الفقراء، والترمذي ٣٨٥٥، أبواب المناقب، ولكن ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٦١٥٢.

وقال الحسن البصري: أدركت أقوامًا ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي في أعينهم أهون من التراب.

وهذا كتاب كتبه الحسن إلى عمر بن عبد العزيز يوصيه وينصحه، قال:

«أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن - سفر - ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تُذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة، وكن أسَرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ.

فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها - سبحانه - منذ خلقها، ولقد عُرضت على نبينا ﷺ مفاتحها وخزائنها فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه.

زواها الله عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، أفيظن المغرور بها أنه أكرم ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر..»[1].

٦- مُتألم يا طالب الدنيا، مُتألم!!

إن كل من طلب الدنيا وسعى لها تعذب وتألم بها، فهم يتعذبون بالحرص على جمعها وبالتعب الشديد في تحصيلها ومقاساة أنواع المصاعب والآلام والمشاق في طريق جمعهم للمال والمتاع، فأنت تجد من حصَّلها يحكي ذكرياته فيقول: «لطالما تألمنا وتعبنا وتعذبنا حتى جمعنا المال»، ولكنك تراه يظل متألمًا حتى يموت.

---

(١) ووالله إنها لرسالة جامعة، من تدبر فيها وعمل بها كفته شر دنياه، فتدبرها مرات.

فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه وهو حريص بجهده وقوته على جمعها.

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(١).

قال ابن القيم(٢) رحمه الله: «ومن أبلغ العذاب ـ لطالب الدنيا ـ تشتيت الشمل وتفريق القلب وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن اكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه، وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يقول الله تعالى: ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تتفرغ لعبادتي ملأت يديك شغلاً ولم أسد فقرك**»(٣)، قال رحمه الله: وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومقاساة معاداة أهلها كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب»، قال: ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي؛ وذلك أن محبها لا ينال منها شيئًا إلا طمت نفسه إلى ما فوقه، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**لو كان لابن آدم واديًا من ذهب لتمنى أن يكون له واديان، ولا يملا عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ٣٣١٣. وقال الإمام الألباني ـ رحمه الله ـ: «راغمة: أي مقهورة، والحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محالة إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب، ومن طلب الدنيا يأتيه بتعب وشدة» صحيح ابن ماجه جـ ٢ ص٣٩٣.

(٢) إغاثة اللهفان - ابن القيم ص ٧٦.

(٣) رواه الترمذي وقال: حسن، ورواه ابن ماجه وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ٣٣١٥.

(٤) البخاري ٦٠٧٤ باب ما يتقى من فتنة المال، ومسلم ١٠٤٨، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا.

٧- أنت وما تحب:

إذا كان يوم القيامة جمع الله سبحانه بين كل إنسان وما كان يحب من دون الله سبحانه ؛ فصاحب المال المحب له الذي أضاع عمره في جمعه يُجمع مع ماله الذي لم ينفقه في سبيل الله ولم يخرج زكاته، ويتمثل له ماله ثعبانًا يلدغه ويكوى بماله من وجهه وظهره.

ومن أحب صاحبًا واتبعه في غير مرضاة الله سبحانه جمعه الله معه يوم القيامة، فخسرا جميعًا، والذين توادوا في الدنيا على الذنب وتجمعوا عليه يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]

ويقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]

وقال سبحانه: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يمثل لصاحب المال ماله شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمتيه** - يعني شدقيه - **يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ويصفح له صفائح من نار يكوى به جنبه وجبينه وظهره**»[1].

وعن عبد الله بن مسعود، وأنس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[2].

---

(١) البخاري ١٣٣٨، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري ومسلم، البخاري برقم ٥٨١٦، باب علامة الحب في الله، ومسلم برقم ٢٦٤٠، باب المرء مع من أحب.

٨- الناس والدنيا:

الناس في الدنيا أربعة أصناف، كلها مذمومة إلا صنف واحد محمود:

فالصنف الأول:

نوع من الناس ضعيفو الثقافة، كثيرو الجهل، بالغو الغفلة، يصح أن نطلق عليهم «الجهلة»، هذا النوع يغفل عن عاقبته ومستقبله الأخروي، وصارت حياتهم لا أمل لها ولا هدف إلا أن يعيشوا أيامهم في الدنيا فيجهدوا أنفسهم لأجل كسب المال، ثم لأجل القوت والطعام والشراب، فهم يأكلون ليكسبوا، ويكسبون ليأكلوا، فلا هم تنعموا في الدنيا ولا هم تعلموا الدين.

فإنهم يتعبون أنفسهم نهارًا ليأكلوا ليلاً، وهو حال لا ينتهي، وسفر لا ينقطع إلا بالموت، فتجده يفارق الدنيا كأنه دخل أرضًا لغيره، فظل يعمل فيها ويتعب نفسه، وإذا تعب أكل وإذا أكل قام واشتغل حتى إذا جاع أكل، ثم مات في مكانه وأُخذ ودفن وكأن أحدًا لم يكن!!

والصنف الثاني:

نوع من الناس رأى أن المقصود من حياته في الدنيا أن يتنعم بها، ورأى أن سعادته في أن يتمتع بما فيها من شهوات، فنسوا أنفسهم واهتموا أكبر اهتمامهم بالنساء والشهوات، وسعوا بجهدهم إلى حب النساء وعشقهن وأدمنوا ذلك.

وقد يستطيع أحدهم أن يصل لمراده وقد لا يستطيع، وبذلوا أنفسهم لأكل ألذ الأطعمة، وترى أحدهم يشتري بماله الآلات الحديثة التي يشاهد من خلالها متعته وشهواته، فيشتري الطبق الهوائي ليرى الفجور في قنواته المختلفة، ويشتري «الفيديو» ليرى الأفلام الإباحية، ويشترك في الانترنت ليتابع كل شهوة جديدة، ويتابع المجلات المصورة بالصور الخليعة، وإذا سألته قال لك: دعني أمتع نفسي، فصار شعاره في الحياة أن يمتع نفسه بما يشتهي سواء عنده: أرضي ربه أم سخط.

والصنف الثالث:

نوع من الناس ظنوا أن سعادتهم في الدنيا لا تتحقق إلا في كثرة المال وجمعه وادخاره؛ فسهروا ليلهم وتعبوا نهارهم في جمع المال والكسب، فهم يتعبون في السفر ليلاً ونهارًا ويترددون على الأعمال الشاقة، ويحرصون على جمع كل صغير من المال، ولا يستقلون مالاً يجمعونه، ولا ينفقون مما يجمعون من المال شيئًا أبدًا إلا بشق الأنفس شحًا وبخلاً أن ينقص ذلك المال، وتراهم شحيحين بخلاء بهذا المال حتى على أبنائهم وزوجاتهم ووالديهم، وهذه لذتهم في دنياهم، وهذه طريقتهم حتى يدركهم الموت فيترك ماله لورثته.

فيكون للجامع تعبه ووباله وللوارث لذته وكسبه، ومن عجب العجاب أن جامع المال ينظر إلى أمثاله ممن ماتوا وتركوا المال ولا يعتبر أبدًا ويظل على حاله، ويدفنهم بيديه، ويعود يبكي على درهمه الذي أنفقه، فعجبًا!!

الصنف الرابع:

نوع آخر ظنوا أن سعادتهم في الدنيا في الجاه والمكانة والمنزلة وطاعة الناس له، وتواضعهم له وتوقيرهم إياه، فجعلوا حياتهم كلها إلى اتساع جاههم ومكانتهم ومراكزهم وسلطانهم.

وكلما انقاد لهم أناس أكثر كانت سعادتهم أكثر، ويرون أن ذهاب حياتهم مع ذهاب مناصبهم وسلطانهم، فتراهم لا يتصورون أنفسهم أبدًا بغير سلطان أو إمارة، وهم في سبيل ذلك يستحلون الوسائل، ويعتبرون أن غايتهم تبرر وسائلهم، وهؤلاء يجمعون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم.

أما الصنف الخامس:

وهو صنف الصالحين فهم الذين اتخذوا الدنيا معبرًا إلى الجنة واتخذوا صالح الأعمال فيها وسائل إلى رضا الله سبحانه ورحمته، ولم يبالوا بالدنيا، فزهدوا فيها

وتقللوا من الأخذ منها ولم يغرهم بريقها ولا زخرفها، فعاشوا أعزة باستغنائهم عن الدنيا وعن الناس وتعلقهم بالله الكبير المتعال.

قال سفيان الثوري: من سُر بالدنيا نُزع خوف الآخرة من قلبه.

٩- مَثَلُ الحياة الدنيا:

قال الله سبحانه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

ذاك مثل الحياة الدنيا، ماء ينزل فيختلط بنبات الأرض ويتركه هشيمًا تذروه الرياح، آيات تلقي في النفس معنى الفناء وصورته ومثله ومعنى الزوال وقلة الدنيا وهوانها.

قال بعضهم: فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكنه يختلط بنبات الأرض، والنبات لا ينمو ولا ينضج ولكنه يصبح هشيمًا تذروه الرياح وتذهب به، وما بين ثلاث جمل قصار ينتهي شريط الحياة، وبعد ذلك تقرر الآيات بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبدها الناس في الأرض والقيم الباقية التي تستحق الاهتمام.

فالمال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهي عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد، إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة، فما يجوز أن يوزن بهما الناس، ولا يجوز أن يقدروا على أساسهما في الحياة، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات.

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين، فإن الباقيات الصالحات خير ثوابًا وخير أملاً عندما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء.

١٠- حاجتنا من الدنيا:

ينبغي أن يتعلم الإنسان أن ما يحتاجه من الدنيا هو رعاية بدنه بالطعام الذي يكفيه حتى يمارس حياته وعباداته، وكساءً له يستر عورته ويحفظ وقاره ومروءته، ومسكنًا يأوي إليه ويرعى فيه أهله وولده، وأن ذلك إذا عود نفسه التقلل منه والتواضع فيه والقناعة به، اندفعت الهموم عنه وفرغ القلب وسهل عليه ذكر الآخرة واتجهت همته إلى الاستعداد لها.

وإذا تعدى الإنسان بالطعام والكساء والمسكن والمال قدر الحاجة المطلوبة كثرت الأشغال وكلما زادت زادت همومه وتشعبت غمومه في أودية الدنيا فتاه في إحداها وهلك.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا همَّ المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»[1].

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟**»[2].

وعن عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[3].

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه برقم ٣٣١٤ والمشكاة ٢٦٣.

(٢) رواه مسلم ٤/ زهد/ ٢٢٧٣/ ح٣، والنسائي ٦/ ح٣٦١٥.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ح ٢٣٤٦)، وابن ماجه (٢/ ح٤١٤١)، وانظر: الصحيحة (٢٣١٨).
وسربه: يعني نفسه وقيل: قومه.

ولقد كان العلماء يأمرون تلاميذهم بالتقلل في الملبس والمطعم والتواضع في السمت والمعيشة.

فعن الثوري عن أبي قيس عن هذيل بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، يا قوم فأضروا بالفاني للباقي[1].

وعن الأوزاعي عن بلال بن سعد أن أبا الدرداء قال: «أعوذ بالله من تفرقة القلب، قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يجعل لي في كل واد مال»[2].

وكان الحسن يعظ أصحابه يقول: والله لقد صحبنا أقوامًا كانوا يقولون: ليس لنا في الدنيا حاجة، ليس لها خلقنا، فطلبوا الجنة بغدوهم ورواحهم، نعم والله حتى أهراقوا فيها دماءهم فأفلحوا ونجوا، هنيئًا لهم، لا يطوي أحدهم ثوبًا ولا يفترشه، ولا تلقاه إلا صائمًا ذليلاً متبائسًا خائفًا، إذا دخل إلى أهله إن قرب إليه شيء أكله وإلا سكت، لا يسألهم عن شيء ما هذا وما هذا؟

وكان الثوري يعلم تلاميذه ذلك، فعن يحيى بن اليمان قال: سمعت سفيان الثوري يقول: العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا جذب الطبيب الداء إلى نفسه فمتى يداوي غيره؟

وعن علي بن المديني قال: دخلت منزل أحمد بن حنبل فما في بيته إلا بما وصف به بيت سويد بن غفلة رحمه الله من زهده وتواضعه.

وكان بعض أهل العلم يغضب إذا عرف من تلاميذه كثرة أثوابهم أو بحثهم عن طعام خاص مميز أو أثاث فاخر، ومن الدعاة من كان لا يبقي في بيته إلا ثوبين: ثوبًا يلبسه وثوبًا يغسله، فإن اشترى ثوبًا جديدًا تصدق بثوب من ثوبيه القديمين، فانظر كم في بيوتنا من أثواب؟ وكم من الفقراء في حاجة إلى أثواب؟

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ١/ ٨٥.

(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء ١/ ١٦٠.

١١- الدنيا والمال:

ينبغي أن يتعلم المسلم ألا يتعلق قلبه بالمال أبدًا، ولا يرتبط به زيادة أو قلة، ويعرف أنه ما أحب المال وتعلق به إلا تألم وتعذب وأضر بدينه، وأن نبيه ﷺ حذر من المال ومن جمعه وادخاره والتعلق به.

فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا توكي فيوك الله عليك**»(١) وتوكي يعني تدخري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لي مثل أُحد ذهبًا لسرني أن لا تمر عليّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لِدَيْن**»(٣).

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغِنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غِنى النفس**»(٥).

وعن فرات بن سليمان أن أبا الدرداء كان يقول: ويل لكل جماع فاغر فاه كأنه مجنون، يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده، لو يستطيع لوصل الليل بالنهار، ويْلُه من حساب غليظ وعذاب شديد.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ح١٤٣٣، فتح. ومسلم ٢/ زكاة/ ٧١٤/ ح٨٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦/ح ٢٨٨٧/ فتح.

(٣) رواه البخاري برقم ٦٨٠١، باب تمني الخير.

(٤) أخرجه الترمذي ٤/ ح٢٣٣٦، وأحمد، وصححه الألباني (انظر: الصحيحة ٥٩٢).

(٥) متفق عليه، (والعرض هو المال) رواه البخاري ٦٠٨١، باب الغنى غنى النفس، ورواه مسلم ١٠٥١، باب ليس الغني عن كثرة العرض.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: إنما أهلك من كان قبلكم هذا الدينار والدرهم وهما مهلكاكم.

١٢- اليأس مما في أيدي الناس دواء لمرض الدنيا:

عن سهل الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»[1].

ذلك لأن الحقيقة أنه ليس بأيدي الناس شيء مهما جمعوا ومنعوا، فكيف يغفل المرء عمن بيده كل شيء ويرجو من ليس بيده شيء؟!

وكان بعض المعلمين يعلم تلاميذه يقول لهم: اهربوا من خير الناس أكثر من أن تهربوا من شرهم، فإن خيرهم يصيبكم في قلوبكم وشرهم يصيبكم في أبدانكم، ولأن تصابوا في أبدانكم خير من أن تصابوا في قلوبكم، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك.

ومن الناس من يستقل أخاه بسبب قلة ماله، ويستعظم الآخر بسبب كثرة ماله، قال بعض أهل العلم: «توقيرك للغني وتحقيرك للفقير نفاق..».

فمن الناس من تجده يحسن البشر والبشاشة والأدب في لقاء الأغنياء ويحرص على معرفتهم ومجالستهم، في ذات الوقت الذي تجده فيه يسيء الأدب مع الفقراء ويستحي من مجالستهم والحديث معهم، ويخجل أن يراه الناس بين الفقراء والمساكين.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/ح٤١٠٢، وصححه الألباني (انظر: الصحيحة ٩٤٤).

(٢) متفق عليه، البخاري ٢٩، باب كفران العشير، ومسلم ٩٠٧، باب ما عرض على النبي ﷺ.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدِّ محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار**»[1] والجد هو الحظ والغنى.

١٣- نصائح للمربين:

ينبغي ولا شك على المربي أن يكون أهلاً للأمر بترك الدنيا والزهد فيها، فلا يستقيم أبدًا أن يأمر معلم بترك الدنيا وهو غارق فيها ومداوم على التعلق بزينتها، فلا يمكن أن يأمرهم بالتقلل من الأثاث وبيته يعج بأثاث لا أهمية له من كل نوع وشكل، ولا يمكن أن يأمرهم بالتقلل في اللباس وهو حريص على اقتناء كل جديد وحديث من الثياب الفاخرة، ولا يمكن أن يأمرهم بالزهد في المال وهو حريص على جمعه، شحيح في إنفاقه.

يحسن للمربي أن يعلم الناس تعليمًا تطبيقيًا لترك الدنيا، فيأمرهم بالإكثار من الصدقة على الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل وللمساجد ، وفي الدعوة في سبيل الله ولطلبة العلم الفقراء.

ويدعو كل مرب تلاميذه أن يجعلوا نصيب الصدقة كبيرًا، وربما دعاهم أن يجعلوا نصيب الصدقة يقارب أو يساوي نصيب إنفاقه على نفسه وولده، وإن تعذر عليه ذلك جعله نصف ما ينفق على نفسه، فإن تعذر جعله ربعه، وهكذا.. ويحرص على إخراجه خفية حيث لا يراه أحد ـ ما استطاع ذلك ـ.

يُدَرِّس المربي آيات القرآن للناس فيما يخص الحديث عن الدنيا ووصفها، وتكون هذه الدراسة دراسة متأنية من كتب التفاسير وشرح حديث النبي ﷺ وأقوال أهل العلم، ويطلب منهم عمل دراسات حولها.

(١) البخاري ٤٩٠٠، كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيتها لأحد إلا بإذنه، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (الرقاق)، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم ٢٧٣٦.

يحاول المربي استخدام القصص الواقعية في مسألة ترك الدنيا، كقصة قارون في سورة القصص، وقصة الرجلين في سورة الكهف، وكذلك القصص المعاصرة من الناس الذين جمعوا الدنيا ثم تركوها وذهبوا.

من الأخطاء التربوية أن تكتفي بمتابعة أحوال المتعلم في علاقته بالدنيا من خلال حلقة العلم التي يحضرها، وإنما ينبغي على المعلم متابعة حاله في عمله وبيته وفي شأنه ليقوم بتوجيهه ونصحه.

ينتبه المربي أن يراعي مسألة اقتناع الشخص بالفكرة قبل أن نطلب منه تطبيقها، فلقد رأينا كثيرًا من الناس يظل فترة في أول طريقه زاهدًا تاركًا للدنيا ثم ما يلبث أن يتغير حاله ويقبل عليها وينغمس فيها، وما ذلك إلا لكونه لم يتشرب المعاني ولم يحسن تعلمها وتطبيقها، وإنما كان يقلد غيره في ذلك أو إنه كان متأثرًا بجو معين من الحياة، فلما تغير لم يلبث أن تغير هو الآخر، أو غير ذلك.

١٤- هل يصلح الزهد مع النعمة؟

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «إن شغلته النعمة عن الله فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الله بل كان شاكرًا لله فيها، فحاله أفضل، والزهد فيها - عندئذ - تجريد القلب عن التعلق بها والطمأنينة إليها»[١].



(١) مدارج السالكين ٢/١٠.

رابعًا: البكاء من خشية الله

هي الوسيلة الرابعة من وسائل تربية القلب وتزكية النفس، إنه البكاء من خشية الله سبحانه خوفًا منه سبحانه وشوقًا إليه عز وجل، رغبة ورهبة، بكاء التقصير في حقه سبحانه؛ اعترافًا بالذنب وشعورًا بالفقر تجاهه سبحانه وتعالى.

وهذه وقفات مع البكاء كوسيلة من وسائل تطهير القلب، وقفات حداء على طريق التوبة والإنابة في صحبة كلام النبي ﷺ وفعل الصالحين، الذين طهروا بدموعهم خطاياهم وكانت حرارة الندم وصدق الدمع بوتقة صهرتهم فخرجوا ذهبًا خالصًا، وعسلاً مصفى.

١- القرآن والسنة يحثان على البكاء:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء: ١٠٩]

وقال تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠]

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة تهرق في**

(١) متفق عليه، (البخاري ٨/ح ٤٥٨٢/ فتح)، ومسلم (١/ مسافرين/ ٥٥١/ ح٢٤٧)، والخنين هو: البكاء مع صوت غنة يخرج من الأنف.

سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله تعالى وأثرٌ في فريضة من فرائض الله تعالى»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم**»[٢].

٢- الصحابة رضي الله عنهم البكاءون:

قال علي رضي الله عنه: رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا، بين أعينهم كَرُكَب المعزى قد باتوا سجدًا وقيامًا، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا تمادوا كما يميد الشجر يوم الريح، وهملت أعينهم بالبكاء، فوالله لكأني بالقوم باتوا غافلين.

وكان لعمر بن الخطاب في وجهه خطان أسودان من كثرة الدموع.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما أسفل عينيه مثل الشراك البالي من كثرة البكاء.

وكان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبكي كثيرًا، وكانت أمه تأتيه بالكحل، فكان يغلق عليه بابه ويبكي حتى رمدت عيناه.

وعن مسلم بن بشير قال: بكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي لبعد سفري وقلة زادي، أصبحت في صعود مهبطه جنة ونار، فلا أدري إلى أيهما يسلك بي.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن ٤/ ح١٦٦٩، وحسنه الألباني، صحيح الترمذي رقم ١٣٦٣ والمشكاة رقم ٣٨٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح ٤/ ح٢٣١١، والنسائي ٦/ ح٣١٠٨، وأحمد وصححه الألباني، صحيح الترمذي رقم ١٨٨١ والمشكاة ٣٨٢٨.

٣- بكاء عند تلاوة القرآن:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليّ القرآن**» قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**حسبك الآن**» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة، قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء، فقال: «**مروه فليصل**»[٢].

وعن حفص بن حميد قال: قال لي زياد بن جرير: اقرأ علي، فقرأت عليه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ١ - ٣]، فقال: يا ابن أم زياد، أنقض ظهر رسول الله ﷺ! فجعل يبكي كما يبكي الصبي.

وعن مزاحم بن زفر قال: صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى إذا بلغ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بكى حتى انقطعت قراءته ثم عاد فقرأ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾.

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت فضيلاً يقرأ سورة محمد ويبكي ويردد هذه الآية: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟

---

(١) البخاري ٨/ ح٤٥٨٢/ فتح.

(٢) متفق عليه (البخاري ٢/ ح٧١٣/ فتح)، ومسلم (١/ صلاة/ ٣١٣/ ح٩٤).

أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، وجعل يقول: ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ويردد: إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا ويبكي.

٤- بكاء الخوف من الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» وذكر منهم: «**ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[١].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون[٢].

وعن قبيص بن قيس العنبري قال: كان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى، فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي[٣].

وعن جعفر بن سليمان قال: حدثنا ثابت البناني قال: كنا نتبع الجنازة فما نرى إلا متقنعًا باكيًا أو متقنعًا متفكرًا.

وعن جعفر بن سليمان قال: بكى ثابت البناني حتى كادت عينه تذهب فجاءوا برجل يعالجها فقال - أي الرجل -: أعالجها على أن تطيعني، قال: وأي شيء؟ قال: على أن لا تبكي، قال: فما خيرهما إن لم تبكيا؟! وأبى.

وعن عيسى بن عمر: كان عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج على فرسه ليلاً فيقف على القبور فيقول: يا أهل القبور قد طويت الصحف وقد رفعت الأعمال، ثم يبكي ويصف بين قدميه حتى يصبح فيرجع فيشهد صلاة الصبح.

---

(١) متفق عليه (البخاري ٢/ ح٦٦٠/ فتح)، ومسلم (٢/ زكاة/ ح٩١).

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني (صحيح الترمذي ٢١٥٧).

(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٥٠.

وبكى عمر بن عبد العزيز فبكت فاطمة فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العبرة قالت له فاطمة: مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله عز وجل فريق في الجنة وفريق في السعير، فما زالا يبكيان.

وعن عباد الجشمي قال: قال كعب الأحبار: لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحب إلي من أن أتصدق بوزني ذهبًا[1].

٥- بكاء التقصير في حق الله:

عن نافع: كان ابن عمر إذا قرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه أنه تلا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: ٤١] فجعل ابن عمر يبكي حتى لثقت (ابتلت) لحيته وجيبه من دموعه[2].

وعن قتادة قال: كان العلاء بن زياد[3] قد بكى حتى غشي بصره، وكان إذا أراد أن يقرأ أو يتكلم جهشه البكاء.

قال الذهبي: عن محمد بن المنكدر أنه بينا هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى، فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله وسألوه، فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه، فقال: ما الذي أبكاك؛ قد روعت

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ١/٣٠٢. (٢) تهذيب سير أعلام النبلاء. ١/٢٥٥.

(٣) هو العلاء بن زياد بن مطر البصري، قال الذهبي: القدوة العابد، وكان ربانيًا تقيًا قانتًا لله بكاءً من خشية الله.

أهلك؟ قال: مرت بي آية، قال: ما هي؟ قال: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما.

قال الذهبي: كان ابن المنكدر يقول: كم من عين ساهرة في رزقي في ظلمات البر والبحر، وكان إذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه، ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسته الدموع.

وعن عطاء الخفاف قال: ما لقيت سفيان ـ الثوري ـ إلا باكيًا، فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقيًا، قال ابن وهب: ورأيته في الحرم بعد المغرب، صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع حتى نودي للعشاء.

وعن يحيى بن أبي بكير: قلت للحسن بن صالح[٢]: صف لنا غسل الميت؟ فما قدر عليه من البكاء.

عن محمد بن المبارك قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى.

٦- وبكاء بين يدي الله سبحانه:

عن إسحاق قال: قال الفضيل: طوبى لمن استوحش من الناس، وكان الله أنيسه، وبكى على خطيئته.

وقال أبو زرعة: حدثني أبو النضر إسحاق بن إبراهيم قال: كنت أسمع وقع دموع سعيد ابن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[١].

وعن أبي عبد الرحمن الأسدي قال: قلت لسعيد بن عبد العزيز: ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: يا ابن أخي وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به، فقال: ما قمت إلى صلاة إلا مثلت لي جهنم.

---

(١) سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى، قال الذهبي: هو إمام قدوة، توفي سنة ١٦٧هـ.

وعن المغيرة بن حكيم قال: قالت فاطمة بنت عبد الملك: لم أر من الناس أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربه من عمر، كان إذا دخل البيت ألقى بنفسه في مسجده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه ثم يستيقظ فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع.

وعن سلام بن أبي مطيع قال: أتى الحسن بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: ذكرت أمنية أهل النار: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ وذكرت ما أجيبوا به:

﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وذكر الذهبي: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق، يصير كأنه ثور منحور من البكاء، لا يجترئ أحد منا أن يسأله عن شيء.

٧- ترك البكاء خذلان:

قال أبو سليمان الداراني: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس، ولكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صدأ وصدأ القلب الشبع.

وعن ابن السماك قال: قال ذر لأبيه عمر بن ذر الهمداني: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت يا أبت سمعت البكاء من هاهنا وهاهنا؟ فقال: يا بني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

وعن مسعر عن عبد الأعلى التيمي قال: من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن لا يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نعت العلماء فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ... وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾.

٨- تائبون يغسلون بالدموع خطاياهم:

قال بكر بن عبد الله المزني: «من مثلك يا ابن آدم خُلِّي بينك وبين المحراب، تدخل منه إذا شئت وتناجي ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان، إنما طيب المؤمنين الماء المالح، هذه الدموع، فأين من يتطيبون به؟».

قلوب ندية رقيقة رفيقة، أثرت في عين خاشعة فأدمعت.

أولئك قوم استشعروا الخطر، فاستعدوا للسفر فوق أثباج أبحر من دموعهم فوصلوا إلى الشاطئ، يرجون السلامة.

إنه البكاء الصادق المخلص والذي تستعيد به النفس توازنها وقدرتها على السير في طريق الصالحين.

ولئن غسلت الدموع العين من كدرها، فلا شك أنها تغسل النفس من غيومها وغمومها.

٩- كيف نبكي وعيوننا حجر؟!

لا شك أنها شكوانا جميعًا، صعوبة البكاء وتحجر العين وجمود المشاعر.

قال معاوية بن قرة[١]: من يدلني على رجل بكاء بالليل، بسام بالنهار؟!

فقد ندر البكاء والبكاءون، بل قد صار من يبكي من خشية الله - اليوم - عجبًا يتعجب منه الناس، ويظنون به كل ظن إلا ظن أنه يخشى الله، وما ذلك إلا لقساوة القلوب وتحجر العيون وغربة الدين وقلة عدد الصالحين.

ولقد كان العلماء يقرنون بين البكاء والعلم، فيكون العلم هو مفجر البكاء وسببه، وكلما كثر العلم فأخلص لله كلما سهل البكاء وكثر وكان مخلصًا - هو الآخر - لله.

---

(١) قال الذهبي: تابعي جليل، إمام عالم ثبت ناصح، مات سنة ١١٣هـ.

عن الحسن أنه قال: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا نصب وإلا ذاب وإلا تعب.

وعن جعفر بن سليمان قال: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع[1]، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى.

عن حماد بن زيد قال: كنت إذا رأيت حسان بن أبي سنان كأنه أبدًا مريض.

وعن أبي إسحاق قال: سمعت محمد بن سوقة وهو يقول: إن المؤمن الذي يخاف الله لا يسمن ولا يزداد لونه إلا تغيرا.

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المري، فتكلم صالح فرأيت سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاص؛ هذا نذير قوم.

١٠- مشهد مُعَبِّر:

عن أبي هارون قال: كان عون يحدثنا ولحيته ترتش بالدمع.

هذا هو الذي غاب، فغابت عنا الدموع... عدم شعورنا بتقصيرنا في حق الله، غيابنا عن شهود معنى كلام رسول الله ﷺ، هجرنا لكتاب الله.

فغاب عنا البكاء غياب الغاضب الحزين الذي انشغل عنه أهله وتنكر له أحبابه.

وكأني بالبكاء أراه مكسورًا جريحًا حزينًا، فأسأله: ما غيّبك عنا؟ وكأني به أسمعه يقول: «لهو الناس عن الحق، ونسيانهم يوم اللقاء، وتركهم العلم غيبني عنهم، وإني أوشك أن أرحل فلا أعود».

(١) يقصد: أنه كان بكّاء زهّادا خشّاع فكانت رؤياه في حد ذاتها تذكرة، فتدبر!! وليس كما يظن أرباب التصوف أن النظر إلى الصالحين عبادة.

١١- حسرات الصالحين:

وقد يكون للصالحين حسرات، فحسرة يوم يذكر طاعة لم يتمها، وحسرة يوم يتذكر خيرًا لم يشارك فيه، وحسرة يوم يمر عليه وقت لا يذكر الله فيه، وحسرة يوم يستجدي عينيه بالبكاء، فيستعصي عليه الدمع!!

عن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل!!

قال الأوزاعي: «ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يومًا يومًا، وساعة ساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلا انقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ويوم مع يوم وليلة مع ليلة؟!».

وعن معاذ عن النبي ﷺ قال: «**ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها**»[1].

ويروي ابن المبارك أن عامر بن قيس بكى عند احتضاره، فسئل عن بكائه فقال: «ما أبكي جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وعلى قيام ليالي الشتاء».

١٢- مثيرات البكاء:

عدّ أهل العلم والدعوة والصلاح بعض المؤثرات والمثيرات التي قد تعين الإنسان على أن يبكي من خشية الله سبحانه، ويعود عينيه على البكاء ونذكر لك طرفًا منها، ولا تنسنا بدعائك الصالح:

---

(١) صحيح الجامع (٥٣٢٢)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب.

- الخلوة الصالحة في أوقات إجابة الدعاء.
- أن ترى نفسك مع جماعة كلهم قد سبقوك إلى الجنان وأنت تتعثر بذنبك.
- أن تنظر إلى جوارحك وتُذكرها بأعمال صالحات لم تعملها وخيرات فرطت فيها.
- أن تذكر يوم التغابن وقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].
- التباكي، وهو استدعاء البكاء.
- المناجاة، وهي الشكوى إلى الله سبحانه.
- عدّ السيئات، أن يجلس فيتذكر ذنوبه ويحاول إحصاءها، ولن يستطيع.
- قلة أكل اللحم وكثرة أكل البقول، كالعدس والفول[١].
- يذكر يوم موته، ويُتم ولده وترمل زوجه، وأنه لن يرعاهم إلا الله، فيقدم عمله الصالح ويذكر قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].
- الإنصات لكل تذكرة وكل موعظة والاستماع والتدبر.
- يمثل لنفسه جهنم وعذابها والأخذ بالنواصي والأقدام.

١٣- طرق عملية للتربية على البكاء من خشية الله وشوقًا إليه:

أ - تهيئة البيئة الإيمانية للمساعدة على البكاء:

(١) كان عمر بن عبد العزيز ينصح بكثرة أكل العدس لمن أراد أن يرق دمعه.

فلم يكن الصالحون يَصلون إلى هذه الدرجات العالية من التربية على البكاء من خشية الله لولا أن هناك بيئة إيمانية صالحة تربوا فيها أعانتهم على البكاء من خشية الله سبحانه.

وتلك البيئة الصالحة لها أكبر الأثر في التشجيع على تلك الأعمال الصالحة والتربي عليها، والمربون الذين يهملون أثر هذه البيئة التي تحيط بالشباب المسلم ثم يطالبونه بمثل تلك العبادات الفاضلة هم مخطئون ولا شك، وإنما على كل مرب ومعلم أن يحاول جاهدًا أن ينشئ تلك البيئة الصالحة الإيمانية التي تؤثر على الشاب إيجابيًا فتدعوه للصالحات من الأعمال.

ب - أثر القدوة:

لقد كان البكاءون من خشية الله وشوقًا إليه يجدون القدوة الصالحة من معلميهم ومربيهم، فكانوا يقلدونهم في العمل الصالح، ويتأثرون بهم إلى أن يصير العمل الصالح عندهم أساسًا وأصلاً ومبدأً في حياتهم.

أما أن يبح صوت خطيب أو معلم أمام الناس يعظهم في البكاء من خشية الله وهم ما رأوا عليه علامات ذلك أبدًا، فإنه حارث في الماء، وناقش على الهواء، ولا أثر لقوله ولا لصراخه، ولا يتحجج مرب بحجة أن البكاء إنما يكون حيث لا يراه الناس ولا يعلمون به، فإن أثر العمل الصالح يظهر مهما أخفاه صاحبه عن الناس، وإن للخشية علامات وللصلاح علامات لا تكاد تخفى على أحد، وإنما يبين ذلك ويظهر على المخلصين الذين يخفون ذلك أكثر مما يبين على غيرهم الذين يحبون إظهار أعمالهم، وإن ذلك سر من أسرار هذا الدين العظيم، فتأمل ذلك مرات.

جـ - عوامل مساعدة:

هناك مجموعة من الأعمال المساعدة التي يمكن أن يقوم بها القائمون على التربية للشباب المسلم فيساعدونه على التربية على البكاء من خشية الله ومن ذلك:

جمع بعض الشباب المسلم في مسجد من المساجد في وقت من الأوقات الفاضلة ويُقرأ عليهم القرآن بصوت خاشع حسن، ويأمرهم المعلم بتدبر الآيات ثم يقوم المعلم بشرح معاني الآيات، ثم يذكرهم كيف كان الصحابة والصالحون إذا قرأوا هذه الآيات يبكون من خشية الله، ثم يعيد عليهم القراءة بصوت خاشع حسن، ويأمرهم بفعل ذلك وتدبره في بيته وفي خلوته واستدعاء البكاء أثناء القراءة وبعدها، (ولكن يجب مراعاة عدم الوقوع في المحظور الشرعي من ابتداع، أو أن يتكرر ذلك بصورة دورية منتظمة، أو أن يأمرهم بالبكاء في الحلقة أو مثال ذلك من الأمور الممنوعة شرعًا، وإنما يجوز ذلك مرة أو مرتين للتعليم فحسب).

تعلم معنى الرفق والرقة وحساسية المشاعر تجاه الطاعة والمعصية وتجاه الناس والأخبار وغيرها من جوانب الحياة، وبيان كيف الحصول على قلب رقيق رفيق، وبيان أن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي والتأكيد على هذه المعاني كثيرًا، وأن البكاء من خشية الله علامة من علامات رقة القلوب.

يمكن ـ في مجال التعليم ـ التركيز على عمل صالح معين لمدة من الوقت مناسبة لحال المتعلم حتى يعتاده ويثبت عليه ويقوم بحقوقه كاملة ويتعلم فقهه والسنن فيه، ثم بعد ذلك ينتقل به المعلم إلى عمل صالح آخر، ويمكن تطبيق ذلك على البكاء من خشية الله كعمل صالح، فيعلمهم دروسًا نظرية في مقام البكاء من خشية الله وآثار الصالحين في ذلك والأوامر النبوية في ذلك، وكيف يستدعي البكاء وما يعين على ذلك... وغيره، وكذلك يستعين بتسجيلات العلماء الثقات الذين تكلموا عن البكاء من خشية الله ويسمعهم إياه، وكذلك يمكن أن يسألهم عن معوقات البكاء من خشية الله ومحاولة توجيههم نحو التغلب على تلك المعوقات.

يلزم هنا التنبيه على إخلاص النية في هذا العمل لله والحذر من الرياء في البكاء، وبيان خطر الرياء في ذلك ومدى سوء أثره.

كذلك يلزم التنبيه على أن يكون سبب البكاء هو خشية الله سبحانه، وليس مصيبة حلت بأحد أو أزمة يمر بها أحد، أو لأنه تذكر حبيبًا قد مات... أو غير ذلك.

وإنما يجب أن يكون باعثه على البكاء أمر من هذه الأمور:

- تذكر ذنبه وسيئاته وآثار ذلك.
- التفكر في تقصيره تجاه ربه سبحانه وآثار ذلك.
- خوف عذاب الله سبحانه وسوء الخاتمة وما وراء ذلك.
- الخوف من ألا تقبل أعماله الصالحة.
- خوف الموت قبل الاستعداد له.
- توقير الله سبحانه وتعظيمه والشوق إليه.
- خوف الفتن ورجاء الثبات على الدين حتى الممات.
- التبتل في الدعاء والتذلل فيه.



خامسًا: مدرسة قيام الليل

إنها المدرسة التي تخرج منها عظام الإسلام، رهبان الليل وهم فرسان النهار، صفوا أقدامهم بين يدي الله في جوف الليل حيث لا يعلم بهم أحد إلا الله، وسقطت دموعهم على خدودهم تغسل قلوبهم.

لجأوا إلى ربهم فرارًا وإنابة واعترافًا بحقه سبحانه عليهم، رجاء رضاه، فرضي عنهم، وأورثهم وضاءة في وجوههم، وأنوارًا في جوارحهم، واستقامة في أعمالهم، وإخلاصًا في قلوبهم، وفراسة في سرائرهم...

فهم يرون بنور الله سبحانه، ويتمتعون بلذة الصلاة في جوف الليل أكثر مما يتمتع أهل اللهو بأحب لهو إليهم، فصارت الصلاة في جوف الليل من أكبر القيم في حياتهم ومن أثبت الأعمال التي يداومون عليها، بل صارت كجزء لا يتجزأ من قلوبهم، فترى قلوبهم تضطرب شوقًا لصلاة الليل، وترفرف فرحًا بقدوم الليل لأنها ستقف بين يدي ربها مطمئنة خاشعة منيبة.

١- ليلُنا وليلهم، ما الفرق بينهما؟!

وإنا إذا أردنا مقارنة ليلنا بليل الصالحين، أصابتنا الصدمة الكبرى والفجعة الموجعة والألم الشديد.

فليلنا لهو وليلهم ذكر، وليلنا نوم وليلهم قيام، وليلنا لغو وليلهم سجود، وليلنا سهو وليلهم بكاء، وليلنا ضحك وليلهم توبة، ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١].

إن حياتهم ﷺ كانت في الليل إشفاقًا وفي النهار إنفاقًا، وحالنا غطيط في الليل يسمعه القاصي قبل الداني، وشح بالنهار أوصلنا للصراع على الدرهم

والدينار والجنيه والريال واليورو والدولار!! فأي فرق بين الحياتين؟! ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن أسرار القرآن كانت تبوح لهم في الليل، والخوف والرجاء يتسابقان إليهم في الدجى، أما نحن.. فالليل لنا مأوى المعاصي والذنوب، وقلَّ فينا تائب إذا أقبل الليل أن يتوب!

في صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها سئلت: متى يقوم الرسول ﷺ؟ قالت: كان إذا سمع الصارخ وثب، تقول: وثب ولم تقل قام...

ونحن ما ننتفع بالصارخ - الديك - إلا إذا ذبحناه وشربنا مرقه؟! فلذلك ما أحبنا الديك!! وكأنه غيَّر موعد الصياح، أو أدركته هو الآخر الغفلة!

٢- وصف أهل الليل من القرآن:

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

٣- عقدةٌ أما لها من حل؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[1]، وفي رواية: «**فيصبح نشيطًا طيب النفس قد أصاب خيرًا، وإن لم يفعل أصبح كسلانًا خبيث النفس لم يصب خيرًا**»[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذكر ولا أنثى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، وإذا قام فتوضأ وصلى انحلت العقد وأصبح خفيفًا طيب النفس قد أصاب خيرًا**»[3].

قال الألباني رحمه الله: «في تفسير العقد أقوال، والأقرب أنه على حقيقته، بمعنى السحر للإنسان ومنعه من القيام، كما يعقد الساحر مَن سَحَره، كما أخبر

(١) أخرجه البخاري رقم ١٠٩١، أبواب التهجد، ومسلم ٧٧٦/ مسافرين/ باب ما روي فيمن نام الليل حتى أصبح، وقافية الرأس: مؤخرة الرأس.

(٢) أخرجه ابن ماجه وهو صحيح. (انظر: صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦٠٩).

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه، وهو صحيح. (انظر: صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦١٠)، والجرير: هو الحبل.

بذلك المولى تعالى ذكره في كتابه: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ فالذي خُذِل يعمل فيه والذي وفق يصرف عنه»[1].

فهي عقد يعقدها الشيطان على مؤخرة رءوس الناس إن هم ناموا، وهدف الشيطان ومراده أن ينام الناس طول ليلهم فلا يقوموا ليذكروا الله سبحانه بالليل أو ليقيموا الصلاة.

وهذه العقد التي يعقدها الشيطان على مؤخرة الرأس، إنما تؤثر فيمن خذل ولم يوفق للطاعة، وهي لا تؤثر فيمن هدي ووفق للطاعة، وأمام كل إنسان نائم ثلاث عقد كثلاث جدر تحول بينه وبين النشاط والعبادة وطيب النفس.

فالأولى تنحل إذا استيقظ فذكر الله فور استيقاظه، **والثانية** تنحل إذا هو قام من فوره فتوضأ، **والثالثة** تنحل إذا هو كبر وبدأ في صلاته، وإذا انحلت عقده الثلاث أصبح نشيطًا بغير مُعوق ولا مُثبط ولا مُكسل ولا مُثقل، وأصبح طيب النفس بغير اكتئاب ولا هم ولا ضيق ولا حزن، فيسهل عليه عندئذ أن يصيب من الخير ويفعل الصالحات.

وإن لم يفعل وظل نائمًا فضيع وقت الليل وجوفه وضيع وقت السحر ثقلت مهمته للقيام لصلاة الفجر وصعبت عليه، فإن لم يقم ليصلي الفريضة فلا عجب عندئذ أن يصبح خبيث النفس قد طالته الهموم والأحزان، وقد ضاق صدره واسود وجهه وصعبت عليه الطاعات، بل يكاد أن يضيق من الصالحات ثم هو لم يصب خيرًا.

فمن تأمل في هذا الحديث العظيم وجد أنه هدية من رسول الله ﷺ يهديها لكل عبد صالح فيعلمه ما لا يمكن أن يتعلمه بغير الوحي، ويزيح له الستار عما

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب للألباني، ص٢٥٢، ج١.

يحدث له بغير أن يرى أو يشعر ويرشده للتغلب على تلك المعوقات ويدله على مفتاح النشاط وطيب النفس والإقبال على الله.

فأي إخلاص في نصح الأمة هذا الإخلاص، وأي حرص على هدايتها هذا الحرص؟ والله إني لأحبك يا رسول الله فوق نفسي وأهلي ومالي والناس أجمعين، ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤- النبي ﷺ يدعونا لقيام الليل، فهل من مجيب؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»(١).

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستبنته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أنه قال: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»(٣).

---

(١) رواه مسلم ٢/ صيام/ ٨٢١/ ح٢٠٢.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه وإسناده صحيح، (صحيح الترغيب والترهيب رقم ٦١٣)، وانجفل يعني أسرع.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٦٢١.

وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً، فقال: «**ألا تصليان؟**»[١].

٥- النبي صلى الله عليه وسلم وقيام الليل:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته ولا نائمًا إلا رأيته»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يصلي إحدى عشرة ركعة - تعني في الليل - يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية، قبل أن يرفع رأسه، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد - في رمضان ولا في غيره - على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، فقلت يا رسول الله: أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «**يا عائشة، إن عينيّ تنامان، ولا ينام قلبي**»[٥].

---

(١) متفق عليه (وطرقه: يعني أتاه ليلاً) البخاري ٣/ ح١١٢٧/ فتح، ومسلم ١/ مسافرين/ ٢٠٦.

(٢) متفق عليه، البخاري ٨/ ح٤٨٣٦/ فتح، ومسلم ٤/ منافقين/ ٢١٧١/ ح٧٩.

(٣) رواه البخاري ٣/ ح١١٤١/ فتح.

(٤) رواه البخاري ٢/ ح٩٩٤/ فتح.

(٥) متفق عليه، البخاري ٣/ ح١١٤٧/ فتح، ومسلم ١/ مسافرين/ ٥٠٩٠/ ح١٢٥.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ينام أول الليل ويقوم آخره فيصلي[(١)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القنوت**»[(٢)].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع بعد المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مُترسِّلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد**»، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجوده قريبًا من قيامه[(٣)].

٦- ثواب قيام الليل وأجره:

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام**»[(٤)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في الليل لساعة، لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**»[(٥)].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/ ح١١٤٦/ فتح، ومسلم ١/ مسافرين/ ٥١٠/ ح١٢٩.

(٢) رواه مسلم ١/ مسافرين/ ٥٢٠/ ح١٦٥. (والقنوت يعني القيام).

(٣) رواه مسلم ١/ مسافرين/ ٥٣٦، ٥٣٧/ ح٢٠٣.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٦١٤.

(٥) رواه مسلم ١/ مسافرين/ ٥٢١/ ح١٦٦، ورواه أحمد في مسنده.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم**»[١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من استيقظ من الليل وأيقظ أهله فصليا ركعتين** ـ زاد النسائي: جميعًا ـ **كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انشكفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل، فيقول: يَذَرُ شهوته ويذكرني ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء**»[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحبِّه إلى صلاته، فيقول الله جل وعلا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رجاءً فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى يهريق دمه**»[٤].

---

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني (ترغيب برقم ٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود ٢/ ح١٣٠٩ ، والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني (ترغيب ٦٢٢).

(٣) رواه الطبراني وحسنه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٦٢٥).

(٤) رواه أحمد وحسنه الألباني (ترغيب ٦٢٦).

وفي رواية: «**إن الله ليضحك إلى رجلين: رجل قام في ليلة باردة من فراشه ولحافه ودثاره فتوضأ ثم قام إلى الصلاة، فيقول الله عز وجل لملائكته: ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟ فيقولون: ربنا رجاء ما عندك، وشفقة مما عندك، فيقول: فإني قد أعطيته ما رجا وأمنته مما يخاف...**»(١).

وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقَنْطرين**»(٣).

٧- تحذير النبي ﷺ من ترك الصلاة بالليل:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النبي ﷺ رجلٌ نام ليلة حتى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه**»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»(٥).

---

(١) رواه الطبراني وحسنه الألباني (ترغيب ٦٢٦).

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني (ترغيب ٦٢٤).

(٣) رواه أبو داود وحسنه الألباني، وقال الألباني: «قال الحافظ: من سورة تبارك إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم». (ترغيب جـ١، ص٢٦٢، حديث رقم ٦٣٥).

(٤) متفق عليه (البخاري ٦/ ح٣٢٧٠/ فتح)، ومسلم (١/ مسافرين/ ٥٣٧/ ح٢٠٥).

(٥) متفق عليه (البخاري ٣/ ح١١٥٢/ فتح)، ومسلم (٢/ صيام/ ٨١٤/ ح١٨٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يبغض كل جعظري جواظ، صخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالمٌ بأمر الدنيا، جاهلٌ بأمر الآخرة**»[١].

وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي بالليل**»، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[٢].

٨- ليل الصالحين[٣]:

قال الفضيل بن عياض: أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب، فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة.

قال الحسن: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة المال، فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره.

وعن ثابت البناني قال: ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل.

وكان شداد بن أوس إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح.

قال عمرو بن ذر: لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم، ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذهم من النوم، قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حسن عادة السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل

---

(١) رواه ابن حبان وحسنه الألباني (ترغيب رقم ٦٤٥).

(٢) متفق عليه (البخاري ٣/ ح١١٢٢/ فتح)، ومسلم (٤/ فضائل/ ١٩٢٧/ ح١٤٠).

(٣) هذه الآثار: راجع فيها: تهذيب سير أعلام النبلاء، روضة الزاهدين، أين نحن من أخلاق السلف.

بأبدانهم وباشروا الأرض بصفاح وجوههم، فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولّى عنهم الليل بربح وغبن، أصبح هؤلاء قد ملوا النوم والراحة، وأصبح هؤلاء متطلعين إلى مجيء الليل للعادة، شتان ما بين الفريقين.

وقال مالك بن دينار: لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها: يا أيها الناس: النار، النار.

وقال إبراهيم بن شماس: كنت أعرف أحمد بن حنبل وهو غلام، وهو يحيي الليل.

وكان عمرو بن دينار يجزئ الليل ثلاثة أجزاء: ثلثًا ينام، وثلثًا يدرس حديثه، وثلثًا يصلي.

وكان طاوس إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي إلى الصباح ويقول: طيَّر ذكر جهنم نوم العابدين.

وقيل للأحنف: إنك كبير، والصوم يضعفك، قال: إني أعده لسفر طويل، وكانت عامة صلاة الأحنف بالليل، وكان يضع أصبعه على المصابيح ثم يقول: حَسٍّ، ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا؟

وذكر الذهبي عن أسد بن عمرو، أن أبا حنيفة رحمه الله صلى العشاء والصبح بوضوء ـ واحد ـ أربعين سنة.

وذكر الذهبي عن موسى بن طريف: كانت الجارية تفرش لعلي بن بكار[1]، فيلمسه بيده ويقول: والله إنك لطيب، والله إنك لبارد، والله لا علوتك الليلة، وكان يصلي الفجر بوضوء العتمة.

---

(١) قال الذهبي: علي بن بكار: الإمام الرباني العابد أبو الحسن البصري الزاهد، مات سنة ٢٠٧هـ.

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: وكان عثمان رضي الله عنه يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله.

وقال الذهبي: قال محمد بن يحيى بن منده: لم يُحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثق من أحمد بن مهدي[1]، وصنف «المسند» ولم يعرف له فراش منذ أربعين سنة، صاحب عبادة، رحمه الله.

٩- طلبة العلم وقيام الليل[2]:

إن طالب العلم الصادق يختلف ليله عن ليل اللاهين والغافلين، فليله عبادة ووقوف بين يدي الله سبحانه، يسأله من فضله، ويستغفره من تقصيره في حقه، ويدعوه بما يحب، ويناجيه مم يشكو.

وإن قومًا من طلبة العلم ادعوا طلبهم للعلم وأهملوا ليلهم وقيامه فعلتهم غبرةٌ وحسرة، وشق عليهم العلم وساءت أخلاقهم، ذلك أنهم باتوا ليلهم يغطون في نوم عميق، فما أيقظهم إلا حر الشمس!!

ولم يكن العلماء يظنون أن هناك من طلبة العلم ولا من أهله من ينام الليل كله ولا يكون له عبادة فيه، بل كانوا ينكرون على من يقصر فيه.

قال أبو عصمة البيهقي: «بت ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح، نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل!».

وذكر ابن الجوزي والذهبي أن طاوسًا جاء في السحر يطلب رجلاً فقالوا: هو نائم، قال: ما كنت أرى أن أحدًا ينام في السحر.

---

(١) قال الذهبي: أحمد بن مهدي بن رستم: الإمام القدوة العابد الحافظ المتقن، مات سنة ٢٧٢هـ.

(٢) انظر في هذه الآثار: صفة الصفوة، تهذيب سير أعلام النبلاء.

وعن أبي الأحوص قال: آلى محمد بن النضر على نفسه ألا ينام إلا ما غلبته عينه.

قال أبو بكر الأنباري: كان أبو عبيد رحمه الله يقسم الليل أثلاثًا؛ فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنف الكتب ثلثه.

وعن نافع أنه قال: كان ابن عمر رضي الله عنه يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح.

وعن داود بن إبراهيم أن الأسد حبس ليلةً الناس في طريق الحج، فدق الناس بعضهم بعضًا، فلما كان السحر ذهب عنهم، فنزلوا وناموا، وقام طاوس يصلي، فقال له رجل: ألا تنام؟ فقال: وهل ينام أحد السحر؟!

١٠- كيف نربي أنفسنا على قيام الليل؟!

لا شك أن هذه العبادة العظيمة ـ قيام الليل ـ هي كنز من الكنوز الإيمانية الغالية، ولكنها ـ وكما هو مشاهد ـ من العبادات التي قد صارت غريبة على مجتمع المسلمين في هذه الأزمان... وما ذلك إلا لبعدهم عن إحياء سنة النبي ﷺ، وهي عبادة لا ينالها إلا المخلصون الصادقون الذين هم قد وقر الإيمان في قلوبهم، فيفضلون الوقوف بين يدي ربهم في جوف الليل حيث لا يراهم الناس، يفضلون ذلك على لذات الدنيا الأخرى.

وكم نحن بحاجة إلى التربية على تلك العبادة العظيمة، ولكننا وللأسف الشديد نكتفي بأن نستمع فيها إلى موعظة، أو نذكر أنفسنا أن هناك عبادة تسمى عبادة الليل، أو أن نقرأ عنها في كتب الرقائق، ثم نحن بعد كل ذلك يصعب علينا العمل بها ويشق علينا الثبات عليها، فتمر علينا الأيام، ويغزو الشيب مفارقنا، بل يدق الموت أبوابنا ونحن لا نزال بعيدين عن تلك العبادة العظيمة.

ولا شك أن هناك من الخطوات والأعمال ما ييسر علينا أن نربي أنفسنا على هذه العبادة ولكننا قد نغفل عنها، ونحن نقف معك عند بعض هذه الخطوات التي تعيننا على قيام الليل والله الموفق:

أ - عقد العزم والنية على قيام الليل:

فكثير منا يتمنى أن يقوم الليل ولكنه لم يعقد عزمه ونيته على ذلك ولم يؤكد بما لا يدع مجالاً للتردد أنه يريد أن يقيم هذه العبادة، فتظل عبادته في مجال التمني لا غير ولا يخطو في سبيل العمل أي خطوة، فمن كان عنده سفر هام بالليل يجد نفسه يقوم من نومه وبغير أن يوقظه أحد، ذلك لأنه عقد عزمه ونيته أن يسافر ويشعر بأهمية السفر وأهمية ما يريده منه، وكذلك فإنه من علم قيمة هذه العبادة الكريمة وعقد عزمه على أن يقوم واستعان بالله في ذلك ودعا الله أن يقيمه بين يديه في جوف الليل وكرر الدعاء، فلا شك أنه يكون قد خطا خطوة قوية في طريق قيامه بالليل.

ب - تعاون أهل البيت على قيام الليل:

وهذا التعاون الذي أقصده إنما يتأتى بعد أن يبين لهم رب البيت منزلة قيام الليل ويحببهم فيه ثم يقسم الأدوار ويهتم بأمر القيام ويتابع ذلك، فإن في ذلك دفع لجميع أهل البيت للانتظام في تلك العبادة.

ولقد كان ذلك التعاون هو حال السلف الصالحين، وإليك هذه الأمثلة:

حديث النبي ﷺ: «**رحم الله امرأة قامت من الليل ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت الماء في وجهه**»[(١)].

وذكر الذهبي عن إبراهيم بن وكيع قال: كان أبي - وكيع - يصلي، فلا يبقى في دارنا أحد إلا صلى، حتى جارية لنا سوداء.

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٨٥ وهو صحيح.

وذكر الإمام أحمد في الزهد: أن أبا هريرة رضي الله عنه كان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل، يصلي هذا ثم يطرقهم فيقومون فيصلي هذا، وهكذا.

وذكر الذهبي أن زيد بن الحارث كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء بينه وبين أولاده.

وكان الحسن بن علي يأخذ من الليل أوله، وكان الحسين يأخذ من آخره.

وكان سليمان التيمي يدعو أهله ليتنافسوا في ليلهم ويقول: هلموا حتى نجزئ الليل، فإن شئتم كفيتكم أوله، وإن شئتم كفيتكم آخره.

وقال وكيع بن الجراح: كان علي والحسن ابنا صالح بن حي وأمهم قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء.

جـ - النوم على طهارة بنية القيام:

وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة تحث على الطهارة قبل النوم مع استصحاب نية القيام، وأن العبد إذا فعل ذلك كتب له أجر ما نوى.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بات طاهرًا بات في شِعاره مَلَك، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرًا**»[(١)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يبيت طاهرًا يتعار من الليل، فيسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه**»[(٢)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه يَبْلغ به النبي ﷺ قال: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عينه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه**»[(٣)].

---

(١) رواه ابن حبان وصححه الألباني (الترغيب برقم ٥٩٦) والشعار: هو الثوب أو الغطاء.

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح أبي داود والترغيب برقم ٥٩٧). (ويتعار: يعني يستيقظ).

(٣) رواه النسائي وصححه الألباني (صحيح النسائي والترغيب برقم ٦٠٠).

د - كراهة الحديث بعد العشاء:

عن أبي برزة قال: كان رسول الله ﷺ لا يبالي بتأخير صلاة العشاء إلى نصف الليل، وكان لا يحب النوم قبلها ولا الحديث بعدها[١].

قال الإمام النووي: «وسبب كراهة الحديث بعدها أنه يؤدي إلى السهر، ويخاف منه غلبة النوم عن قيام الليل أو الذكر فيه أو عن صلاة الصبح، قال: ولأن السهر في الليل سبب للكسل في النهار عما يتوجه من حقوق الدين والطاعات ومصالح الدنيا»[٢].

وبعض الناس يحلو لهم السهر بعد العشاء في الأحاديث الدنيوية والتنزه وقضاء الأوقات ويعتادون النوم قبل السحر[٣] بقليل، فأنى لهم أن يصلوا نافلة أو حتى يستيقظوا لفريضة!!

ولكن ينبغي على كل من يريد أن يصلي قيام الليل أن يأوي إلى بيته في أول الليل، فيتفقد حال أهله وأولاده ساعة ثم ينام.

وعلى كل طالب علم أو ملتزم بسنة النبي ﷺ أن يحرص على عدم اللغو في الحديث بعد العشاء أو تضييع أوقاته إلا فيما ينفع في الطاعات.

قال الإمام النووي: «والمكروه من الحديث بعد العشاء هو ما كان في الأمور التي لا مصلحة فيها، أما ما فيه مصلحة وخير فلا كراهة فيه، وذلك كمدارسة العلم وحكايات الصالحين، ومحادثة الضيف والعروس للتأنيس، ومحادثة الرجل أهله وأولاده للملاطفة والحاجة، ومحادثة المسافرين بحفظ متاعهم أو أنفسهم، والحديث في الإصلاح بين الناس والشفاعة إليهم في خير والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (البخاري ٢/ ٧٧١/ فتح)، ومسلم (١/ مساجد/ ٤٤٧/ ٢٣٦).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، جـ٣ ص١٥٨.

(٣) السحر: آخر الليل.

عن المنكر، قال: ثم كراهة الحديث بعد العشاء المراد بها بعد صلاة العشاء لا بعد دخول وقتها، واتفق العلماء على كراهة الحديث بعدها إلا ما كان في خير...»[١].

قال الذهبي: قال عبد الله بن أحمد: كان أبي يقرأ كل يوم سبعًا، وكان ينام نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو.

هـ - أسباب أخرى معينة على قيام الليل:

ذكر أهل العلم أسبابًا أخرى تعين على قيام الليل نذكرها لك باختصار لعله أن يكون فيها الشفاء:

لا تكثر الأكل بالليل لأنه سبب لغلبة النوم، وليتخير من طعام الليل ما يسهل هضمه وليس ما يطول هضمه كالبقول واللحوم والبيض، فإنها تستقر في المعدة طويلاً، وتجعل الدم يجتمع عند المعدة فيسبب الخمول والنوم.

لا تتعب نفسك بالنهار في الأعمال التي تتعب الجسد وتضعف الأعصاب، فإن كنت ولابد أن تفعل ذلك فلا تترك القيلولة لتريح جسدك من التعب والمشقة ولتستريح من عناء جهدك ولتستطيع أن تقوم من ليلك، ولقد أوصى النبي ﷺ بنوم القيلولة، وكان يفعله الصالحون ويحافظون عليه.

طهر قلبك من الحقد على المسلمين ومن الحسد لهم ومن النظر إلى متاعهم وما أنعم الله عليهم، فإن ذلك مرض في القلب يعوقك عن القيام بين يدي الله.

قال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك.

واشتكى شاب إلى الحسن عدم قيام الليل فقال له الحسن: قيدتك خطاياك.

وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي جـ٣، ص ١٥٨.

١١- نصائح للمربين:

لابد للمربي أن يكون قدوة للناس في صلاة الليل فلا يمكن أن يأمرهم بها ولا يفعلها.

يجب أن يصحب تدريس فضل قيام الليل تطبيق عملي للقيام، وأذكر أن بعض أساتذتنا ـ حفظه الله ـ كان يقرأ علينا باب قيام الليل من كتاب مختصر منهاج القاصدين، ثم يأخذنا لنقوم الليل في أحد المساجد، وكان لذلك أثر كبير علينا لا ينسى.

يحسن أن يفرق المربي بين صلاة الليل في جماعة وصلاة الليل مفردًا، وعليه أن يدفع طلبته للصلاة فرادى ما استطاع إلى ذلك؛ لأنها أقوى تأثيرًا على النفس وأدعى للإخلاص وأرجى أن يتعود الإنسان على الصلاة وحده، وهي أصل صلاة الليل.

يحسن بالمربي أن لا يجمع الناس لصلاة الليل في وقت يتفقون عليه، حذرًا من الوقوع في الحرج الشرعي، إذ إنه لا دليل على جواز تحديد وقت معين لصلاة الليل جماعة في مسجد والانتظام عليه[١]، ولكن عليه ـ إن كان لوجود الناس أهمية ما ـ أن يصلوا بغير اتفاق على موعد ولا دعوة للناس، ولكن أن يستغل ظروف وجودهم في مكان ما فيقف للصلاة فيصلون خلفه والله تعالى أعلم[٢].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فلو أراد الناس أن يجتمعوا على قيام الليل في المساجد جماعة في غير رمضان لكان هذا من البدع، ولا بأس أن يصلي الإنسان جماعة في غير رمضان في بيته لفعل الرسول ﷺ، فقد صلى بابن عباس وابن مسعود وحذيفة بن اليمان جماعة في بيته لكن لم يتخذ ذلك سنة راتبة ولم يكن أيضًا يفعله في المسجد» اهـ. الممتع جـ٤ ص٨٣.

(٢) وانظر: الاختيارات العلمية لشيخ الإسلام ص٦٤، والاعتصام للشاطبي.

على المربي أن يتفقد المتعلمين ويتابعهم في عبادة قيام الليل وأن يحثهم على التعود عليها والانتظام عليها، ويحسن أن يكون ذلك مع كل فرد على حدة، وإن لم يتيسر له أن يكلمْ كلاً على حدة فيسألهم في مجلسه مذكرًا إياهم بالإخلاص وعدم مراعاة الناس وبالصدق والتجرد، فعن إسحاق بن إبراهيم قال: كنا في مجلس الثوري[1] وهو يسأل رجلاً رجلاً عما يصنع في ليله فيخبره، حتى دار القوم فقالوا: يا أبا عبد الله قد سألتنا فأخبرناك، فأخبرنا أنت كيف تصنع في ليلك؟ فقال: لها عندي أول نومة تنام ما شاءت لا أمنعها، فإذا استيقظت فلا أقيلها والله.

يمكن الاستعانة بطرق مختلفة للايقاظ ـ إن صعب على الناس الاستيقاظ ـ فيمكن أن يتعاونوا فيما بينهم لإيقاظ بعضهم بعضًا عن طريق الهاتف أو أي وسيلة أخرى، ويمكن كذلك لكل إنسان أن يكتب لنفسه جدولاً للمحاسبة على قيام الليل، فيحاسب نفسه كم قصر وكم أدى، فيدفعه علمه بالتقصير إلى التقدم.



(١) صفة الصفوة، ٩٨/٣، دار الكتب العلمية.

سادسًا : الاستغفار

الوسيلة السادسة من وسائل طهارة القلب وتزكية النفس، كثرة الاستغفار والإخلاص فيه والتدبر والتفهم والتيقن به، ما فعله إنسان إلا يسر الله عليه سبحانه أن فتح له باب التزكية والطهارة القلبية.

ونقصد بالاستغفار كوسيلة من وسائل تطهير القلب وتزكية النفس أن يكثر الإنسان من قول: «أستغفر الله»، ومن أدعية الاستغفار بأنواعها وأشكالها الصحيحة الثابتة، وأن يتدبر معناها ويتيقن من قلبه بمرادها ويتقرب بها إلى ربه.

وهذه مجموعة من المفاهيم الأساسية في الاستغفار كوسيلة لتطهير القلب:

١- حالنا مع الاستغفار!

عمت الغفلة حياتنا كلها حتى غفلنا عن مجرد استغفارنا عما أجرمنا في حق ربنا سبحانه. ومن غفل عن الاستغفار عن جرمه فقد غفل عن مفتاح أمله في أن يغفر الله له ذنبه ويطهر قلبه ويحييه حياة حسنة.

وكثيرًا ما نظن أن الاستغفار هو عمل يسهل استدراكه والقيام به في أي وقت نشاء، فنؤجله وقتًا بعد وقت، وحين نحاول أن نستغفر - بعد التسويف - يكون قد تكاثر علينا الذنب، فنرى ألسنتنا قد ثقلت مع الاستغفار، ونرى قلوبنا قد أغلقت أمامه، فنحتاج إلى جهد كبير وإخلاص شديد وبرنامج قوي من التهذيب والتأديب حتى تخف ألسنتنا معه وتفتح قلوبنا أمامه.

وليس كل عبد مذنب غافل مقصر يوفق للاستغفار المطلوب، إنما هو منَّة من الله ونعمة منه سبحانه، يمن به وينعم به على عبد أقبل عليه وذل له وأخلص عبوديته له.

وللأسف الشديد فإن لهونا وانشغالنا بمعاشنا ودنيانا أغفلنا عن الاستغفار.

٢- الله سبحانه يحث نبيه ﷺ على الاستغفار:

حث الله سبحانه نبيه ﷺ على الاستغفار، وفي هذا تهييج لأمته على طلب المغفرة وكثرة الاستغفار وحض لها على استدامة الاستغفار؛ لأنه سبحانه قد أمر نبيها الذي هو خيرها - بل سيد ولد آدم على الإطلاق - بالاستغفار، فكيف بهم هم، بل كيف بمن أكثر الذنب وتمادى في الجرم؟!

قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٦]

وقال سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥]

وقال سبحانه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ٣]

وفي تلك الآيات وغيرها حث للجميع على الاستغفار، ونداء لكل من أسرف على نفسه بالذنب والمعصية أن يقبلوا على الله ويلتمسوا عفوه ويطلبوا غفرانه.

٣- الأنبياء والصالحون يسارعون بالاستغفار، فما بالنا؟!

لما خالف آدم وحواء عليهما السلام أمر الله تعالى وأزلهما الشيطان واستدرجهما إلى الخطأ بادرا بالتوبة فقالا: ﴿ يَوْمَئِذٍ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ونوح عليه السلام لما أخذته الشفقة على ولده الكافر ثم بين له ربه أنه ليس من أهله لأنه عمل غير صالح قال نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]

وإبراهيم الخليل عليه السلام يستغفر ربه: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وموسى عليه السلام لما وكز المصري فقتله قتل خطأ، قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦]

وقال موسى أيضًا عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ونبينا ﷺ يعد له أصحابه في المجلس الواحد: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»، وفي رواية: «**إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(٢)].

وها هو أفضل هذه الأمة وخيرها بعد نبيها ﷺ أبو بكر يسأل رسول الله ﷺ فيقول له: يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[(٣)].

٤- متى يكون الاستغفار؟

ليس هناك وقت معين للاستغفار، إذ إنه يجب أن يَعُم اليوم كله والوقت كله كما كان يفعل النبي ﷺ، ولكن يتحتم ويجب الاستغفار فور وقوع الذنب من الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٦)، وصححه الألباني (صحيح أبي داود)، وانظر في الموضوع: الاستغفار لمصطفى العدوي.

(٢) رواه البخاري ١١/ ١٠١/ فتح.

(٣) رواه البخاري ٢/ ٣١٧/ فتح.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «**أذنب عبدٌ ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1]، والمعنى: ما دام على هذه الحال كلما أذنب استغفر، والظاهر أن مراده الاستغفار المقرون بعدم الإصرار[2].

٥- المستغفرون هم المتقون:

إن أهل الاستغفار هم أهل التقوى، الذين إذا أذنبوا ذنبًا سارعوا بالاستغفار لربهم موقنين به ولم يصروا على ذنبهم الذي أذنبوه، بل يتوبون إلى ربهم توبة نصوحًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فذكر من صفاتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥].

---

(١) رواه البخاري (ج١٣/٧٥٠٥) فتح، مسلم كتاب التوبة، باب التوبة من الذنوب وإن تكررت، ٢٧٥٨/٢٩.

(٢) تزكية النفوس، أحمد فريد، ص٥١.

عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»(١).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»(٢).

٦- الاستغفار سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين والقوة:

قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

٧- سيد الاستغفار:

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها موقنًا بها حين**

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه برقم ٣٠٧٨، والمشكاة ٢٣٦).

(٢) رواه أحمد ٢/٥٠٩ وإسناده حسن (انظر: الاستغفار لمصطفى العدوي).

يمسي، فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها موقنًا بها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة»[١].

وفي رواية: «**لا يقولها أحد حين يمسي فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة»**[٢].

فانظر وتدبر هذا الحديث جيدًا تجده يجمع بين أمرين عظيمين: مشاهدة نعمة الله عز وجل والإقرار بها، والاعتراف بالذنب والتقصير في حق الله تعالى وقبلهم وبعدهم إثبات التوحيد.

قال شيخ الإسلام: «العارف بالله يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل، وهو معنى حديث سيد الاستغفار»[٣].

٨- استغفارٌ علمه النبي ﷺ زيد بن ثابت:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ علمه دعاءً، وأمره أن يتعاهده ويتعاهد به أهله في كل يوم، قال:

«**قل حين تصبح: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وإليك، اللهم ما قلت من قول، أو حلفت من حلف، أو نذرت من نذر فمشيئتك بين يديه، ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بك، إنك على كل شيء قدير، اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت، إنك وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت ولذة**

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٩٤٧، باب أفضل الاستغفار.

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني (الترغيب برقم ٦٤٨).

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ١٧٧.

النظر إلى وجهك، وشوقًا إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وأعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يُعتدى علي أو اكتسب خطيئة أو ذنبًا لا تغفره، اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ذا الجلال والإكرام، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، وأشهدك - وكفى بالله شهيدًا - **أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبدك ورسولك، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنك تبعث من في القبور، وأنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعفٍ وعورةٍ وذنبٍ وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاغفر لي ذنوبي كلها، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»**[1].

٩- استغفارٌ بالأسحار:

قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال النبي ﷺ: «**يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[2].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا**

---

(١) رواه أحمد وقال الألباني: حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم ٧٤٩٤، ومسلم برقم ٧٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»[١].

وكان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[٢].

وكان ﷺ يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**»[٣].

وبين السجدتين كان ﷺ يقول: «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**»[٤].

وكان ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا[٥].

١٠- الأعمال الصالحات تختم بالاستغفار[٦]:

فالصلاة تختم بالاستغفار كما سبق.

والحج يختم بالاستغفار، قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

والمجالس تختم بالاستغفار، فعن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخره إذا أراد أن يقوم من المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ٧٧١/ مسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل، وأبو داود ٧٦٠، باب ما يستفتح به الصلاة.

(٢) البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها برقم ٧٦١، كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم ٤٨٣ باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٤) أخرجه النسائي وأحمد من حديث حذيفة رضي الله عنه وإسناده صحيح وصححه الألباني، صحيح النسائي ١٥٧١.

(٥) رواه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه برقم ٥٩١، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٦) وانظر: الاستغفار لمصطفى العدوي.

(٧) أخرجه أبو داود والنسائي وصححه الألباني صحيح النسائي برقم ٧٣٠.

وختم النبي ﷺ حياته بالاستغفار، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت وهو مُسند إلى صدرها، وأصغت إليه وهو يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق**»[1].

١١- فائدة من ابن القيم رحمه الله:

قال الإمام ابن القيم: «الاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما ظن بعض الناس: أنه الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فإن الله لا يُعذب مستغفرًا.

وأما من أصر على الذنب وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلقًا ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة منه العزم على ألا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله، وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٤٤٤، باب فضل عائشة رضي الله عنها.

ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه ولا توصله لمقصوده، وهو مأمور أن يوليها ظهره ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته والتي توصله إلى مقصوده وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة، ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مُرتبًا بقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾، فإن الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل، وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم»[1].

١٢- تطبيق عملي للاستغفار:

سئل الأوزاعي: كيف أستغفر؟ قال: أن تقول: أستغفر الله.

وقال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال علي رضي الله عنه: ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

فإذن أخي الحبيب:

علم نفسك أن الاستغفار توبة وأنك كلما تقول: أستغفر الله بيقين فكأنما تتوب، فلا تفوت عليك هذه الفرصة.

إذا اكتسبنا في كل يوم عشر ذنوب وكان عمر أحدنا ثلاثين سنة فنكون قد اكتسبنا أكثر من خمسين ألف ذنب[2] ـ والعياذ بالله ـ، والسؤال هنا: كم تحتاج من توبة؟ وكم تحتاج من استغفار؟

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ١٧٧.

(٢) من بعد سن التكليف.

سئل الإمام ابن تيمية رحمه الله: أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: «إذا كان الثوب نقيًا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان الثوب دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له، فكيف والثياب لا تزال دنسة»[١].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار»، فانظر إلى مراده ـ رحمه الله ـ يريد أن ينبهنا إلى أننا في بعض الأحيان نستغفر الله ونحن مصرون على الذنب، أو أننا نستغفره باللسان لا بالقلب، وكل ذلك تقصير في حق الله سبحانه فيحتاج استغفارنا هذا إلى استغفار.

النفس كالطفل، إن عودتها على حب الرضاع دامت عليه، وإن فطمتها تنفطم، فعود نفسك أن تفطمها عما تحب من الشهوات، وأن تعودها حب الاستغفار، وأنت إذا داومت على الاستغفار وأكثرت منه أحبته نفسك وتعودته، بل مع طول الأيام لم تعد تستطيع أن تستغني عنه أبدًا، وإذا لم تستغفر يومًا ستشعر كأنك مريض أو سجين، فهلا البدء بالعمل.

عرفت فيما سبق أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يعدون له في المجلس الواحد: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**» مائة مرة، فكم كان يجلس النبي ﷺ من مجالس؟ وكم كان يستغفر الله؟ وهو النبي ﷺ .. وكم نحتاج نحن من الاستغفار؟!

عود نفسك كثرة أن تقول: أستغفر الله في كل المواطن، وفي كل الأحوال، ولا يزال لسانك رطبًا به، وإن آلمك شيء فأكثر منه، وإن صعب عليك شيء فأكثر منه، وستجد من الخير ما تحب إن شاء الله.



(١) الوابل الصيب، ١٢٧.

سابعًا: الأدب[1]

وأقصد بالأدب كوسيلة من وسائل التربية القلبية والزكاة النفسية أن يؤدب الإنسان نفسه فيحملها على فضائل الأخلاق وجميل السلوكيات ويعلم نفسه التأدب بالآداب النبوية العظيمة، فتكون نفسه محلاً قابلاً للتزكية.

ومفهوم الأدب واسع كبير، إلا إننا سنركز - إن شاء الله - على مجموعة نقاط تهمنا في موضوع طهارة القلب وتزكية النفس، بحيث يسهل التطبيق العملي لها وهو مرادنا من بحثنا على العموم.

١- هل نحن قوم مؤدبون؟

يخجل المرء عندما يريد أن يكتب عن مستوى الأدب الذي صار إليه الناس في هذه الأيام، وكذلك مستوى الأدب الذي صار إليه شباب أمة الإسلام.

ولقد حاولت أن أرقب مستوى الآداب من حولنا حتى لا أكون جائرًا في حكمي - إذا حكمت - فما رأيت ما يُعدل فكرتي ولا ما يحسن وجهتي.

فقد رأيت شدة الغضب في غير حلم، بدرجة تنفر الحبيب من حبيبه والقريب من قريبه، والرجل من زوجته والزوجة من زوجها، وقد يزداد الغضب إلى درجات أكبر فيحصل ما هو أكبر، وبحثت عن الحلم فما وجدت أهله، أو ربما هناك بعضهم ولكنهم لقلتهم قد تاهوا في وسط أهل الغضب.

---

(١) حديثنا عن الأدب كوسيلة للتزكية حديث مختصر نكتفي فيه بالإشارة إلى مراده، وعلى كل مرب ومعلم أن يخصص لتدريس الأدب أبوابًا كثيرة ودروسًا طويلة، ولا يكتفي بما كتبنا لأن ما كتبناه باختصار، ولأن مبحثنا لا يحتمل الإطالة فيه، وننصح في ذلك بدراسة باب الأدب من صحيح البخاري مع الفتح.

ورأيت الجبن في غير شجاعة، بدرجة يجبن فيها السائر في الطريق عن إنقاذ جريح خوفًا من المساءلة، ويجبن فيها الناس عن كلمة إنكار لفعل قبيح في الطريق، ويجبن فيها آخرون عن جلوس مجلس علم في مسجد!!

ورأيت الجور والظلم في غير عدل، بدرجة لا يقوى فيها المظلوم أن يبث شكواه أمام الظالم، ويُغَير فيها المظلوم أهدافه وطريقة حياته خوفًا من الظالم.

ورأيت الشهوانية بغير عفة، بدرجة أن يتتبع الشاب موقع العري والفجور ويدفع في سبيله ماله، وبدرجة أن يسهر آخرون حتى الصباح على مشاهدة الفجور، وبدرجة أن تغزو المجتمع الإسلامي أفكار المثلية الجنسية واللواط.

ورأيت البخل في غير كرم، بدرجة أن تقوم أسرة مسلمة عددها ثمانية أفراد شهريًا لا تجد أكثر من ثمن الخبز، وجارها يركب أفخر السيارات ويشتري حذاءه بثمن خمسة أشهر من قوت جيرانه!!

ورأيت الصراع على الدينار والدرهم بدرجة أن يفقد الأخ أخاه والحبيب حبيبه من أجل المال.

كل ذلك ظاهر معروف معلوم لا يحتاج لبصيرة نافذة كي يُعرف وهو في ديار الإسلام يختلف باختلاف أحوال البلد.

وقد يقول لي قائل: إنني أنظر إلى السوء ولا أنظر إلى الخير. وأقول له: إنني لا أشك في وجود الخير، ولكن النوع الآخر قد طغى وغطى وانتشر، والخير يأرز إلى أهل الغربة ويسكن عندهم.

وصدق رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[(١)].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ١٤٥، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا.

٢- القرآن يأمر بالأدب:

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

وقال سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]

وقال سبحانه: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]

وقال سبحانه: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٣- آدابه ﷺ:

قال الله عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وكان ﷺ يقول: «**اللهم حسن خَلقي وخُلقي**»[1].

وكان يقول ﷺ: «**اللهم جنبني منكرات الأخلاق**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٦٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٣٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٩١) عن قطبة بن مالك وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٢٩٨).

وكان ﷺ[1]: أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، لم تمس يده قط يد امرأة لا تحل له، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يُسأل شيئًا إلا أعطاه، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم أهله، وكان أشد الناس حياءً لا يثبت بصره في وجه أحد.

ويجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية ولو كانت جرعة لبن، ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين.

يغضب لربه ولا يغضب لنفسه أدبًا، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، لا يأكل متكئًا ولا على خوان.

لم يشبع من خبز بُر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى، وكان أشد الناس تواضعًا وأسكتهم في غير كبر وأحسنهم بشرًا، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، يركب الحمار ويردف خلفه عبده أو غيره.

يعود المرضى في أقصى المدينة، يحب الطيب، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل ويصل رحمه، ولا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر، يمزح ولا يقول إلا صدقًا.

لم يرتفع على عبيده في مأكل ولا ملبس، لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لابد منه من صلاح نفسه، لا يحتقر مسكينًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة، ما ضرب بيده أحدًا أبدًا، إلا أن يضرب بها في سبيل الله، وما انتقم من شيء إلا أن تنتهك حرمات الله ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ﷺ[2].

---

(١) ما يلي كله ثابت بأحاديث صحاح، ولكن ليس المقام مقام ذكرها.

(٢) مختصرًا من (موعظة المؤمنين) من ص٢٣٣ : ٢٣٥.

٤- بين العلم والأدب:

لا أدب إلا بعلم، ولا ينفع العلم بغير أدب، بل العلم بغير أدب قد يضر صاحبه فيهلكه، روى الذهبي عن محمد بن إبراهيم بن سعيد[1] قال: «من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله».

والأدب هو القيد الحسن الذي يقيد الأخلاق عن الانحراف والجنوح والشطط، ومن لا أدب له لا صحبة له ولا أخوة، وينفض الناس من حوله، ويبغضه أقرب الناس إليه، وعديم الأدب تسيطر عليه نفسه فتدفعه إلى هواها فيقع في المحظور، وقليل الأدب لا يبدو عليه العلم مهما تعلم، ولكن تراه كالحمار يحمل أثقالاً.

وجدير بشباب أمة الإسلام وطلبة العلم الإسلامي الذين حرصوا على جمع العلم وتحصيله أن يتعلموا الأدب ويبذلوا جهدهم في تحصيله والتخلق به، ولو احتاج ذلك منهم إلى أوقات كثيرة؛ لأنه باب العلم والطريق إليه، قال يوسف ابن الحسين[2]: بالأدب تتفهم العلم، وبالأدب تحمل العلم، وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة.

ومن الآداب ما هو واجب وتركه محرم، ومنها ما هو مستحب وتركه مكروه، لذا فإن العلم لا يكفي لتربية النفس إن لم يكن مقترنًا بالأدب وملفوفًا في ثوبيه.

والأدب لطالب العلم يستر عورته ويخفي سوءته، وهو للعالم يرفع درجته ويُعلي شأنه ويكثر بين الناس أحبابه ومريديه وتلامذته.

وصدق الحكيم الذي قال: «أدب السائل أنفع من الوسائل».

---

(١) محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي، قال الإمام الذهبي عنه: الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون، شيخ الإسلام وشيخ أهل عصره بنيسابور، مات سنة ٢٩١هـ. (سير أعلام النبلاء).

(٢) يوسف بن الحسين، قال عنه الذهبي: الإمام العارف، أكثر الترحال، وأخذ عن أحمد بن حنبل وأحمد بن الحواري وذي النون المصري، وكان على علم وتمام حال. (سير أعلام النبلاء).

والأدب للدعاة إلى الله سبحانه أمر لازم يحتاجه الداعية كحاجته للسانه وقلمه بل قد يزيد، وإنه لمما يحزن أنك ترى بعض الدعاة إلى الله سبحانه قد عافوا الأدب وأعرضوا عنه، وولغوا في قصعة السفهاء والجهال. فقلدوهم في طريقة حديثهم، فلا تسمع منهم إلا صوتًا عاليًا، وألفاظًا سفيهة تافهة يقلدون بها الجهال، وتعلو أصواتهم بالقهقهة والمزاح الخارج، وقلدوا الجهال في السخرية من الناس ورفع مقام ذوي المال والسلطان وتنزيل مقامات أهل العلم والدعوة.

وقلدوا الجهال في ترك معالي الأهداف والمبادئ وسحبتهم الأموال، فتصارعوا عليها، بل استساغ بعضهم أن يفقد دعوته وينسلخ من طريقه الذي سار فيه سنين طويلة يتعلم ويدعو إلى الله، لا لشيء إلا لإغراء المال.

ولقد سألت بعضهم عن ذلك معاتبًا له لترك طريقه والقعود عن مبدئه، فأخبرني أنه يريد أن يكون تاجرًا مسلمًا! وأن ينجح في تجارته! وسألته أثمّ ما يعارض أن تظل في طريق الله تدعو إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن تتعلم العلم والقرآن مع أن تسترزق من تجارة ما؟ فأجابني أنه لو فعل ذلك لفشلت تجارته! فقلت في نفسي إنها لنزغة شيطان وفرية كذاب، يريد أن يقررها بين الناس ليقعدهم عن سبيل الهدى والدرجات العلى.

والحق الذي عجز صاحبنا هذا عن قوله إن سلوك سبيل العلم لله يحتاج من المرء إلى التضحية ببعض اتساع في تجارته، وببعض توسيع في عمله، وببعض تكثير في ماله، فإنه ولا شك يمكن للعامل لله أن يتاجر ويتكسب، ولكنه لن يعطي وقته كله للمال، بل إنه سيضحي ببعض ماله ويضحي ببعض تجارته ويضحي ببعض شهوته، وهذا ما يعز على صاحبنا وأمثاله من شباب أمة الإسلام.

وعلى الجانب الآخر فتجده في إنفاقه كعامة الناس الذين لم تتسع تجارتهم ولم تكثر أموالهم، بل قد يكون أبخل منهم وأضن بكل درهم.

ولقد مَنَّ الله على آخر من دعاة الإسلام وكاد أن يقع في مثل هذا الشَّرَك من اتساع التجارة وكثرة الدكاكين وضياع الأوقات والكسل في القيام بواجبه تجاه دينه ودعوته، وكاد أن يدور في رحى الغافلين لولا أن مَنَّ الله عليه بإخوان أوفياء وأصدقاء مخلصين وأهل علم صالحين، فذكروه بواجبه وفكروه بمهمته وظلوا معه يثبتونه حتى تخطى العقبة وحل العقدة وعاد إلى سبيله الذي عاهد الله عليه منذ سنين، فأغناه الله خيرًا من المال والتجارة وقنعه الله قناعة بالعلم والإيمان، فلو رأيته رافعًا يديه إلى الله شاكرًا أنعمه عليه ومنته وفضله لأخذت من قصته أعظم العبر، فَعِ الخبر!

٥- رأس الأدب الحياء:

الحياء رأس الأدب، وخلق الإسلام، ومن أبرز الصفات التي تنأى بالمرء عن الرذائل وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق وحمأة الذنوب، كما إنه من أقوى البواعث على الفضائل وارتياد معالي الأمور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء.

وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم، ويكفي الحياء خيرًا كونه على الخير دليلاً، إذ مبدأ الحياء انكسار وانقباض يلحق الإنسان مخافة نسبته إلى القبيح، ونهايته ترك القبيح[1]، قال النبي ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[2].

وضد الحياء: الوقاحة، وهي مذمومة في كل الناس، ومن حرم الحياء هجمت عليه الوقاحة فأسرته في صفها، قال مالك بن دينار: «ما عاقب الله تعالى قلبًا بأشد من أن يسلب منه الحياء».

---

(١) انظر: الحياء خلق الإسلام، لمحمد إسماعيل المقدم ص ٥.

(٢) البخاري رقم ٥٧٦٦، باب الحياء، ومسلم رقم ٣٧، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

وقال سفيان بن عيينة: «لا يخاف العبد حتى يستحي، وهل دخل أهل التقوى في التقوى إلا من الحياء».

أما كيف نولد الحياء في قلوبنا؟

فهو بأمرين: تذكر نعمة الله، ومعرفة تقصيرنا في حقه.

لما احتضر الأسود بن يزيد بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: «ما لي لا أجزع ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أتيت بالمغفرة من الله تعالى لأهمني الحياء منه مما صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، ولا يزال مستحيًا منه».

وشهد الفضيل بن عياض موقف عرفات، فرفع رأسه إلى السماء وقد قبض على لحيته وهو يبكي بكاء الثكلى ويقول: «وا سوأتاه منك، وإن عفوت».

وقال الفضيل: «خمس من علامات الشِّقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أيها الناس استحيوا منَ الله، فوالله ما خرجت لحاجة منذ بايعت رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مقنِّعٌ رأسي حياءً من الله».

وهذا الفاروق عمر رضي الله عنه يقول: «من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقى».

وعن الحسن رحمه الله ـ وذكر عثمان رضي الله عنه وشدة حيائه ـ قال: «إن كان ليكون في البيت والبيت عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه».

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «إني لأغتسل في البيت المظلم فما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي حياء من ربي عز وجل».

وعلى المرء الصالح أن يستحي من الله سبحانه ثم من ملائكته ثم من الناس ونفسه.

وسئل بعضهم عن المروءة فقال: «هي أن لا تفعل في السر أمرًا وأنت تستحي أن تفعله في العلانية».

قال ابن القيم رحمه الله: «قال بعض الصحابة رضي الله عنه: إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم». وقد نبه سبحانه على هـذا المعنى فقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي: استحيوا من هؤلاء ـ الملائكة ـ الحافظين الكاتبين وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإن كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه وإن كان يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان»[1].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**ما كرهت أن يراه الناس فلا تفعله إذا خلوت**»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله، قال: «**ليس ذاكم، ولكن من استحيا من الله حق الحياء: فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[3].

---

(١) الداء والدواء، ص١٣٢.

(٢) حسنه الألباني (انظر: الصحيحة رقم ١٠٥٥).

(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني (انظر: صحيح الترمذي للألباني ٢/٢٩٩)، (ومعنى ما وعى: يعني ما جمع، وما حوى: يعني ما فيه من القلب والفرج، والبلى: يعني الفناء).

٦- أدب اللسان:

لقد ندبنا الله سبحانه إلى اختيار أحسن الكلام وأكرمه وأصفاه وأكمله حيث قال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، ثم بين سبحانه أن النزول عن درجة التي هي أحسن في الكلام يعطي فرصة للشيطان أن يوقع بين الناس فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الاسراء: ٥٣].

هل نؤاخذ بما نقول؟

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: هل نؤاخذ بما نقول؟ فقال ﷺ: «**وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٢].

لا تتكلم فيما لا يعنيك:

إن سبب الكلام فيما لا يعني حرص الإنسان أن يعرف ما لا حاجة له به، أو قضاؤه الأوقات في الحكايات التي لا فائدة فيها، أو فضوليته لمعرفة أحوال غيره أو استشراف ما خبئ عنه، وكلها أخلاق مذمومة ينبغي على أهل الإسلام التطهر منها والتنزه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني (انظر: صحيح ابن ماجه رقم ٣٢٠٩).
(٢) متفق عليه، البخاري ٥٦٧٢، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ومسلم ٤٧، كتاب الإيمان.
(٣) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩١١).

الكلمة الموبقة:

وهي كلمة المعصية، يقولها الإنسان وقد لا يهتم بها، وقد ينساها، ولكن ربك لا يضل ولا ينسى، قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**»(١).

ليس المؤمن هكذا:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**»(٢).

والطعان الذي يطعن في خلق الناس وفي أعمالهم وصفاتهم بالسوء، واللعان الذي يكثر اللعن في كلامه وحديثه، والفاحش الذي لا يستحي من ذكر الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، والبذيء هو عديم الحياء، فتأمل هذا الحديث وأدب نفسك بآدابه... تتأدب.

هل تمزح؟

لا يليق بطالب العلم ولا الدعاة إلى الله كثرة المزاح والمداومة عليه والإفراط فيه؛ فإن الأمة الجادة لا تعرف المزاح، والمداومة على المزاح تسقط الهيبة والوقار، وتسبب كثرة الضحك، وأما الذي يليق بأهل الإيمان ما قاله النبي ﷺ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**إني أمزح ولا أقول إلا حقًا**»(٣).

وقال عمر بن الخطاب: من مزح استخف به، وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك (يضيق صدره منك)، ولا تمازح الدنيء فيجترئ عليك.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٩).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٨١).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٤٩٤).

المؤمن لا يكذب: فالكذب في الكلام - ولو كان بكلمة واحدة - من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، قال النبي ﷺ: «**إياكم والكذب، فإنه مع الفجور وهما في النار**»[١].

ما الغيبة؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**الغيبة ذكرك أخاك بما يكرهه**»[٢].

قال القاسمي: «حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته».

هل الغمز من الغيبة؟

قال في موعظة المؤمنين: «وإنما حرم الذكر باللسان - الغيبة - لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه، ولذا كان التعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يُفْهِم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام»[٣].

هل أرد غيبة أخي؟

إذا جلست مجلسًا ذُكر فيه أخوك بما يكره وجب عليك أن ترد غيبته، فعن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «**ما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره، وما من امرئ خذل مسلمًا في موطن تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٠٧٢).

(٢) مسلم ٢٥٨٩، باب تحريم الغيبة.

(٣) انظر: موعظة المؤمنين، ص٢٨٤.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٠).

وفي رواية: «**من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقًا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة**»[١].

٧- ثورة الغضب:

إن الغضب شعلة نار مستكنة في الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الشيطان اللعين ويزكيها داء الكبر في قلب الغضبان.

والغضب مفتاح كل شر، وقال الحكماء: رأس الحمق الحدّة وعموده الغضب. وقال الحسن: المؤمن لا يغلبه الغضب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل للنبي ﷺ وقال له: أوصني. قال ﷺ: «**لا تغضب**»، فكرر مرارًا، فقال: «**لا تغضب**»[٢].

هل يمكن زوال الغضب؟

نسمع كثيرًا من الناس يصفون أنفسهم بشدة الغضب ولا يجدون لذلك دواءً، وقد بين العلماء أن زوال الغضب يكون بالتدريب على ذلك ورياضة النفس عليه، فمن عود نفسه التحلم صار ـ بطول الوقت ـ حليمًا، وإنما الحلم بالتحلم، وليس التدريب ورياضة النفس لينعدم الغضب، ولكن ليستعمله على حد يستحبه الشرع، فيكون في محاب الله وليس انتصارًا للنفس، قال النبي ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم**»[٣].

---

(١) وأحيل القارئ في آداب اللسان إلى مظانها من أمثال كتاب مختصر منهاج القاصدين وموعظة المؤمنين وكتب الحديث في أبواب الأدب وأمثالها، وعلى كل أحد أن يتدبر آداب اللسان من تلك الكتب وإنما أردت هنا الإيجاز والإشارة فقط.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٦٥، باب الحذر من الغضب.

(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

٨- الرفق الجميل:

إذا كان الغضب والشدة نتيجة الفظاظة والغلظة، فإن الرفق واللين نتيجة حسن الخلق والأدب، ولا يرفق إلا مؤدب، ولأجل هذا فقد أثنى النبي ﷺ على الرفق وبالغ في الثناء عليه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق**»[١].

وعن عائشة أيضًا رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**عليك بالرفق؛ فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[٢].

وما أجمل طالب العلم والداعية إلى الله إذا اتصف بالرفق، ما أجمله! ما أجمله!

٩- من آداب الصالحين[٣]:

روى الذهبي أن جابر بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب: «أبو بكر سيدنا أعتق بلالاً سيدنا».

وذكر الذهبي عن معاذ قال: «ما بزقت عن يميني منذ أسلمت».

وعن أبي رزين قال: قيل للعباس: أنت أكبر أو النبي ﷺ؟ قال: هو أكبر وأنا ولدت قبله.

قال الذهبي: وورد أن عمر عمد إلى ميزاب للعباس على ممر الناس فقلعه، فقال له العباس: أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه، فأقسم عمر: لتصعدن على ظهري ولتضعنه موضعه.

---

(١) أخرجه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٤، باب فضل الرفق.

(٣) هذه الأخبار جمعت من (سير أعلام النبلاء، صفة الصفوة، البداية والنهاية).

وعن أبي سلمة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت، فأخذ له بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا نفعل بعلمائنا.

وروى الذهبي عن مغيرة قال: خرج عديٌّ وجرير البجلي وحنظلة الكاتب من الكوفة، وقالوا: لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان.

وعن عبد الرحمن بن رزين قال: أتينا سلمة بن الأكوع، فأخرج إلينا يدًا ضخمة كأنها خف البعير، فقال: بايعت بيدي هذه رسول الله ﷺ، قال: فأخذنا يده فقبلناها.

وكان علي بن الحسين إذا سار في المدينة على بغلته، لم يقل لأحد: الطريق، ويقول: هو مشترك ليس لي أن أنحي عنه أحدًا.

قال سفيان بن عيينة: لما مات مسلم بن يسار قال الحسن البصري: وامعلّماه.

وقال ابن جريج عن عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد.

وعن أيوب قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة؛ فإن قضى الله موتًا في موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ، قال: والله لأن يعذبني الله بغير النار أحب إليّ من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلاً.

وعن عاصم بن أبي النجود قال: ما قدمت على أبي وائل من سفر إلا قبَّل كفِّي.

وقال أبو زرعة: كنت عند أحمد بن حنبل، فذكر إبراهيم، وكان متكئًا من علة فجلس، وقال: لا ينبغي إن ذكر الصالحون فيُتكأ.

وعن يحيى بن يمان قال: كان سفيان الثوري إذا قعد مع إبراهيم بن أدهم تحرز من الكلام (تأدبًا).

قال أبو مصعب: سمعت مالكًا يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وقال: كان مالك لا يُحدث إلا وهو على طهارة إجلالاً للحديث.

وقال ابن وهب: ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه.

وعن مالك قال: ما جالست سفيهًا قط.

وعن مالك قال: إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه.

وعن ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: حق على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينة وخشية.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة، لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع الناس.

وسئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة فقال: إنا نهينا أن نتكلم عند أكابرنا.

قال إبراهيم بن الأشعث: رأيت سفيان بن عيينة يُقبل يد الفضيل مرتين.

وقال سَلْم بن جنادة: جالست وكيعًا سبع سنين، فما رأيته بزق ولا مس حصاة ولا جلس مجلسًا فتحرك، وما رأيته إلا مستقبل القبلة وما رأيته يحلف بالله.

قال الفلاس: ما سمعت وكيعًا ذاكرًا أحدًا بسوء قط.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما شبعت منذ ستة عشرة سنة.

وقال الشافعي: لو أعلم أن الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته.

وقال أبو إسحاق الجوزجاني: سمعت يحيى بن معين يقول: الذي يحدِّث ببلد به من هو أولى بالتحديث منه أحمق.

وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا.

وعن سهل بن عبد الله التستري قال: من أخلاق الصديقين أن لا يحلفوا وأن لا يغتابوا ولا يُغتاب عندهم، وأن لا يشبعوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا ولا يمزحون أصلاً.

وعن ابن سيرين: أن عمر كتب في عهد حذيفة على المدائن: اسمعوا له وأطيعوا واعطوه ما سألكم، فخرج من عند عمر على حمار فوكف، تحته زاده، فلما قدم استقبله الدهاقين وبيده رغيف وعرق.

وعن مروان الأصفر، سمع الأحنف يقول: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذلك وإن تعذبني فأنا أهل لذلك.

وقال الأحنف: ثلاث فيّ ما أذكرهُن إلا لمعتبر: ما أتيت أبواب السلاطين إلا أن أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحدًا بعد أن يقوم من عندي إلا بخير.

وكان الأحنف إذا أتاه رجل وسع له، فإن لم يكن له سعة، أراه كأنه يوسع له.

وعن ثابت البناني: أن أبا برزة كان يلبس الصوف، فقيل له: إن أخاك عائذ ابن عمرو يلبس الخزّ (الثمين من الثياب)، قال: ويحك ومن مثل عائذ؟ فانصرف الرجل فأخبر عائذًا، فقال: ومن مثل أبي برزة؟ قال الذهبي: هكذا كان العلماء يوقرون أقرانهم.

قال أبو المنهال: سألت البراء عن الصَّرف، فقال: سل زيد بن أرقم، فإنه خير مني وأعلم.

قال محمد بن سيرين: جلست إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى وأصحابه يعظمونه كأنه أمير.

وقال مورق العجلي: ما قلت شيئًا قط إذا غضبت أندم عليه إذا زال غضبي.

وعن جميل بن مرة قال: كان مورِّق العجلي رحمه الله يجيئنا فيقول: أمسكوا لنا هذه الصرة فإن احتجتم فأنفقوها، فيكون آخر عهده بها.

وعن عمرو بن مالك قال: سمعت أبا الجوزاء يقول: ما لعنت شيئًا قط ولا أكلت شيئًا ملعونًا قط، ولا آذيت أحدًا قط ولا ماريت أحدًا قط، قال الذهبي: فانظر إلى هذا السيد واقتد به.

وقال وهب بن منبه: لباس الإيمان التقوى وزينته الحياء وماله الفقه.

وقال وهب: المؤمن ينظر ليعلم ويتكلم ليفهم ويسكت ليسلم ويخلو ليغنم.



ثامنًا: عمل السر

الوسيلة الثامنة من وسائل تربية القلب وتزكية النفس، عمل السر، وأقصد به هنا أن يحافظ الإنسان على الطاعات والقربات في السر بعيدًا عن الناس ورؤيتهم، فتقوي عنده تلك الأعمال رغبته في الإخلاص وابتغاءه مرضاة الله وحده، وتكون دليلا على صدقه مع ربه سبحانه، وهي وسيلة لا يستطيعها المنافقون أبدًا، وكذلك لا يستطيعها الكذابون؛ لأن كلاً منهما بنى أعماله على رؤية الناس له، وإنما هي أعمال الصالحين فقط.

وإليك - حبيبي القارئ - بعضًا من البصائر في عمل السر:

١- نحن وأعمال السر:

سبق أن ذكرنا أن أعمال السر لا يثبت عليها إلا الصادقون، وأنها زينة الخلوات بين العبد وبين ربه، ولكن في وقت قل فيه عمل السر أو كاد أن ينسى ينبغي على الحركة الإسلامية إحياء معناه، علمًا وعملاً، وينبغي على شباب الصحوة الإسلامية تربية أنفسهم عليه.

وليعلم كل امرئ أن الشيطان لا يرضى ولا يقر إذا رأى من العبد عمل سر أبدًا، وإنه لن يتركه حتى يجعله في العلانية؛ ذلك لأن أعمال السر هي أشد أعمال على الشيطان، وأبعد أعمال عن مخالطة الرياء والعجب والشهرة.

وإذا انتشرت أعمال السر بين المسلمين ظهرت البركة وعم الخير بين الناس، وإن ما نراه من صراع على الدنيا سببه الشح الخارجي والشح الخفي، فأما الأول فمعلوم، وأما الثاني فهو البخل بالطاعة في السر، إذ إنها لا تخرج إلا من قلب كريم قد ملأ حب الله سويداءه، وعمت الرغبة فيما عنده أرجاءه، فأنكر نفسه في

سبيل ربه، وأخفى عمله يريد قبوله من مولاه، فأحبب بهذي الجوارح المخلصة والنفوس الطيبة الصافية النقية التي تخفي عن شمالها ما تنفق يمينها...

٢- السنة تحث على عمل السر:

قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنؤهم الله: الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سُراهم حتى يُحبوا أن يمَسُّوا الأرض فينزلون، فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جاره فيصبر على أذاه حتى يفرِّق بينهما موت أو ظعن، والذين يشنؤهم الله: التاجر الحلاف، والفقير المختال، والبخيل المنان**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحبِّه إلى صلاته، فيقول الله جل وعلا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رجاء فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى يهريق دمه**»(٣).

---

(١) صححه الألباني (انظر: صحيح الجامع ٥/٢٤٠).

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وإسناده صحيح. (انظر: صحيح الترغيب والترهيب ص٢٥٨، جـ١).

(٣) رواه أحمد والطبراني وابن حبان وحسنه الألباني (صحيح الترغيب رقم ٦٢٦).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انشكفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل، فيقول: يَذَرُ شهوته ويذكرني ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء**»[1].

٣- الصالحون ينصحون بعمل السر:

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ».

والخبيئة من العمل الصالح هو العمل الصالح المختبئ يعني المختفي، والزبير رضي الله عنه هنا ينبهنا إلى أمر نغفل عنه وهو المعادلة بين الأفعال رجاء المغفرة؛ فلكل إنسان عمل سيئ يفعله في السر، فأولى له أن يكون له عمل صالح يفعله في السر أيضًا لعله أن يغفر له الآخر.

وقال سفيان بن عيينة: قال أبو حازم: «اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك».

وقال أيوب السختياني: «لأن يستر الرجل الزهد خير له من أن يظهره».

وعن محمد بن زياد قال: «رأيت أبا أمامة أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده، ويدعو ربه، فقال له أبو أمامة: أنت أنت لو كان هذا في بيتك».

٤- عمل السر دليل الصدق:

قال أيوب السختياني: والله ما صدق عبد إلا سرَّه ألا يُشعر بمكانه.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني (صحيح الترغيب رقم ٦٢٥).

وقال الحارث المحاسبي: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله.

وقال بشر بن الحارث: لا أعلم رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال بشر: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

وقال أيضًا: لا تعمل لتذكر، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة.

وعنه أيضًا: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه.

وعنه: ما اتقى الله من أحب الشهرة.

٥- الصالحون يخفون أعمالهم:

عن عمران بن خالد قال: سمعت محمد بن واسع يقول: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به.

وعن يوسف بن عطية عن محمد بن واسع قال: لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جنبه.

وكان أيوب السختياني يقوم الليل كله فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

وعن ابن أبي عديّ قال: صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازًا يحمل معه غداه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشيًا فيفطر معهم.

وكان ابن سيرين يضحك بالنهار، فإذا جن الليل فكأنه قتل أهل القرية.

وقال حماد بن زيد: كان أيوب ربما حدَّث بالحديث فيرق، فيلتفت ويتمخط ويقول: ما أشد الزكام!

وقال الحسن البصري: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته، فيردها، فإذا خشي أن تسبقه قام.

وقال مغيرة: كان لشريح بيت يخلو فيه يوم الجمعة، لا يدري الناس ما يصنع فيه.

قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لابن المبارك: إبراهيم بن أدهم ممن سمع؟ قال: قد سمع من الناس، وله فضل في نفسه، صاحب سرائر، وما رأيته يظهر تسبيحًا ولا شيئًا من الخير.

وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة.

وروى الذهبي: كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها.

٦- كيف نربي أنفسنا على عمل السر؟

أ - تدبر معاني الإخلاص: فالتربية على الإخلاص لله سبحانه وتذكير النفس به دائمًا هي الدافع الأول على عمل السر، ذلك إن الباعث على عمل السر هو أن يكون العمل لله وحده وأن يكون بعيدًا عن رؤية الناس، فعلى المربين تطبيق معاني الإخلاص في أمثال ذلك السلوك الخفي أثناء تدريسه للناس، وحثهم على عمل السر من منطلق الإخلاص لله سبحانه.

ب - استواء ذم الناس ومدحهم: وهو معنى لو تربى عليه المرء لأعانه على عمل السر، إذ إنه لا تمثل عنده رؤية الناس شيئًا، سواء مدحوه لفعله أو ذموه

له ؛ لأن مبتغاه رضا ربه سبحانه وليس رضا الناس، وقد سبق أن بعض العلماء كان يُعلم تلاميذه فيقول لهم: اجعلوا الناس من حولكم كأنهم موتى.

جـ - تقوية مفهوم كمال العمل: وأقصد بذلك أن يتعلم المسلم أنه يجب أن يسعى إلى أن يكتمل عمله وتكمل كل جوانبه ليحسن ويقبل، وإن العمل الذي لا يراه الناس يُرجى فيه الكمال أكثر مما يرجى في غيره، فينبغي الاهتمام به أكثر.

د - صدقة السر: طريقة عملية سهلة لتطبيق عمل السر عمليًا، فبالإكثار من صدقة السر يُعَود الإنسان نفسه على أعمال السر ويتشربها قلبه وتركن إليها نفسه، وقد ذكر أهل العلم بعضًا من الفضائل في صدقة السر منها:

قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

أن صدقة السر أستر على الآخذ وأبقى لمروءته وصونه عن الخروج عن التعفف.

أنها أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ؛ فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء.

أنها أقرب إلى الأدب في العطاء.



تاسعًا: الارتباط بالمساجد

وهي الوسيلة التاسعة من وسائل تزكية النفس وتطهير القلب، وإنما أقصد بالارتباط بالمساجد: تعلق القلب بها ودوام التردد عليها وكثرة الجلوس بها وحبها وإكرامها والإكثار من بنائها وتطييبها وإحياء العبادات بها، والاجتماع على طاعة الله فيها، وتحبيب العامة فيها، والانطلاق منها لهداية الخلق.

١- المشي إلى المساجد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً كلما غدا أو راح**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من تطهر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة وخطوة تكتب حسنة، ذاهبًا وراجعًا**»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قُرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد»، قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: «**بني سلمة دياركم تُكْتب آثاركم، دياركم تُكْتب آثاركم**»، فقالوا: ما سرنا أنا كنا تحولنا(٤).

---

(١) رواه مسلم ٦٦٩، باب المشي إلى الصلاة. (٢) رواه مسلم ٦٦٦، باب المشي إلى الصلاة.

(٣) رواه أحمد والطبراني وصححه الألباني (ترغيب رقم ٢٩٨).

(٤) رواه مسلم ٦٦٥، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة، فقيل له: لو اشتريت حمارًا لتركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الرجل في الجماعة تُضعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة**». وفي رواية: «**اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحْدِث فيه**»[2].

٢- من أتى المسجد فهو في صلاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ أحدكم في بيته ثم أتى المسجد، كان في الصلاة حتى يرجع، فلا يقل هكذا**» وشبك بين أصابعه[3].

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا توضأ أحدكم ثم خرج عامدًا إلى الصلاة، فلا يشبكن بين يديه، فإنه في صلاة**»[4].

---

(١) رواه مسلم ٦٦٣، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد.

(٢) رواه مسلم ٦٤٩، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة.

(٣) رواه ابن خزيمة وصححه الألباني (الصحيحة ١٢٩٤).

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي (وصححه الألبان في صحيح الترغيب رقم ٢٩٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتباه أو كاتبه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت ويكتب من المصلين، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه**»[1].

٣- مغفرة للذنب:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة وخطوة تكتب له حسنة، ذاهبًا وراجعًا**»[2].

وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة، فصلاها مع الإمام غفر له ذنبه**»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه فيُسبغه، ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا تبشبش الله إليه، كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته**»[4].

٤- نور المشائين في الظلمات:

عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»[5].

قال الألباني رحمه الله: «والحديث يعني العشاء والصبح لأنها تقام بغلس» (يعني بظلمة).

---

(١) رواه أحمد وصححه الألباني (ترغيب ٢٩٧).

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني (ترغيب ٢٩٨).

(٣) رواه ابن خزيمة وصححه الألباني (ترغيب ٢٩٩).

(٤) رواه ابن خزيمة وصححه الألباني (ترغيب ٣٠١).

(٥) رواه أبو داود وصححه الألباني (صحيح الترغيب ٣١٣)، والمشَّاء من صيغ المبالغة والمراد كثرة مشيهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليضيء للذين يتخلّلون إلى المساجد في الظلم بنور ساطع يوم القيامة**»(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من مشى في ظلمة الليل إلى المسجد لقي الله عز وجل بنور يوم القيامة**»(٢).

قال ابن عثيمين رحمه الله: «لا شك أن الذي يذهب إلى المسجد في الظلم فإن جزاءه من جنس العمل، يعني كما تجشم الظلم وأتى إلى المساجد فإنه يكتب له النور يوم القيامة».

٥- انتظار الصلاة... السنة المهجورة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(٥).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني (ترغيب ٣١٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني (ترغيب رقم ٣١٦).

(٣) متفق عليه. البخاري ٦٢٨، كتاب الجماعة، باب من جلس في المسجد. ومسلم ٦٤٩، باب فضل صلاة الجماعة.

(٤) رواه البخاري، رقم ٤٣٤، باب الحدث في المسجد.

(٥) رواه مسلم برقم ٢٥١، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إسباغ الوضوء في المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ تغسل الخطايا غسلاً**»[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا يُنصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة، لا لغو بينهما كتاب في عليين**»[٢].

قال الألباني رحمه الله: «تسبيح الضحى: يريد صلاة الضحى، وكل صلاة يتطوع بها فهي تسبيح وسُبحة، وقوله: «لا يُنصبه» أي لا يتعبه ولا يزعجه إلا ذلك».

٦- أحب الأماكن إلى الله المساجد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»[٣].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي البلدان أحب إلى الله وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: «**لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام**»، فأتاه جبريل فأخبره: «**إن أحسن البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق**»[٤].

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار وإسناده صحيح، وصحححه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣١١).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني (ترغيب رقم ٣١٨).

(٣) رواه مسلم برقم ٦٧١، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد.

(٤) رواه أحمد وصححه الألباني (ترغيب رقم ٣٢٣).

٧- فضائل أهل المسجد:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المسجد بيت كل تقي، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما توطن رجلٌ المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله تعالى إليه كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم**»[٢]، وفي رواية لابن خزيمة قال: «**ما من رجل كان توطّن المساجد، فشغله أمرٌ أو علة ثم عاد إلى ما كان إلا يتبشبش الله إليه كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم**»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[٤].

٨- التربية على الارتباط بالمساجد:

إن الأحاديث السابقة التي سقناها في بيان قيمة المسجد في التربية الإيمانية لهي دافعة لكل المربين والمعلمين أن يعتمدوا الارتباط بالمساجد كوسيلة هامة ومؤثرة في

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني (ترغيب رقم ٣٢٨).

(٢) رواهما ابن خزيمة وابن حبان وصححهما الألباني (ترغيب رقم ٣٢٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) متفق عليه، البخاري ٦٢٩، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد. ومسلم ١٠٣١، فضل إخفاء الصدقة.

البناء الروحي والإيماني للأفراد، ومن ثم عليهم أن يوجهوا جهودهم تجاه وضع البرامج التي تهدف إلى ذلك، وللتربية على الارتباط بالمساجد نحاول أن نقف على عدة توجيهات بإيجاز:

أ - التأكيد على صلاة الجماعة في المساجد: فيجب على كل مسلم أن يعلم أهمية صلاة الجماعة في المساجد، وأن النبي ﷺ أمر بها وحذر من التخلف عنها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا لي حُزمًا من حطب، ثم آتي قومًا يصلون في بيوتهم فأحرقها عليهم**»[2].

ب - تربية النشء في المساجد: فإذا ارتبط الشاب منذ صغر سنه بالمسجد شب على ذلك وكبر عليه وصار المسجد بالنسبة له مأوى يأوي إليه وملاذًا يطمئن فيه قلبه.

جـ - عقد اللقاءات في المساجد: فيتعود الشباب أن يعقدوا ارتباطاتهم ولقاءاتهم ومواعيدهم في المساجد، ولقاؤهم في المساجد يمنعهم من حديث الدنيا ومن اللهو والهوى، وربما يسمعون في المساجد خيرًا فيفيدهم، وربما تنقلب لقاءاتهم إلى لقاءات قراءة للقرآن أو تدارس علم أو غيره.

د - التأكيد على سنة انتظار الصلاة: فهي سنة ـ كما سبق في الأحاديث ـ تعين على زيادة الإيمان وتكفير الذنوب ومحو الخطايا، فيوجه إليها المعلمون ويؤكدون عليها ويبدءون بأنفسهم فينتظرون الصلاة بعد الصلاة، ويحثون الناس على ذلك ويبينون لهم فضائلها.

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان، وصححه الألباني (الترغيب برقم ٤٢٤).

(٢) رواه مسلم بلفظ (فتياني) رقم ٦٥١، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها.

هـ - البيئة الاجتماعية في المساجد: وبعض الدعاة الصالحين يجعل من علاقات أهل المسجد علاقات حميمة قوية جدًا بغير مصلحة دنيوية ولا هدف غير الالتقاء على محبة الله سبحانه، فتراهم يجعلون من مجتمع المسجد مجتمعًا مترابطًا كأنهم أهل بيت واحد، فيسأل الحاضر عن الغائب ويعود الصحيح المريض، ويعين الميسر المعسر، ويجتمع الجميع في كل صلاة من الصلوات على طاعة الله وذكره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو صارت كل مساجدنا هكذا لتغير حال مجتمعنا من الداخل، ولقويت الروابط، ولسهل أمر الدعوة إلى الله.



عاشراً: الجلوس في المصلى بعد الصلاة

هي الوسيلة العاشرة من وسائل التزكية والتطهير وهي الجلوس في المساجد بعد الصلاة، وهي ملحقة في معناها بالوسيلة السابقة (الارتباط المساجد)، ولكنني أفردتها لأهميتها ولكبير أثرها في التربية الإيمانية، وأقف فيها معك ـ أيها القارئ الحبيب ـ عند عدة توجيهات هامة:

١- المقصود بالجلوس في المصلى:

يقصد بالجلوس في المصلى بعد الصلاة أن يقعد المرء بعد صلاته في المسجد ليذكر الله سبحانه وليختم صلاته، وليتفكر في خلق الله سبحانه وفي آياته.

فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس حَسَنًا»[1] وفي رواية لأبي داود «تربع في مجلسه».

٢- ماذا يفعل إذا جلس بعد الصلاة؟

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن أقعد أذكر الله تعالى، وأكبره وأحمده وأسبحه، وأهلّله، حتى تطلع الشمس، أحبُ إلي من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل**»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله، من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد**

---

(١) رواه مسلم ٦٧٠، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وقوله: «حَسَنا» يعني طلوعًا حسنًا.

(٢) رواه أحمد وحسنه الألباني (الترغيب رقم ٤٦٦).

إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة»[١].

إذن عمله أثناء جلوسه ذكر الله سبحانه وتعالى، ثم دلت الأحاديث على أنه يظل كذلك حتى شروق الشمس ثم يصلي ركعتين، ثم إذا أراد أن يخرج فليخرج. وستأتي الأحاديث تدل على ذلك.

٣- فضل المكوث بعد الصلاة إلى أن تطلع الشمس:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة**» قال: قال رسول الله ﷺ: «**تامة تامة تامة**»[٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاة الغداة في جماعة، ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم قام فصلى ركعتين، انقلب بأجر حجة وعمرة**»[٣].

٤- تنبيه:

يحسن الجلوس في المصلى بعد كل صلاة من الصلوات الخمس لذكر الله تعالى بالأذكار المشروعة بعد السلام ـ وهو إدبار السجود ـ، ولكن يختص المكوث بعد صلاة العصر وصلاة الصبح بالفضل والثواب الكبير ـ كما دلت الأحاديث ـ، ويختص المكوث بعد صلاة الصبح إلى شروق الشمس بالأجر الذي هو أجر حجة وعمرة تامة تامة تامة... ويكون شغله ذكر الله تعالى.

---

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني (الترغيب رقم ٤٦٥).
(٢) رواه الترمذي وحسنه الألباني (الترغيب رقم ٤٦٤).
(٣) رواه الطبراني وحسنه الألباني (الترغيب رقم ٤٦٧).

٥ - بعض الأذكار المشروعة بعد السلام من كل صلاة:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثًا وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي عقب كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»[(٣)]، يعني لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا الموت.

وعن مغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[(٤)].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يهلل دبر كل صلاة حين يسلم بهؤلاء الكلمات: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا**

---

(١) رواه مسلم ٥٩١، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته.

(٢) رواه مسلم ٥٩٧، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٣) أخرجه النسائي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥/٣٣٩).

(٤) متفق عليه، اللفظ لمسلم ٥٩٣ في باب استحباب الذكر بعد الصلاة، بيان صفته. البخاري ٨٠٨، باب من لم يرد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة.

نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[١].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر**»[٢].

٦- التربية على هذه العبادة:

وللتربية على هذه العبادة يمكننا أن نستفيد بالنصائح الآتية:

يعود المعلم تلاميذه على أن تكون مواعيد دروس العلم بعد الصبح ما استطاع إلى ذلك.

يؤكد المعلم على أمر النوم المبكر ليمكنه الاستيقاظ بغير تعب ولا إرهاق.

يكثر المعلم من تذكيرهم بفضل المكوث وثوابه وأجره.

يكون المعلم قدوة في ذلك فلا يأمرهم به ويتخلف عنه أبدًا.

يعاتب من يتخلف عن ذلك ويظل به حتى يثبت على ذاك العمل.

يُحذرهم من السهر على الانترنت والتلفاز وما شابهه لأنه يمرض قلبه فلا يستطيع القيام للطاعة نشيطًا، وكذلك يصيبه بالإثم والذنب والبعد عن الله سبحانه فإن النبي ﷺ قد كره الحديث بعد العشاء في المباح[٣]، فكيف بمن جنح به هواه فربما أوقعه في الإثم؟!!

يحاول المربي تبين حاجتهم لهذا العمل ومدى فوائده في التحصيل العلمي وفي الطهارة القلبية والنفسية وفي غيره من الصالحات.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٩٤ في باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته.

(٢) رواه البخاري ٦٠٠٩ باب التعوذ من البخل واللفظ من عذاب القبر.

(٣) انظر ص ٣٩٤.

حادي عشر: نوافل[1] العبادات

وهي الوسيلة الحادية عشر من وسائل التزكية، التقرب إلى الله سبحانه بنوافل العبادات، وأقصد بها كوسيلة من وسائل تزكية النفس أن ينتظم الإنسان في أدائها ويكثر منها، فيعينه ذلك على زيادة القرب من ربه سبحانه وعلى طهارة قلبه.

١- المحافظة على ثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة:

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتًا في الجنة، أو: إلا بني له بيت في الجنة**»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من ثابر على ثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعًا قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر**»[3].

٢- المحافظة على ركعتين قبل الصبح وفضلها:

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر»[5].

---

(١) النوافل: جمع نافلة، وهي صلاة التطوع، وسميت نوافل لأنها زوائد على الفرض.

(٢) رواه مسلم ٧٢٨، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنة الراتبة قبل الفرائض.

(٣) رواه النسائي وصححه الألباني (صحيح الترغيب ٥٧٩).

(٤) رواه مسلم ٧٢٥، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي الفجر والحث عليها.

(٥) رواه البخاري ومسلم، البخاري ١١١٦، باب تعاهد ركعتي الفجر، ومسلم ٧٢٤، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر.

وفي رواية لابن خزيمة: «ما رأيت رسول الله ﷺ إلى شيء من الخير أسرع منه إلى الركعتين قبل الفجر، ولا إلى غنيمة»[١].

٣- المحافظة على الصلاة قبل الظهر وبعدها:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر[٢].

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يحافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها حرمه الله على النار**»[٣]. وفي رواية للنسائي: «**فتمس وجهه النار أبدًا**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها»[٤].

٤- الصلاة قبل العصر:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رحم الله امرءًا صلى قبل العصر أربعًا**»[٥].

٥- الصلاة قبل المغرب وبعدها:

عن عبد الله بن عبد الله المزني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**صلوا قبل المغرب**»، قال في الثالثة: «**لمن شاء**»[٦] كراهية أن يتخذها الناس سنة.

---

(١) رواه ابن خزيمة وصححه الألباني (ترغيب ٥٨١).
(٢) رواه البخاري ١١٢٧، باب «الركعتان قبل الظهر».
(٣) رواه أحمد والنسائي وأبو داود وصححه الألباني (ترغيب رقم ٥٨٣).
(٤) متفق عليه، البخاري ١١١٢، باب التطوع مثنى مثنى، مسلم ٥٧٠، المساجد، باب السهو في الصلاة.
(٥) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وصححه الألباني (ترغيب ٥٨٦).
(٦) رواه البخاري ١١٢٨، باب الصلاة قبل المغرب.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذن بصلاة المغرب ابتدروا السواري فركعوا، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليهما»[1].

٦- الصلاة بعد العشاء:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد الظهر، وركعتين بعد الجمعة، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء»[2].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان إذا صلى العشاء ورجع إلى بيته صلى أربع ركعات»[3].

٧- صلاة الضحى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد»[4].

قال الإمام النووي رحمه الله في التعليق على هذا الحديث: «والإيتار قبل النوم إنما يستحب لمن لا يثق بالاستيقاظ آخر الليل، فإن وثق فآخر الليل أفضل».

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة**

---

(١) رواه مسلم ٨٣٧، باب استحباب ركعتين قبل المغرب.

(٢) رواه البخاري ١١١٢ باب التطوع مثنى مثنى.

(٣) رواه البخاري بلفظ: «ثم جاء إلى منزله فصلى أربع ركعات» كتاب العلم رقم ١١٧.

(٤) متفق عليه، البخاري ١٨٨٠، باب صيام أيام البيض ـ مسلم ٧٢١، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، واللفظ لمسلم.

صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعًا، ويزيد ما شاء الله»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب، ـ قال ـ: وهي صلاة الأوابين»**[(٣)].

قال الألباني رحمه الله: «والأوابين جمع أواب وهو كثير الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى بالتوبة، وفي الحديث رد على الذين يسمون الست ركعات التي يصلونها بعد فرض المغرب بصلاة الأوابين، فإن هذه التسمية لا أصل لها»[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا، فأعظموا الغنيمة، وأسرعوا الكرَّة، فقال رجل: يا رسول الله ما رأينا بعثًا قط أسرع كرَّة ولا أعظم غنيمة من هذا البعث. فقال: **«ألا أخبركم بأسرع كرة منهم، وأعظم غنيمة؟ رجل توضأ فأحسن الوضوء ثم عمد إلى المسجد، فصلى فيه الغداة، ثم عقب بصلاة الضحوة، فقد أسرع الكرة وأعظم الغنيمة»**[(٥)].

٨- صوم ثلاثة أيام من كل شهر «أيام البيض»:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوم ثلاثة أيام من كل شهر، صوم الدهر كله»**[(٦)].

---

(١) رواه مسلم ٧٢٠، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى.
(٢) رواه مسلم ٧١٩، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى.
(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني (ترغيب برقم ٦٧٦).
(٤) صحيح الترغيب والترهيب جـ١، ص٢٨٠.
(٥) رواه أبو يعلى والبزار وابن حبان، وصححه الألباني (صحيح الترغيب برقم ٦٦٧).
(٦) رواه البخاري ومسلم، البخاري ١٨٧٩، باب صوم داود عليه السلام واللفظ له. مسلم ١١٥٩، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله**»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر، يذهب وَحَرَ الصدر**»[٢]، ووَحَر الصدر: يعني غشه وحقده ووساوسه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صمت من الشهر ثلاثًا فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة**»[٣].

٩- صوم الاثنين والخميس:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصوم الاثنين والخميس، فقيل: يا رسول الله، إنك تصوم الاثنين والخميس؟ فقال: «**إن يوم الاثنين والخميس يغفر الله فيهما لكل مسلم، إلا مهتجرين، يقول: دعهما حتى يصطلحا**»[٥].

١٠- النوافل تورث حب الله سبحانه:

انظر أخي الحبيب إلى الحديث الآتي وتدبره جيدًا تجد من الخير كنوزًا قد جعلها لك ـ سبحانه ـ في متناولك إذا أنت فعلت ما أمرك به وما حثك عليه..

---

(١) رواه مسلم ١١٦٢، باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة.

(٢) رواه البزار وصححه الألباني (صحيح الترغيب رقم ١٠٢٢).

(٣) رواه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني (ترغيب ١٠٢٨).

(٤) رواه النسائي وابن ماجه وصححه الألباني (ترغيب ١٠٣٥).

(٥) رواه مسلم (٤/بر/١٩٨٧/ح٣٥) وابن ماجه وأبو داود (ولفظ مسلم باختصار ذكر الصوم).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[١].

١١- الالتزام بسنة النبي ﷺ في النوافل:

هذا كلام الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء يوصينا فيه بالالتزام بسنة النبي ﷺ وعدم الاستزادة عليها في النوافل، ويبين لنا أن ذلك هو الخير وأنه أعلى المقامات وأحكمها وأنه ما أصاب مَنْ استزاد على فعل النبي ﷺ فاقرأ وانتبه[٢]:

قال الإمام الذهبي: «أقل مراتب النهي أن تكره تلاوة القرآن، كُلّه في أقل من ثلاث، فما فقه ولا تدبر ما تلي في أقل من ذلك، ولو تلا ورتل في أسبوع ولازم ذلك لكان عملاً فاضلاً، فالدين يُسر.

فوالله إن ترتيل سُبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة والقول عند النوم واليقظة ودُبُر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصًا لله مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتفهيمه وزجر الفاسق ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجبات، واجتناب الكبائر وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة، وصلة الرحم والتواضع والإخلاص في جميع ذلك، لَشُغْل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين.

---

(١) رواه البخاري وسبق تخريجه ص٦١.

(٢) أما ما يروى عن بعض السلف من الإكثار فإن ذلك قد يكون في بعض أحوال نشاطهم في عبادتهم وهي ليست صفتهم الدائمة، إنما صفتهم هي الوسطية والاقتداء بالنبي ﷺ.

فإن سائر ذلك مطلوب، فمتى تشاغل العابد بختمه (للقرآن) في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه ولا تدبر ما يتلوه، هذا السيد العابد الصاحب - عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما - كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وكذلك قال عليه السلام في الصوم، وما زال يناقصه حتى قال له: «**صم يومًا وأفطر يومًا، صوم أخي داود عليه السلام**».

وكل من لم يَزُمّ نفسه في تعبده وأوراده بالسنة النبوية، يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم.

وما زال ﷺ معلمًا للأمة أفضل الأعمال، وآمرًا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يُبعث بها، فنهى عن سرد الصوم ونهى عن الوصال وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير (في رمضان)، ونهى عن العُزْبة (عدم الزواج) للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية، المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل، ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة وجنبنا الهوى والمخالفة»[1].

١٢- ثمرة النوافل وآثارها:

وللمحافظة على الصلوات - بقالبها وروحها - والإكثار من النوافل تأثير لا يُعرف لغيرها في صفاء النفس والسمو الروحي وذوق حلاوة الإيمان، لذلك جاء في الحديث: «**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا**» وأشار إلى القمر «**لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس**

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٨٣ وما بعدها.

وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][١].

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «**يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دف نعليك في الجنة**» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي، أني لم أتطهر طهورًا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي»[٢].

والنوافل سبب كبير في تقوية محبة الله تعالى لذلك أشار النبي ﷺ على من طلب منه المرافقة في الجنة بتكثير النوافل وكثرة السجود[٣]. فقال له: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**»[٤].



(١) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري ٥٢٩، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر عن جرير بن عبد الله، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم ٦٣٣.

(٢) رواه البخاري ١٠٩٨، أبواب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار.

(٣) انظر الأركان الأربعة، ص٧٩، الدار الشامية، ط١.

(٤) رواه مسلم رقم ٤٨٩، باب فضل السجود والحث عليه عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

ثاني عشر: الاقتصاد في مخالطة الناس (إلا فيما فيه خير)

وهي الوسيلة الثانية عشر من وسائل تزكية النفس وتطهير القلب، الاقتصاد في مخالطة الناس إلا فيما فيه خير، وأقصد بهذه الوسيلة: أن يقلل الإنسان من مخالطة الناس وقضاء الأوقات معهم فيما لا فائدة فيه، وأن يقتصر في مخالطتهم ومجالستهم على ما فيه خير وطاعة وقربى إلى الله سبحانه.

وهذا الأمر له محددات وأصول ومفاهيم نذكر ما تيسر لنا منها:

١ - بين العزلة والخلطة:

من السلف من آثر العزلة على مخالطة الناس وفضلها لفوائدها: كالمواظبة على العبادة والمساعدة على التدبر والتفكر والتعلم، والتخلص من ارتكاب المعاصي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة مع الناس كالرياء والغيبة والتنازع والشجار والصراع والسباق على الدنيا والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثر بذوي الأخلاق الخبيثة والأعمال الرديئة.

وأما أكثر السلف فذهبوا إلى استحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان بشرط أن يكون ذلك تعاونًا على البر والتقوى وليس فيه أي نوع من الذنوب والمعاصي والآثام أو الاشتغال بالهوى أو اللهو أو ما شابهه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا وغمًا، وضعفًا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟ هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من

نعمة؟ وأنزلت من محنة وعطلت من منحة وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس؟».

ثم قال: «والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير، كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والنصيحة والجهاد، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات»[1].

٢- يفضل أن يجعل كل امرئ له من يومه أوقات خلوة يخلو فيها بنفسه؛ يصلي ويدعو ويذكر الله سبحانه، وليكن وقت الليل مثلاً، وإن تيسر له وقت ما بعد العصر أو بعد الصبح فيخلو بنفسه في المساجد يذكر ربه سبحانه.

٣- يحسن أن يقلل الإنسان من خلطته بالناس ما أمكن ذلك في أمر الدنيا، ويجعل خلطته لهم خلطة آخرة، فهو يخالطهم ليدعوهم إلى الله، ويجالسهم ليذكرهم بالله ويتحدث معهم ليعلمهم العلم، ويخالطهم لينال ثواب الأعمال التي ندب إليها كحضور الجنازات وعيادة المريض وغيرها.

٤- لا عزلة كاملة في دين الله سبحانه: إذ العزلة التامة رهبانية، ولا رهبانية في دين الله، إنما المقصود قلة المخالطة في شئون الدنيا.

٥- الواجب على المسلم أن تكون حياته كلها مسخرة لنفع نفسه بالعلم والعبودية ولنفع أمته بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وإقامة الدين والارتقاء بأمته في مختلف الميادين، ولأجل فعل ذلك ينبغي عليه ألا يكون مشوشًا أو محل وسوسة أو غفلة أو شهوة، فلذلك يجب أن يخلو إلى ربه سبحانه في أوقات كثيرة ليمنع ذلك عن نفسه، فالقلب ما لم يجتمع على الله تجره خواطره إلى ميادين مختلفة، فتجده مشدودًا إلى ميادين شتى إلا ميدان الإيمان، فلا شيء ينفع القلب مثل خلوته بربه وعزلته عن الناس وقتًا من يومه ومناجاته إياه وبكائه بين يديه.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص٢٤٦.

٦- يخطئ بعض الشباب الطيبين عندما يربط نفسه بغيره في مسألة العبادات، فيعود نفسه دائمًا أن يجتمع مع إخوانه على طاعات وعبادات مختلفة، ولكنه إذا خلا بنفسه لم يعبد الله ولم يقم بأية طاعة من تلك الطاعات والعبادات.

فتجده وقد ربط حاله بحال إخوانه، فما دام معهم وهم في دعوة أو لقاء خير فهو مشارك لهم، ولكنه إذا تركهم فهو بعيد عن أي اتصال بربه إلا ما يكون من صلاة الجماعة.

وفي الحق هذا خطأ كبير وسوء في التربية الإيمانية، يتعرض لها أمثال هؤلاء الشباب، حتى وصل الأمر بأحد الكتاب الذين يكتبون في الدعوة إلى الله أن قال: إنه لا بأس للقائم بالدعوة أن يترك قيام الليل أو الوتر أو غير ذلك من النوافل أو العبادات، قال: ما دام هو يقوم بالدعوة إلى الله، ولا شك أن ذلك المفهوم مفهوم خاطئ من جهات كثيرة وهي دعوة للقائمين بالدعوة لترك تلك العبادات العظيمة التي تُربي الدعاة إلى الله وتهذب نفوسهم، وتقوِّم سلوكهم، وإلا فكيف يعطي قلب الداعية المجهود المخلص المليء بالإيمان والتقوى وهو لم يغذ إيمانه ولم يحقق تقواه بعد؟

نعم قد تضطر بعض الأحوال الداعية إلى الله إلى تقديم شيء عن شيء وتأخير شيء آخر، ولكن في كل أحواله يجب عليه الاهتمام بخلوته مع ربه ومناجاته له والدعاء له، وقيام الليل، ونوافل العبادات وألا يتركها؛ إذ إن فيها دفعًا لطاقته الدعوية والإيمانية.

٧- استحباب اعتزال الناس عند الفساد أو الفتن:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[1].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٦٥، كتاب الزهد والرقائق.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**». قال: ثم من؟ قال: «**رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من خير معاش الناس رجل مُمسك عِنان فرسه، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه، أو رجل في غُنيمة في رأس شعفةٍ من هذه الشَّعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**»[(٣)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة أو ذكرت عنده فقال ﷺ: «**إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا**» وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ فقال ﷺ: «**الزم بيتك وأملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تُنكر، وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة**»[(٤)].

وروى الخطابي قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «نعم صومعة الرجل بيته؛ يكف سمعه وبصره ودينه وعرضه، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتلغي».

---

(١) رواه مسلم برقم ١٨٨٨، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.

(٢) رواه البخاري رقم ١٩، كتاب الإيمان. وشعف الجبال: أعلاها.

(٣) رواه مسلم رقم ١٨٨٩، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والمرابطة. والغنيمة: تصغير الغنم.

(٤) رواه النسائي وأبو داود وأحمد، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٢٠٥).

وروى الخطابي قال: كان طاوس قد جلس في بيته، فقلنا له في ذلك، فقال: فساد الناس وحيف الأئمة (يعني ظلمهم).

وقال الخطابي رحمه الله: «إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه، فتكثر حينئذ بملاقاة الناس ويطرد الوحشة بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة، وقال بعضهم: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس»[1].

(١) العزلة للخطابي ص٢٩، طبعة مكتبة الزهراء، القاهرة.

ثالث عشر: حسن إدارة الوقت

وهي الوسيلة الثالثة عشر من وسائل التربية القلبية، وأقصد بحسن إدارة الأوقات: حسن استغلاله في كل ما ينفع والاستفادة بكل لحظة فيها وعدم التهاون في تضييعها، فيستطيع الإنسان إذا أحسن إدارة وقته أن يقسمه وينظمه، فيعينه ذلك على التفرغ ـ في أوقات ـ للعبادة، وفي أوقات أخرى يتفرغ للعلم، وغيره، فيجمع بين كل خير، وكذلك يجمع مع ذلك بين عمله الذي يتكسب منه ويسترزق منه بحسن إدارته لأوقاته.

وأقف معك ـ قارئي الحبيب ـ عند عدة نقاط هامة في مسألة إدارة الوقت:

١- قيمة الوقت:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[1].

ومغبون فيهما كثير من الناس: أي: ذو خسران فيهما كثير من الناس، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن أو يبيع بأقل من ثمن مثله.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما».

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٠٤٩، باب ما جاء في الصحة والفراغ.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم، ذهب بعضك».

٢- استغلال الأوقات[١]:

عن الحسن البصري رحمه الله قال: «أدركت أقوامًا كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه».

وقال الرَّقام: «سألت عبد الرحمن (ابن أبي حاتم) عن اتفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه، فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه».

وقال الرازي: «وسمعت علي بن أحمد الخوارزمي يقول: سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول: كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كلُ نهارنا مُقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس، فلم يمكننا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد».

وقال أبو الوفاء بن عقيل عن نفسه: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره».

وقال أيضًا: «وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرًا على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها».

---

(١) هذه الآثار الآتية نقلاً عن: (قيمة الزمن عند العلماء، من أخلاق السلف، تهذيب سير أعلام النبلاء).

وكان الخليل بن أحمد ـ أحد أذكياء العالم ـ يقول: «أثقل الساعات عليّ ساعة آكل فيها».

وقل موسى بن إسماعيل: «لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يُحدث، أو يقرأ، أو يسبح، أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك، قال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة رحمه الله تعالى».

وقال عمار بن رجاء: سمعت عبيد بن يعيش ـ شيخ البخاري ومسلم ـ يقول: «أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تُلقمني وأنا أكتب الحديث».

وقال الإمام الذهبي: كان الخطيب ـ البغدادي ـ يمشي وفي يده جزء يطالعه.

وقال الرازي: والله إني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز.

وقال الإمام النووي: «بقيت سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض، قال الذهبي: فسكن المدرسة الرواحية يتناول خبز المدرسة، فحفظ التنبيه وقرأ ربع المهذب حفظًا في باقي السنة، وكان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا».

وقال الإمام ابن القيم: «وحدثني شيخنا ـ ابن تيمية ـ قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك: أليست النفس إذا فرحت وسُرت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسر بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحة، فقال: هذا خارج علاجنا»[1].

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم، ص٧١.

وقال الشوكاني ـ متحدثًا عن نفسه بصيغة الغائب ـ: «وكان تبلغ دروسه إلى نحو ثلاثة عشر درسًا، منها ما يأخذه عن مشايخه ومنها ما يأخذه عنه تلامذته، واستمر على ذلك مدة، ثم إنه فرَّغ نفسه ـ من التلقي عن شيوخه ـ لإفادة الطلبة، فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادة على عشرة دروس في فنون متعددة واجتمع منها في بعض الأوقات: التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض»[1].

٣- خطوات عملية للاستفادة من الوقت:

نحتاج في كثير من الأحيان للطريقة العملية التي نسلكها للسيطرة على أوقاتنا والاستفادة منها، لاسيما مع تشعب الانشغالات في كل واد وكثرة المطالب وضيق الأوقات، وها هي مجموعة من الخطوات العملية التفصيلية أقدمها لك فاستعن بها على حسن إدارة وقتك والاستفادة منه مع العلم بأمرين هامين.

أولهما: أنه يجب عليك الاستعانة بالله سبحانه أولاً في استفادتك بأوقاتك وأن تدعوه سبحانه أن يبارك لك فيها.

والثاني: أننا نرتب أوقاتنا لنستطيع تفريغ أنفسنا للعلم والعبادة ولسنا نرتب أوقاتنا لنزيد من انشغالاتنا، فلا تنس هذين الأمرين الهامين أثناء دراستك لهذا الموضوع الهام.

الأولى: ترتيب الأولويات:

من أكبر المشاكل التي تعوقنا من الاستفادة بأوقاتنا سوء ترتيب أولوياتنا، فنقدم غير الهام على الهام وغير المفيد على المفيد، فتذهب الأوقات في الأمور غير الهامة وغير المفيدة، فنعود في آخر اليوم بالخسارة والانتكاس.

---

(١) البدر الطالع ٢/٢١٨، نقلاً عن قيمة الزمن عند العلماء.

وقد قسم الإداريون الأعمال حسب أهميتها في هذا المربع الرمزي كالتالي:

(١) عمل هام وعاجل — (٣) عمل غير هام وعاجل

(٢) عمل هام غير عاجل — (٤) عمل غير هام غير عاجل

فالأولوية أولاً للأعمال الهامة العاجلة، وثانيًا للأعمال الهامة غير العاجلة، وثالثًا للأعمال غير الهامة العاجلة، وأخيرًا للأعمال غير الهامة غير العاجلة.

وترتيب الأعمال بتلك الصورة ترتيب يجعلك تقوم بفعل أولوياتك الحقيقية بعيدًا عن توهم الأولوية للأعمال التي لا تستحق أولوية.

فالمستوى الأول من الأعمال وهو الأعمال الهامة العاجلة: اجعله على مقدمة جدول أعمالك: وهي تلك الأعمال التي لا يمكن تأخيرها عن موعدها أو الاعتذار عنها أو التفويض فيها، كالعبادات المفروضة المؤقتة، والأعمال الدعوية التي لا تقوم بغير وجودك، وكذلك كل الأعمال التي سيترتب على غيابك عنها أو تأخرك ضرر محقق واقع.

وأما المستوى الثاني من الأعمال: فهو مستوى العمل الهام غير العاجل وهو ذلك المستوى الذي يتخبط فيه كثير من الناس، وذلك كتعلم العلم وفعل بعض النوافل والأذكار والقيام بمسئوليات الدعوة إلى الله وحق أهل بيتك وأولادك وحق الوالدين وحق الصديق وأمثالها من الأعمال الهامة التي لم يتحدد لها وقت معين للأداء، فأنت ترى هنا من أكثر الناس إهمالاً لهذا المستوى من الأعمال وجعله في مؤخرة جدول الأعمال، فإن بقي فراغ عمله وإلا ضيعه!

والمستوى الثالث من الأعمال: هو مستوى العمل غير الهام العاجل، وهو ذلك المستوى الذي يقدمه معظم الناس في أولوياتهم على أعمالهم الأخرى، وذلك كمواعيد الأنشطة الترفيهية ومواعيد الطعام والشراب، ومواعيد

التواجد في الدكاكين التجارية للتجار، ومواعيد الشراء أو البيع للأشياء الخاصة به... إلخ.

وأما المستوى الرابع: فهو مستوى الأعمال غير الهامة غير العاجلة، ومكانها في مؤخرة الجدول ولا شك.

وعلى ما سبق فيكون عمل الإنسان منا كالتالي:

١- يقدم المستوى الأول من الأعمال ثم المستوى الثاني ولا يرضى لذلك بديلاً.

٢- يؤدي المستوى الثالث ولكن بطريق التفويض (ومعناه أن يختار من الناس من يفوضه مكانه للقيام بالأعمال غير الهامة العاجلة، ولكن يشترط مراعاة حدود الشريعة في ذلك وأن يكون الفرد المختار مناسبًا لأداء العمل المفوض فيه).

٣- يجعل أعماله غير الهامة غير العاجلة في أيام العطلات والإجازات.

الثانية: ترتيب الشئون وتنظيمها:

فنحن إذا سألنا أنفسنا كم من الوقت يضيع في بحثنا عن الأشياء؟ أو في إعدادنا لها مرتبة، أو في إزالة الفوضى اليومية من أعمالنا ومتعلقاتنا سنجد أن الإجابة على ذلك مؤلمة.

إن ترتيب الشئون لا يكلف الكثير من الوقت أو الجهد أو المال إذا كان ذلك الترتيب أولاً بأول، وهو آكل للوقت ومضيع للجهد إذا كانت الشئون والأشياء متراكمة لأيام أو أشهر.

لذلك ننصح باتباع الآتي:

- أنفق وقتًا قليلاً على ترتيب الأشياء تشتري وقتًا كثيرًا بالاستفادة بها.
- مكان كل شيء استخدمته هو موضعه الذي أخذته منه وإلا عمت الفوضى.
- لا تقل في نفسك: غدًا أرتب؛ فإن غدًا ـ هذا ـ لن يأتي!

- اهتم بترتيب مكان عملك والإنفاق عليه أكثر من اهتمامك بمكان استقبال الناس.
- إياك وحب التخزين؛ فإن الذين يخزنون الأوراق والمواد إما أنهم لا ينتفعون بها أبدًا أو إنها تكون لهم أداة للعذاب! فحاول التخلص من المخزون دائمًا.
- اجمع الأوراق التي لم تقرر بعد كيف تتعامل معها في ملف خاص.
- الاستعانة بأشخاص لترتيب شئوننا ليس شيئًا مرغوبًا فيه، ولكنه قد يتحول إلى ضرورة في بعض الأحيان.

الثالثة: اختيار أقصر الطرق للوصول للهدف:

لاشك أن الاسترسال في الموضوعات الهامة من المفيد لدراسة تلك الموضوعات والوقوف على أهميتها ومعرفة سلبياتها وإيجابياتها، ولكن قد يكون الاسترسال مع بعض الموضوعات آكلاً للوقت، خصوصًا إذا كان جدولك الوقتي مزدحمًا، وإذا كنت تريد الاستفادة بأكبر قدر في أقل وقت، ولذلك فنحن ننصحك بالتالي:

- إذا كان هناك كتاب تريد أن تقرأه وهو مسجل على شريط كاسيت فاختر سماع الشريط على قراءة الكتاب فإن ذلك أقصر طريق.
- استفد باختصارات غيرك للمواضيع والأبحاث قبل أن تقرر هل تقرؤها أم لا.
- عليك بفهم الأفكار أولاً ثم حفظ الكلمات الهامة منها.
- لا تقرأ شيئًا بدون أن تمسك قلمًا في يدك.
- ضع سؤالاً لكل مقطوعة تقرؤها.
- إن وضع الخطوط تحت فقرات مختارة ذات معلومات مهمة يختصر الوقت بشكل كبير عندما تعود مرة أخرى لتكرر استمتاعك بجملة مفيدة أو فكرة قوية.

- إذا استمعت إلى محاضرة عليك بتدوين النقاط المحورية فيها.
- إذا كان مطلوبًا منك أكثر من كلمة أو محاضرة في أكثر من مكان فحاول تكرار إلقائها مع تعديل يناسب الموقف (اخلط القديم بالجديد) مع ملاحظة أن تنبه الناس عند المكرر أنه قد سبق تكراره...

الرابعة: استخدم طريقة ٣ × ١:

هي طريقة ناجحة جدًا لكل الرجال العمليين، وأعني بها: أن الطريق الواحد الموصل من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) يمر ولا شك على نقاط أخرى قد تكون (ج)، (د)، (هـ)، فمرورك من النقطة (أ) لتنجز شيئًا في النقطة (ب) فبإمكانك إتمام إنجازات مختلفة في النقاط ج، د، هـ.

إنك تستطيع وأنت ذاهب إلى عملك من نفس الطريق المعتادة أن تتابع الأخبار، وأن تسأل على صديق مريض وأن تشتري هدية لزوجتك الغاضبة!

الخامسة: اقض على خرافة اسمها: وقت الفراغ:

كثيرة هي الأوقات الضائعة التي ننفقها حتى نستغل أوقاتنا الأخرى، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن أوقاتنا الضائعة التي نسميها أوقات الراحة أو الأوقات بين المواعيد المختلفة هي النسبة الأكبر من أوقاتنا الكلية، ولذلك ننصح بما يلي:

- ليس هناك وقت اسمه الوقت الضائع، بل يمكن الاستفادة بكل لحظة.
- المصحف الذي معك يجعلك تستفيد من كل لحظة لا تجد فيها عملاً.
- ذكر الله سبحانه في كل وقت لا يجعل الوقت يضيع سدى.
- اجعل وقت الراحة من عمل ما، هو وقت الاستفادة بشيء آخر، فمثلاً اجعل يوم الراحة من عملك الإداري هو وقت استفادة لأسرتك وأولادك.

• حاول الاستفادة بالوقت الذي يهمله الآخرون، اشتر حاجياتك وقت راحة الناس أو نومهم، واذهب للطبيب قبل خروج الناس من أعمالهم، واحجز تذكرة سفرك في وقت متأخر من الليل وسافر بسيارتك بعد صلاة الفجر فإنها أوقات يهملها معظم الناس وتستطيع الاستفادة بها.

السادسة: سَمِّ أوقاتك:

في بعض الأحيان تكون تسمية بعض الأوقات بأسماء الأفعال شيئًا إيجابيًا، فمثلاً يسمي وقت بعد المغرب بوقت القرآن، ليعينه ذلك على استعماله في القرآن، ويسمي ما بعد الثانية عشر مساءً وقت التهجد، فيفضل فيه عبادة التهجد على غيرها، ويسمي وقت ما قبل الفجر وقت الاستغفار ليذكر نفسه فيه بالاستغفار، ويسمي آخر وقت الدعوة فيمارس فيه مهام الدعوة ونصيحة الناس، ووقت آخر يسميه وقت العلم... وهكذا، إن هذا قد يفلح مع بعض الناس، فهل يفلح معك؟

السابعة: وقت: ممنوع الاقتراب:

هناك بعض الأوقات أنصح فيها كل أحد أن يرفع فيها لافتة: ممنوع الاقتراب، وهي الأوقات التي يجب أن يخصصها المرء لربه سبحانه يخلو فيها به عز وجل، فهي زاده الذي يتزود به في يومه وحبله الذي به يتصل بربه، وأقصد بـ- ممنوع الاقتراب: يعني يحذر على نفسه وكذلك على غيره أن يشغله فيه أو يلهيه فيه؛ فالنبي ﷺ كان يكون في مهنة أهله، حتى إذا جاء وقت الصلاة كأنه ليس منهم ولا هم منه، وينبغي أن يُعلم كل من حوله احترام هذه الأوقات التي يؤدي فيها عباداته.

الثامنة: كن هكذا.. يا طالب العلم:

كل ونم واسترح ولكن بقدر الضرورة!

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «وينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهارًا، حضرًا وسفرًا، ولا يذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر الضرورة، لأكل أو نوم قدرًا لابد منه، ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات»[(١)].

قال ابن الجوزي رحمه الله[(٢)]: «الكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه واتعب لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسق غصنك مادامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت، فكفى بها عظة، ذهبت لذلة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل».

قالت التابعية الجليلة حفصة بنت سيرين: «يا معشر الشباب، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب، فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب»[(٣)].

قال الإمام أحمد: «ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط»[(٤)].



(١) نقلاً عن: قيمة الزمن عند العلماء ص٣٠.
(٢) رسالة «لفتة الكبد في نصيحة الولد» لابن الجوزي ص١٠.
(٣) صفة الصفوة، جـ٤، ص٢١.
(٤) نقلاً عن: قيمة الزمن عند العلماء ص٣٦.

الفصل السادس

بصائر في
الطريق إلى الله سبحانه

١- الإخلاص أول الخطوات

هي أولى النصائح وأغلى النصائح: الإخلاص لله عز وجل في كل أعمالك صغيرًا كان أو كبيرًا، ظاهرًا كان أو خفيًا، فما خاب من أخلص لله أبدًا، وإنما يتعثر دومًا من لم يخلص.

والإخلاص عزيز ولا يمكن أن تشوبه شائبة فيحملها، فالإخلاص لله لا يوجد إلا كاملاً نظيفًا طاهرًا؛ إذ إن الله سبحانه لا يقبل من إخلاص العمل ما شابه شائبة، إنما يقبل الله الإخلاص التام له وحده، كما جاء في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[١].

ما هو الإخلاص؟

هو تجريد قصد التقرب لله عز وجل عن جميع الشوائب، وقيل: هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات، وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق[٢].

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**» ثم قال: «**إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغى به وجهه**»[٣].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٨٥.

(٢) تزكية النفوس، أحمد فريد، ص ١٣، التوعية الإسلامية.

(٣) رواه النسائي وأبو داود وصححه الألباني (ترغيب، برقم ٦).

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله**»[١].

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عز وجل: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، وروي أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: «يا نفس أخلصي تتخلصي».

كيف تربي نفسك على الإخلاص؟

أ - التفكر في عظمة الله ووقاره.

ب - معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

جـ - إهمال رؤية الناس وعدم التأثر بمدحهم أو ذمهم أبدًا، فإن الاهتمام برؤية الناس في العبادة طريق سوء.

د - كسر كل حظ للنفس في العمل.

هـ - قطع الطمع عن الدنيا.

و - تجديد النية دائمًا.

ز- قلة الحديث عن أعماله وإنجازاته وخصوصياته.

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني (ترغيب، برقم ٧).

٢- احذر الرياء

عرفنا أن من شروط العمل الصالح أن يكون خالصًا من الرياء متبعًا للسنة، وأن من خلا عمله من ذلك فسد عمله ولم يرفعه الله سبحانه.

قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

والذي يقوم بعبادة ليراه الناس فهو مشرك شركًا أصغر، وعمله حابط، قال سبحانه في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وكذلك إذا عمل الإنسان العمل ليشتهر به أو لينتقل خبره فيتسامع به الناس وقد أوعد الله من فعل ذلك وعيدًا شديدًا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سَمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»**[1].

ومن عمل عبادة قصد بها الله والناس فعمله كذلك حابط، كما سبق.

ومن ابتدأ العمل لله ثم طرأ عليه الرياء، فإن كرهه وجاهده ودافعه صح عمله، وإن استروح إليه وسكنت إليه نفسه فقد نص أكثر أهل العلم على بطلانه[2].

عن أبي هند الداري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«من قام مقام رياء وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسمَّع»**[3].

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٢٨٩.

(٢) وانظر: محرمات استهان بها الناس، للمنجد، بتعليق الشيخ ابن باز رحمه الله ص١٨.

(٣) رواه أحمد وصححه الألباني (ترغيب رقم ٢٢).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به مسامع خلقه، وصغره وحقره**»(١).

ومعنى سمَّع - بتشديد الميم - يعني: أظهر عمله للناس رياءً، فمن فعل ذلك أظهر الله نيته الفاسدة في عمله يوم القيامة، وفضحه على رءوس الأشهاد.

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**»(٢).

كيف نحذر الرياء؟

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل**» فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»(٣).

قمة الترهيب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: فلان جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.**

---

(١) رواه أحمد والطبراني وصححه الألباني (ترغيب ٢٣).

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني (صحيح الترغيب رقم ٢٩)، ومحمود بن لبيد رضي الله عنه قال البخاري: له صحبة.

(٣) رواه أحد والطبراني وحسنه الألباني (صحيح الترغيب رقم ٣٣).

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»[1].

وما من عبد له قلب حيّ يسمع بهذا الحديث إلا أورثه خوفًا ووجلا، وكان دافعًا له لترك الرياء بالكلية، وكان موجهًا له لتمام الإخلاص والصدق مع الله سبحانه، فصلى الله وسلم على محمد خير ناصح لأمته وخير معلم بخير علم.

٣- إياك أن تغتر بعملك

بعض الناس إذا فعل بعض الطاعات والقربات واستمر على ذلك أيامًا اطمأن لعمله وركن إليه وارتاحت نفسه لطاعاته ورضي بما يقدم لله، بل تولد عنده شعور أنه أدى حق الله عليه، وقد يجره هذا الشعور إلى الإعجاب بعمله والسرور به والغرور به.

والصالحون لا يفعلون ذلك؛ لأن الصالحين دائمًا يشفقون من ربهم ويخافون ألا يقبل منهم أعمالهم، ولا يأمنون على أعمالهم أن يكون قد شابها ما يردها عند الله فلا يقبلها سبحانه، قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رضي الله عنها:

(١) رواه مسلم برقم ١٩٠٥، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

سألت رسول الله عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، ويخافون ألا يتقبل منهم**»(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه.

وقد أمر الله تعالى حجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: مدوا صلاتهم إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل، وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا(٢)...»(٣).

فإن الاعتماد على العمل وحده يولد غرورًا وعجبًا وسوء أدب مع الله سبحانه، وصاحب العمل لا يدري هل قُبل عمله أم لا، ولا يدري قدر ذنوبه ومعاصيه، وهل يثقل بها عمله أم لا، فينبغي طلب رحمة الله ومغفرته دائمًا وهو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني (صحيح الترمذي رقم ٣٤٠١).

(٢) أخرجه مسلم ٤١٤/١٣٥/ كتاب المساجد، عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ١٤١.

٤- داوم ثقتك بالله مهما تغيرت أحوالك الدنيوية

فإذا تغيرت عليك الدنيا أو انتُقِص شيء من أمورك أو تعقدت أحوالك أو أصابك ضرر أو مصيبة، فداوم ثقتك بالله سبحانه وتوكلك عليه وتسليمك له، واصبر على حالك قليلاً، مع لجوئك لربك وابتهالك ودعائك له سبحانه أن يثبت قلبك ويُصبرك، ويكشف كربتك، ويأجرك في مصيبتك.

وإياك إياك أن تهتز ثقتك بربك - سبحانه - إذا تغيرت عليك الدنيا، فيقل عملك أو تترك عبادة كنت تقيم عليها وتداوم فعلها؛ لأنك إذا ذهب توكلك عليه وتسليمك له وكَلَك إلى عملك، وكان هذا دليلاً في الأصل أنك كنت معتمدًا على عملك لا على الله سبحانه، فعليك أن تراجع نفسك وتؤكد التوكل على الله سبحانه والتسليم له.

بل عليك في الشدائد وتقلبات الدنيا بك أن تزيد في اللجوء إليه سبحانه وأن تستكثر أكثر من العبادات والذكر والصدقة والدعاء والصبر والتوكل عليه سبحانه، فإن هذه هي علامة المؤمنين.

إن اقدار الله سبحانه - أخي الحبيب - كلها حكمة وخير لعبده المؤمن فتأكد من ذلك، ولكننا قد لا ندرك هذه الحكمة وقد لا نراها لضعف علمنا، فيجب علينا التسليم بقضائه، وقد علمنا أنه سبحانه أرحم بعبده المؤمن من الأم بولدها، فهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[١].

(١) رواه مسلم ٤/ الزهد والرقائق/ ٢٢٩٥/ ح٦٤.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»(١).

٥- لا تترك الأسباب

بعض الناس الذين يضعون أقدامهم في أول الطريق إلى الله سبحانه، تصبح عندهم رغبة في ترك العمل الدنيوي والتفرغ للعبادة، وتجد ذلك عند عابد وزاهد وداعية إلى الله وعالم أيضًا.

وهذه الرغبة في ترك الأسباب قد تكون شهوة نفسية وليست رغبة أخروية خالصة كأن يرغب في الراحة فيحتج بالدعوة، أو يرغب في معونة الناس وعطائهم فيحتج بالانشغال بالعلم، أو يرغب في الشهرة فيحتج بأنه مشغول بالعبادة أو الزهادة، والصحيح الثابت أن كل هذا مناف ومخالف لفعل السلف الصالحين.

انظر لفعله ﷺ في هجرته، وكيف أخذ بالأسباب الكاملة التامة، وكيف رتب لكل صغيرة وكبيرة - وهو النبي المؤيد بالوحي - ثم هو بعد ذلك وقبله قد وكل أمره إلى الله سبحانه، فإذا ما انقطعت الأسباب، ووقف الكافرون على باب الغار، فما العمل عندئذ؟!

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، الجنائز ٦/٢٢٠.

(٢) متفق عليه، البخاري رقم ٣٤٥٣، باب مناقب المهاجرين، ومسلم رقم ٢٣٨١، باب فضائل أبي بكر.

ولولا ذلك لما أمرنا بالعدة والإعداد لنصرة دين الله سبحانه بالمال والنفس، بل إنه سبحانه يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالأخذ بالأسباب قد يكون واجبًا إذا كان الواجب الشرعي لا يتم إلا به.

نعم: إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى تفرغ، وإرشاد الخلق يحتاج إلى تفرغ، والتعليم يحتاج إلى تفرغ، وإتقان كل هذه الأمور يحتاج إلى تفرغ، وإتقان ارتقاء الإنسان الروحي للقيام بذلك يحتاج إلى تفرغ، ولكنه تفرغ الحكماء العقلاء المدبرين لشئونهم، المحققين لمطالب أنفسهم للقيام بحقها، وكذلك القيام بحقوق الزوجة والولد وكل حقوق من يعول.

فالأصل في التفرغ هو تفرغ القلوب لله سبحانه، وقد كان السلف أجمعهم يعمل ويتكسب ويسترزق، بل كان بعضهم لا يرضى أن يأكل إلا من عمل يده، وتجدهم في كل وقت يسألون الله سبحانه ألا يذل وجوههم بسؤال الناس، فالأصل الصحيح أن تعمل لتتكسب رزقك الذي قدره الله لك، ولكن ليكن لعبادتك ودعوتك النصيب الأوفر والأكبر وليكن لعلمك جل همك، أما عملك الدنيوي ففرغ منه قلبك واجعل تكسبك منه بنية صالحة تصون بها وجهك وتحفظ بها عرضك، وتعين بها المحتاج، وتتصدق بها في سبيل الله.

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال: كنت أسمع أبي كثيرًا ما يدعو فيقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود إلا لك، فصنه عن المسألة إلا إليك.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم أحبُله ثم يأتي الجبل فيأتي بحُزمةٍ من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[1].

---

(١) رواه البخاري ١٣/ ح٧١٦٣/ فتح.

وعن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يديه، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»(١).

نعم إن كان المرء غنيًا أو عنده من المال والرزق ما يكفيه ويستره، ففرغ وقته للعبادة والدعوة والعلم كان ذلك حسنًا ولا شك، أما إن ترك عمله وتكسبه بحجة العبادة فنحن نخالفه في هذا ـ كما سبق ـ.

إذن فها هنا ضوابط:

أ - أن يفرغ قلبه لعمل الآخرة على كل أحواله.

ب - ألا يشغل قلبه بعمل الدنيا أبدًا، بل يعلم أنه مكفول له من ربه سبحانه.

جـ - أن يتوكل على الله حق توكله في اكتساب رزقه.

د - أن يأخذ بالأسباب التي يسترزق بها من حرفة أو صناعة أو تجارة أو وظيفة... إلخ.

هـ - إذا كان غنيًا أو عنده ما يكفيه من مال هو ومن يعول وأراد أن يتفرغ للعلم والدعوة فيمكنه ذلك، أما إن كان فقيرًا فلا يحسن به التفرغ.

و - أن يحسن نيته لربه في كل ذلك وينقي نفسه من شوائبها.

والأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام(٢):

أحدها: الطاعات والعبادات فلابد له من فعلها مع التوكل على الله والاستعانة به.

الثاني: عادات الدنيا كالأكل والشرب وستر العورة، فهذا أيضًا واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه فهو مفرط ويستحق العقوبة.

الثالث: التداوي وأمثاله، وهو واجب أيضًا ـ على الأرجح ـ؛ لأنه حال النبي ﷺ وقاله غير واحد من السلف.

---

(١) رواه البخاري ٤/ ح٢٠٧٢/ فتح.

(٢) تزكية النفوس، أحمد فريد (بتصرف) ص٩٩، ١٠٠.

٦- لا تجهد نفسك في التدبير لشئون دنياك وأجهد نفسك للتدبير لشئون أخراك

أكثر الناس لا يدبرون ولا يرتبون ولا يخططون إلا لشئون دنياهم، يدبرون لصحتهم، يدبرون لأرزاقهم، يدبرون لطعامهم وشرابهم.

وهذا التدبير تدبير مباح ولا شك، ولكنه يضر بالإعداد للآخرة ضررًا بالغًا، دبر لدنياك واهتم برزقك وصحتك وطعامك وملابسك... وغيره، ولكن لا تجعل ذلك هو هم قلبك ولا ذهاب جهدك.

إن من الناس من حياته إنما تقوم أساسًا على الانشغال بشأن دنياه فقط، أما شأن الآخرة فلا يذكره إلا حين يصلي، بل إنه حتى حين يصلي تغلب عليه دنياه في صلاته، فيفرغ من الصلاة ولم يدرك من ثوابها شيئًا.

تراه يشغل نفسه ويجهدها كيف يتكسب وكم سيكسب؟ وهل ذلك سيكفيه أم لا؟ وإذا لم يكفه فماذا يفعل؟

يشغل نفسه كم سأدخر؟ متى أبني بيتًا؟ متى أشتري سيارة؟ كيف سأزوج أولادي؟ ماذا يحدث لو عُطِّل عملي؟... إلخ.

ويستغلها الشيطان فرصة فيسبح الإنسان يوميًا في بحار من التدبير للدنيا وتجده في شأن الآخرة بلا تدبير!

ما الحل إذن؟

وأنت إذا سألت الناس عن ذلك قالوا: هذه طبيعة الدنيا، وكيف إذن نحيا بغير تدبير لشئوننا وحياتنا وأرزاقنا؟

وفي الحقيقة إن الإسلام قد حل هذه القضية حلاً معجزًا يحمل في طياته أنه من عند الله سبحانه الخبير بمن خلقه.

فقد علمنا الإسلام إذا أردنا أن ندبر لحياتنا أن نجعل في كل تدبير من تدابيرنا نية عمل صالح، والنية تقلب العمل من عادة مباحة إلى عبادة مستحبة يُثاب المرء عليها وتذكره بالآخرة.

فمثلاً، من احتاج لتدبير رزقه وجهه الإسلام أن ينوي قبل تدبيره لرزقه أنه يسترزق ليستر عرضه ويصون نفسه ويتصدق في سبيل الله.

ومن تدبر شأن طعامه وجهه الإسلام أن ينوي فيه أنه يتقوى على عبادة ربه، وأن يصون أولاده وأهله عن سؤال الناس.

ومن تدبر شأن لباسه وجهه الإسلام أن ينوي فيه ستر عورته، وإحسان سمته ليقبل عليه الناس فيدعوهم إلى الله ولا ينفر منه أحد.

وهكذا... قل هذا في كل شأن من الشئون.

بل إن الأمر بالنسبة للصالحين يتعدى ذلك كثيرًا، إن أعمالهم تصير كلها عبادات، إنهم يصحبون النية الصالحة في كل شئون حياتهم، حتى إن بعضهم كان يحتسب النية الصالحة في فتح باب بيته! فسئل أي نية تستصحبها؟

فقال: أحتسب نية أن أجد فقيرًا فأعطيه أو سائلاً فأَبَش في وجهه أو ضيفًا فأقريه...

فالناس إذن أنواع: إنسان يعمل بلا نية أصلاً كأنه آلة.

وإنسان يعمل بنية دنيوية، وذاك صاحب الهم والكرب دائمًا.

وإنسان يعمل بنية أخروية حسنة في كل عمل وهؤلاء هم الناجون.

وإنسان يعمل العمل الواحد وله فيه نيات صالحة كثيرة، أفتراهم السابقين؟

إن الإنسان إذا شغل نفسه بدنياه عن التدبير لأخراه وقد علم خطأه دل ذلك على فقدانه للبصيرة.

قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما يبعث الناس على نياتهم**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»[(٢)].

٧- لا تستعجل الثمرة

الإنسان ـ بطبيعته ـ عندما يقوم بالعبادة يحب أن يظهر أثرها عليه فورًا في بركة ظاهرة أو في استجابة دعاء أو في غيره، وهذه هي طبيعة الإنسان دائمًا، يحب رؤية الثمرة، قال سبحانه: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾

[الصف: ١٣].

وكذلك فإن طبيعة الإنسان العجلة والتعجل، فهو يريد أن يزرع اليوم ويحصد غدًا، قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١].

لكن الله سبحانه له سنن في كونه وفي خلقه وله حكم في غاية العظمة والإحكام ؛ فبعض الأمور يمكنك أن تزرعها اليوم وتحصد ثمارها غدًا، إلا أن

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (ترغيب برقم ١١).

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني (صحيح الترمذي رقم ٢٥٩٦).

هناك ـ وهو أكثرها ـ ما إن زرعته اليوم فلن يعطيك ثمارًا إلا بعد سنين طويلة، وعندئذ فمهما استعجلت فلا فائدة إلا أن يؤثر ذلك على قلبك فيمرضه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجل، يقول: دعوت ربي فلم يستجب لي**»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل**»، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر من يَسْتجب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء**»[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على الأرض مسلمٌ يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**» فقال رجل من القوم: إذًا نُكثر، قال: «**الله أكثر**»[(٣)].

قال ابن عثيمين رحمه الله تعليقًا على هذين الحديثين السابقين: «يعني أن الإنسان حري أن يستجيب الله دعاءه إلا إذا عجل، ومعنى العجلة فسرها النبي ﷺ بأن الإنسان يقول: دعوت ودعوت فلم أر من يستجيب لي، فعندئذ يستحسر ويدع الدعاء، وهذا من جهل الإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يمنعك ما دعوته به إلا لحكمة، أو لوجود مانع يمنع من إجابة الدعاء ولكن إذا دعوت الله فادع الله تعالى وأنت مُغَلب للرجاء على اليأس، حتى يحقق الله لك ما تريد، ثم إن أعطاك الله ما سألت فهو المطلوب، وإن لم يعطك ما سألت فإنه يرفع عنك من البلاء أكثر وأنت لا تدري، أو يدخر لك ذلك عنده يوم القيامة،

---

(١) متفق عليه، البخاري ٥٩٨١، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ومسلم ٣٧٣٥، باب انه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت ولم يستجب لي.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٣٥، الذكر، باب بيان أنه يستجاب للداعي.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الترمذي رقم ٣٨٢٦).

فلا تيأس ولا تستحسر، ولكن ادع ما دام الدعاء عبادة، فلماذا لا تكثر منه، استجاب الله لك أو لم يستجب، ولا تستحسر ولا تسئ الظن بالله؛ فإن الله تعالى حكيم، قال: ولا يخيب من يسأل الله، بل لابد أن يحدث له واحد من أمور ثلاثة: أن يعطيه ما سأل أو يصرف عنه من السوء مثله، أو يدخر عنده أجره إلى يوم القيامة، إلا أن يدعو بإثم؛ لأن الدعاء بالإثم ظلم»[1].

كثيرًا ما يحدث أن يستعجل الناس الثمرة وخصوصًا العاملين في العمل العام في الدعوة إلى الله أو التربية، يستعجل الثمرة وقد تتأخر الثمار فما العمل إذن؟ هل نتعامل مع هذا باليأس والقنوط وترك العمل أم نتعامل مع هذا بالعبر واليقين في وعد الله وأن نُحكم أعمالنا ونراجعها ونقف مع أنفسنا ونُقَوِّم أعمالنا وترتيباتنا مرة بعد مرة؟ يقول الله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧]

إذن فها هنا أمور إذا ما تأخرت الثمار:

أ- عدم الوهن أو الضعف أو الاستكانة ولكن الاستمرار في الثقة بالله سبحانه.

ب - تطبيق معنى الصبر والثبات مهما حدث.

جـ - محاسبة الأنفس ومراجعة الأعمال وتطهيرها من الذنوب والخطايا.

د - طلب النصر والمعونة والقوة من الله سبحانه والاستعانة به.

هـ - تقويم الأعمال والوقوف على الخطأ فيها ومحاولة إصلاحه وتعديله.

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، جـ٢، ص١٥٦٧.

إن الفارق بين الصادق وغير الصادق، أن الصادق هو الذي يستمر في العمل مهما كانت الظروف، أقبلت أو أدبرت، أمطرت أو حبست، فهو مستمر في العمل، أما غير الصادق، فهو المنكسر عند أول عائق، المتوقف إذا أبطأت عنه الثمار.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1]، قال ابن عثيمين رحمه الله تعليقًا على هذا الحديث: «فليصبر المؤمن ولينتظر الفرج، ولا يمل، ولا يضجر، بل يبقى راسيًا كالصخرة، والعاقبة للمتقين، والله تعالى مع الصابرين، فإذا صبر وثابر وسلك الطريق توصل إلى المقصود، ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة، بطريق منظمة؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطى ثابتة منظمة، ويحصلون مقصودهم، أما السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثوروا ويستنفروا، فإنهم يفوتهم شيء كثير وربما حصل منهم زلة تفسد كل ما بنوه ـ إن كانوا بنوا شيئًا ـ، لكن المؤمن يصبر ويتئد ويعمل، ويوطن نفسه ويخطط تخطيطًا منظمًا، يقضي به على أعداء الله من المنافقين والكفار ويفوت عليهم الفرص؛ لأنهم يتربصون الدوائر بأهل الخير، يريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم، وقالوا: هذا الذي نريد وحصل بذلك شر كبير، فأنت أيها الإنسان: لا تسكت عن الشر، ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج من الله، ولا تمل فالدرب طويل، لاسيما إذا كنت في أول

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٤٣.

الفتنة، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون، فاقطع عليهم السبيل، وكن أطول منهم نفسًا، وأشد منهم مكرًا، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين»[(١)].

٨- اعرف حقيقة النصر

العاملون لدين الله تعالى والدعاة إلى الله والسائرون في دروب الإيمان، يثقون بوعد الله سبحانه بالنصر وبأنه سبحانه سوف ينصرهم على عدوهم، وسوف يخذل عدوهم وسوف يرفع الحق ويبطل الباطل وهو على ما يشاء قدير.

ولكن كثيرًا منهم لا يرى النصر إلا في الغلبة المباشرة بالسيف على الكفار وفي التخلص منهم، وهذا تصور ناقص، وينبغي على العاملين لله سبحانه تصحيحه وتكميله ليعرفوا حقيقة النصر:

إن حقيقة النصر - التي وعد الله بها المؤمنين - ليست فقط في الغلبة المباشرة بالسيف على أعدائهم، ولكنها بأشياء أخرى كثيرة؛ فالثبات على دين الله سبحانه حتى الممات نصر من الله سبحانه، والثبات في الابتلاءات والفتن نصر من الله سبحانه، والقيام بالمجهود الحق في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال مخلصًا نصر من الله سبحانه، بل والشهادة في سبيل الله تعالى هي نصر من الله سبحانه.

إن الله عز وجل قد وعد أنبياءه بالنصر، وكذلك وعد أتباعهم المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، جـ١، ص١٠٤، ١٠٥.

ثم إذا بنا نرى أمرًا آخر، إذا بنا نرى بعض هؤلاء الأنبياء لا ينتصر بالغلبة على عدوه، بل إذا بعدوه يقتله، ويموت النبي، فهل تخلف موعود الله عندئذ؟

وإذا بنا نرى من أنبياء الله سبحانه من يظل في قومه سنين طويلة يدعوهم إلى الله ثم لا يؤمن به إلا القليل جدًا من قومه، بل إن النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد من أتباعه ـ كما ثبت في الصحيح ـ فهل تخلف وعد الله سبحانه؟ لا شك أن وعد الله لا يُخلف، وحاش لله أن يخلف وعده سبحانه، ولكننا نحن الذين لم ندرك معاني الانتصار.

إن النبي الذي بذل جهده وطاقته صادقًا في دعوته إلى الله سبحانه سنين طويلة ثم لم يؤمن به إلا واحد، فهو نبي قد تحقق له النصر، بل والآخر الذي بذل جهده وطاقته ولم يؤمن به أحد فهو أيضًا منتصر؛ لأنه ثبت على دينه وأدى أمانته، واستفرغ وسعه ولم يقصر لحظة في أداء واجبه، فعاش منتصرًا ومات منتصرًا، حتى ولو لم يره الناس كذلك.

والشهيد الذي بذل نفسه لله سبحانه، وضحى بالدنيا وما فيها، وآثر ما عند الله، وباع لله أغلى ما يملك، حتى فاضت روحه الطيبة، وراحت تسكن قناديل في الجنة، تسرح فيها كيف تشاء، لا شك أنه قد انتصر، حتى ولو لم يره الناس كذلك.

إن النصر قيمة عظيمة وجزاء وافر ينعم الله سبحانه به على عباده الصالحين جميعهم، ولكن تختلف أشكاله وأنواعه في الدنيا وفيما يراه الناس، أما في الآخرة، فهم جميعًا ينعمون بالانتصار.

لقد حكى لنا النبي ﷺ قصة غلام الأخدود كما في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه، وهي قصة عظيمة تتجلى فيها هذه المعاني، فالغلام الصالح يضحي بنفسه في سبيل الله مختارًا لتنتشر دعوته ويظهر دينه، ثم هاهم أتباعه المؤمنون يُعذبون ويُقهرون ويُحرقون ـ ما لم يرجعوا عن دينهم ـ ويثبتون على

الحق حتى يلقوا الله سبحانه وتعالى، فأي انتصار بعد هذا الانتصار وأي عزة بعد هذه العزة وأي جزاء أحسن من الجنة؟

قال النبي ﷺ في الحديث «أن الغلام قال للملك»: «**فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع في صُدْغِه، فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدّت وأُضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها** ـ أو قيل له اقتحم ـ، **ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق**»[1].

وقص الله سبحانه علينا صورة أخرى من صور الانتصار قصة مؤمن سورة «يس»، وكيف أنه صدع بالحق وجهر به ودافع عن رسل الله ودعا الناس إلى الإيمان بالله سبحانه، فخوفه الكافرون من القتل أو الرجم، فما زاد إلا ثباتًا وقوة وإصرارًا على الحق ودعوة إلى الله سبحانه، حتى لقي الله سبحانه، والله سبحانه يقص علينا من خبره، أنه عز وجل أدخله الجنة، وأنه لما دخل الجنة تمنى أن لو كان قومه يعلمون الحق وحسن الجزاء.

قال سبحانه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ

---

(١) رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، ٣٠٠٥، باب قصة أصحاب الأخدود.

أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾

[يس: ٢٠ - ٢٧].

٩- احذر الاستهانة بأهل الغفلة

يقع في قلب الإنسان إذا أقبل على الطاعة والعبادة بعض الوقت ورأى أنه يسير في طريق الصف المسلم ويلتزم بسنة النبي ﷺ، يقع في قلب ذلك الإنسان الاستهانة بأهل الغفلة من العصاة والمذنبين وتحقيرهم مع رؤيته لنفسه واستعظامها عليهم، فيرى أنه أفضل منهم لأنه رأى منهم ذنوبًا ومعاصي.

وفي هذا الأمر محددات وتوجيهات هامة وهي:

- احذر أن تنظر إلى العصاة فتراهم من أهل النقمة ثم ترى نفسك من أهل الرحمة.
- لا شك أن كل عاص هو متعرض لغضب الله عليه، ولكن اُرج لهم الرحمة كما ترجوها لنفسك.
- إذا كنت ولابد أن تكرههم وتستهين بهم لانكشاف معاصيهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد كرهًا وأكثر استهانة؛ لأنك تعلم من نفسك التقصير أيضًا في حق الله.

قال ابن القيم رحمه الله:

«ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى عليهم النقمة، ولكن أُرج لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة»[١].

وقال رحمه الله: «هذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شهد حقيقة الخلق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل وتفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني ـ لم يجد بدًا من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة فهذا هو الفقيه»[٢].

فعلينا عند رؤية أهل الغفلة أن نتذكر ذنوبنا وتقصيرنا في حق الله ونسأل الله الغفران[٣].

١٠- اصبر في الابتلاء

بعض الناس يظن أنه كلما تقرب إلى الله سبحانه أقبلت عليه الدنيا، وذهبت عنه الآلام بالكلية، وصفت له الحياة فلا مصيبة ولا مشكلة، ويتوقع أن تكون الدنيا مفتوحة له والأمور سهلة عليه ولا إزعاج له في شأن من الشئون، وهذا الفهم فهم خاطئ.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص٢٣٤.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ص٢٣٤.

(٣) معلوم أن منهج أهل السنة في الحب والبغض في الله أنهم يحبون المرء في الله بقدر ما فيه من طاعة الله ويبغضون فيه معصيته لله سبحانه.

فقد جعل الله سبحانه من سننه في خلقه أن يبتلي المؤمنين بأنواع الابتلاءات والاختبارات، وكلما كان العبد في إيمانه أقوى وأعلى كلما كان ابتلاؤه أشد واختباره أصعب.

وليس هناك أرقى ولا أعظم مقامًا من مقام النبي ﷺ بين الناس، وليس هناك أكرم على الله منه، ومع ذلك فقد ابتُلي ﷺ وأوذي أشد أنواع الابتلاء والإيذاء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**»[3].

فهذه الأحاديث وغيرها تبين لنا أن الله سبحانه يبتلي أهل الإيمان، ليختبرهم ويعلم الصادق من الكاذب، وكذلك ليطهرهم وينقيهم من ذنوبهم حتى يلقوه وما عليهم ذنب.

فعلينا أن نُري الله منا خيرًا، وأن نصبر في ابتلاءاته واختباراته سبحانه، وأن نعلم أن فيها خيرًا كبيرًا لنا وحكمة عظيمة لا ندركها، فنرضى بكل ما أصابنا الله به ولنسلم به ولنصبر عليه وليلهج لساننا بحمده عز وجل في كل حال.

---

(١) رواه البخاري ١٠/ ٥٦٤٥/ فتح.

(٢) رواه الترمذي ٢٣٩٦، وصححه الألباني (الصحيحة ١٢٢٠).

(٣) رواه الترمذي ٢٣٩٩، وصححه الألباني (الصحيحة ١٢٨٠).

قال سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

١١- اعرف عيوب نفسك جيدًا

عندما يبدأ قلب المؤمن بالتفتح والسير في طريق الطاعة والعبادة، يرى الناس من حوله وهم غافلون ضائعون، في هذا الجو يصير عنده نوع من الشعور بالذات ونوع من الغفلة عن عيوب النفس. وكم في النفس من عيوب؟ فلا يصح للمؤمن بحال أن يغفل عن عيوب نفسه، فإنه إن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالة تلك العيوب أبدًا، وظل بين الناس يظن نفسه خيرهم ولا يرى بنفسه عيبًا أبدًا، وتراه وقافًا على عيوب الناس، محبًا لنقدهم وتبيين أخطائهم، كارهًا لمن وجه إليه نصيحة أو بصّره بعيب فيه، فيكون ذلك مدخل العجب والكبر في نفسه، وصعب عليه بعد ذلك إصلاحه.

قال يونس بن عبيد: «إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريحٌ ما قدر أحد أن يجلس إليّ».

وقال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم ذمّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائدًا».

وقال مطرف بن عبد الله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا».

وقال أبو وهب المروزي: «سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس، فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئًا شرًا من العجب».

فعلينا إذن أن نقف مع أنفسنا وقفة مخلصة صادقة، نحاسب أنفسنا ونعرف عيوبها ونحاول علاج هذه العيوب ونستعين بالله في ذلك ثم بنصيحة أهل العلم والإيمان، لعل الله أن يبصرنا بعيوب أنفسنا ويرزقنا الهدى.

١٢- عليك بالاستخارة والمشاورة

قال الله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

قال النووي رحمه الله: أي يتشاورون بينهم فيه.

وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، قال: ويُسمي حاجته**»[(١)].

---

(١) رواه البخاري في التهجد (١١٦٢).

فالإنسان ـ بطبيعته ـ عنده قصور وضعف، فقد تشكل عليه الأمور وقد يتردد فيها، فماذا يصنع؟ له طريقان:

الطريق الأول: استخارة رب العالمين الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الطريق الثاني: استشارة أهل العلم والرأي والصلاح والخبرة.

ومعنى الاستخارة طلب خير الأمرين، فيصلي الإنسان ركعتين من غير الفريضة في غير وقت النهي[1]، ثم يُسلم ثم يقول الدعاء السابق.

فإذا انشرح صدره بأحد الأمرين بالإقدام أو الإحجام، فهذا المطلوب، يأخذ بما ينشرح به صدره، فإذا لم ينشرح صدره لشيء وبقي مترددًا أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة[2]. ثم بعد ذلك يشاور الناس، فإذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة، فإن الخير هو ما أشير به عليه؛ لأن الله تعالى قد لا يجعل في قلبه بالاستخارة ميلاً إلى شيء معين حتى يستشير، فيجعل الله ميل قلبه بعد المشورة[3].

وهاهنا أمور:

- الأمور التي يستخير فيها الإنسان هي الأمور الجائزة فعلاً وتركًا.

---

(١) إلا في أمر يخشى فواته قبل خروج وقت النهي فيجوز له أن يستخير في وقت النهي فإنها نافلة لها سبب.

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله في شرحه للرياض: «وإنما قلنا ثلاث مرات لأن من عادة النبي ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا والاستخارة دعاء»، ص١٠٤٠.

وقال بعض أهل العلم: لا يشترط انشراح الصدر أو البحث عنه حتى يبدأ في عمله الذي استخار فيه واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**إذا همّ أحدكم**» يعني أوشك في عمله والأول أقرب، والله أعلم.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ص١٠٤٠.

- أن الاستخارة تكون في تلك الأمور كلها، فيحسن أن يستصحبها الإنسان في كل أعماله المباحة، لقول جابر رضي الله عنه: «في الأمور كلها».
- أنه ربما استخار الإنسان ربه في أمر واحد هل يفعله أم لا، ولا يشترط أن تكون الاستخارة بين أمرين، ولقوله ﷺ: «**إذا همّ أحدكم بالأمر**» ويكون الخيار بين أن يفعله أو لا يفعله.
- على الإنسان أن يستخير ويستشير ثم يقبل على العمل ويبدأ فيه ولا يتردد؛ لأنه ليس هناك داع للتردد، فإن تردد فمن ضعف نفسه أو من مرضها.
- الاستخارة في الأمور تجعلك تشعر بمعاني التوكل على الله سبحانه، والاستعانة به في أمورك، وكذلك تجعلك ترتاح للاختيار الذي قد اخترته ويطمئن إليه قلبك.

١٣- احرص أن يستنير قلبك بالعمل

كثير منا يكتفي في فعله للطاعات والعبادات بأن يؤديها وينتهي منها، ولا يحرص على تدبر معانيها والتحقق فيها والخشوع، ولا يحرص أن يحضر قلبه أثناء عملها، ولا يحرص أن يستشعر قلبه معانيها، فتنتهي العبادة والطاعة وما بقي منها في القلب شيئًا، وهو تقصير واضح منا في السعي للشعور بأثر تلك العبادات في قلوبنا.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة ولا نور يفرق بين أولياء الله وأعدائه وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو

وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه»[١].

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[٢].

قال الألباني رحمه الله: «أي عشر ثوابها لما أخل بالخشوع والخضوع وغير ذلك»[٣].

فعلينا أن نحرص على التدبر أثناء العبادات وعلى الخشوع فيها والإخلاص التام لله فيها، وأن نسأل الله أن يعيننا على حسن عبادته عز وجل.

عن مطرف عن أبيه رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء»[٤].

١٤- كن وفيًا بعهد الله

إن خيانة العهود صفة من صفات المنافقين، وعلامة من علامات النفاق، والمؤمن لا يخون أبدًا، بل يفي بعهده مع ربه سبحانه وتعالى وفاءً تامًا إلى يوم يلقاه.

وكم عاهدنا الله عهودًا؟ وكم عقدنا من عقود، نقر فيها بالعودة إليه والإنابة له سبحانه، ثم ها نحن نخلف العهود، وننقض الوعود، ولا ندري هل يأتينا الموت في وقت نوف فيه أو في وقت غيره؟!

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص٢٣٥.

(٢) رواه النسائي وأبو داود وصححه الألباني (ترغيب برقم ٥٣٨).

(٣) صحيح الترغيب والترهيب للألباني، ص٢١٤.

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني (ترغيب ٥٤٥).

أيها المؤمن الحبيب:

كن وفيًا بعهد الله الذي عاهدت، وكن ثابتًا على وعده سبحانه، وإياك أن تتساقط في الطريق وإياك أن ترتد على أدبارك رغبة في دنيا أو خوفًا من الناس، فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن القيم:

«وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق».

وأنت أيها العامل لله والداعية إلى الله: كن وفيًا لدعوتك، ثابتًا على منهجك مهما حصل لك ومهما تغيرت أحوالك الدنيوية.

وأنت يا طالب العلم، كن وفيًا لعلمك الذي تعلمته، صادعًا بالحق، غير مُخْفٍ له ولا مبدل مهما حصل لك، فارفع صوتك بكلمة الحق وقل كلمة العلم حتى في أحلك الظروف.

إن الدعوة الإسلامية في أمس حاجة للأوفياء لها، الذين يضحون في سبيل الله بكل غال في سبيل رفعة دينه، الذين يثبتون على عهودهم كالجبال الرواسي ويدافعون عن مناهجهم كالأسود الضواري، ويرفعون راية لا إله إلا الله خفاقة عالية، يرفعونها على هاماتهم رغم الجراح، ويزودون عنها حتى آخر قطرة دم صادقة، فتعلو رايتهم، ويبشرون بالجنة.

١٥- احذر: الطمع

الطمع في النفس البشرية هو حب امتلاك الأشياء وحب الرئاسة والمكانة وحب المال الكثير والرغبة في امتلاك ما أنعم الله به على الغير، والنفس البشرية التي لا تتحرر من الطمع الدنيوي، تظل أسيرة هذا الطمع دائمًا، مهما قدمت من طاعات، فهي أسيرة طمعها..

والطمع في المتاع يجعلك تتذلل لخلق الله على أمل الوصول لما تطمع فيه.

والطمع في الزعامة والرياسة يجعلك تضطر للمداهنة والكذب والمراءاة.

والطمع فيما عند غيرك من نعمة يجرك إلى الحسد والحقد.

وأنت إذا طمعت في شيء صرت عبدًا له ولا شك، نعوذ بالله من ذلك.

فيجب على كل مؤمن أن يقتل الطمع في نفسه وأن يقطع جذوره من قلبه، فلا يطمع إلا بالله عز وجل.

ولقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على قطع الطمع في نفوسهم وعلى القناعة بما آتاهم الله.

فانظر إلى هذه الأحاديث الشريفة، وتعلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغِنى عن كثرة العرض ولكن الغِنى غنى النفس**»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ح٦٤٤٦/فتح) ومسلم (٢/زكاة/٧٢٦/ح١٢٠).

(٢) رواه مسلم رقم ١٠٥٤، باب الكفاف والقناعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر**»(١).

فالطمع من أعظم آفات النفوس، ومن أعظم عيوبها القادحة في عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات؛ لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، وهو مضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة، والعزة التي اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع هممهم إلى ربهم وطمأنينة قلوبهم إليه وثقتهم به دون من سواه، فهذه هي العزة التي منحها الله عبده المؤمن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) رواه مسلم رقم ١٠٤١، باب كراهة المسألة من الناس.

الفصل السابع

مشاعر ومنازل في
الطريق إلى الله

١- سجدة القلب

إنها مشاعر الافتقار بين يدي الله سبحانه، مشاعر الانكسار، مشاعر الخضوع والذل للرب جل جلاله، فيشعر الإنسان في جميع ذراته الباطنة والظاهرة الضرورة التامة والافتقار التام إلى الله سبحانه ربه ووليه، ويشعر أن بيده صلاحه وبيده فلاحه وبيده هداه وسعادته، فيطمئن القلب ويسجد لله عز وجل سجدة المخلصين.

ومشاعر القلب في سجدته لربه لا يمكن وصفها، وإنما يعرفها من جربها، فيشعر لقلبه كسرة خاصة لا يمكن أن يشبهها شيء أبدًا، بحيث لا يرى لنفسه قيمة ولا مقامًا ولا ذكرًا أبدًا، كيف لا وهو العبد المذنب ذو الصحيفة السوداء! فيشعر بأنه ـ إن لم يصلحه ربه ـ لا مُصلح له، وأنه مكسور ولا جابر لكسره إلا الله سبحانه.

فعندئذ يرى نعم الله عليه كثيرة متتابعة، تحيطه من كل جانب، ويرى أنه لا يستحق من هذه النعم شيئًا أبدًا، ثم يعلم رحمة ربه سبحانه التي أنعمت عليه رغم إجرامه في حقه سبحانه.

ولكنه هو الرحيم لا إله إلا هو، ما إن يرى من عبده هذه الذلة ويعلم من ذلك القلب هذه الكسرة، حتى يمن عليه برحماته وينعم عليه بلطفه وكرمه.

وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب تمكنت منه هذه الذلة وهذه الكسرة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله. وإذا بذلك القلب الكسير يسجد لربه سبحانه سجدة المخلصين التائبين الخاضعين، سجدة تجمع معاني تقصيره وكسره، سجدة ينيب فيها إلى ربه، سجدة يناجيه فيها: أن لا ملجأ ولا منجى منك يارب إلا إليك، أطمع في مغفرتك، وأتكل على عفوك،

وأحسن الظن بك، وأرجو كرمك، وأطمع في سعة حلمك ورحمتك، غرّني الغرور ونفسي الأمارة بالسوء، وسترك المرخي علي وأعانني جهلي، ولا طريق لي إلا الاعتصام بك.

ومن يسر عليه ربه تلك المعاني فقد أكرمه بسجدة الصالحين.

قال الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

٢- الفرار إلى الله

إذا اشتدت علينا الدنيا، وضاقت صدورنا، وأظلمت الخطوب بنا، فليس لنا إلا هو سبحانه.

إذا وقعت بنا المصائب وحلّت بنا الأزمات، وجثمت علينا النكبات، فلا كاشف لها إلا الله.

إذا أغلقت أمامنا الأبواب، واسودت أمامنا الدروب، فلا هادي لنا إلا الله.

إذا انقطعت بنا السبل، وذهب الرجاء، وحار الأمل، فلا ملجأ ولا منجى إلا إلى الله.

قال الله سبحانه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الفرار إلى الله هو الهروب إليه، والطمأنينة في طاعته، فكل الخلق تهرب من عقابه عنه، إلا هو سبحانه، فتهرب منه إليه، بل إنك تهرب من كل الخلق إليه سبحانه لا إله إلا هو.

قال ابن عباس: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ»: فروا منه إليه، واعملوا بطاعته.

وقال سهل بن عبد الله: «ففروا مما سوى الله إلى الله».

فهو الدخول في حماه سبحانه فرارًا من كل خلقه، والطمأنينة بمعيته سبحانه وتعالى، فالإنسان يحتمي بالله ليدفع عنه، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ [الحج: ٣٨].

والمرء يفر من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تحدث له في كل يوم، يفر منها ويهرب، يفر من ضيق صدره إلى سعة فضاء الثقة بالله، ويهرب من همومه وأحزانه إلى حسن الرجاء لجميل صنع الله، فلا إله إلا الله، ما أعظم الله، وما أكرم الله، وما أرحم الله، فيا صاحب الهم لا هم مع الله.

وأبواب الفرار إلى الله مفتوحة، فلا تكسل، فقم فورًا، واطرق الباب، فعندك باب التوبة وباب الذكر وباب الصلاة وباب البكاء، وأبواب أخرى كثيرة فهيا نفر إلى الله سبحانه ونلجأ إليه لا إله إلا هو.

٣ - الإشفاق

هو: دقة الخوف؛ أي الخوف الذي معه رحمة على من تخاف عليه، فهو شعور المؤمنين الصادقين حين يشفقون على أنفسهم من العذاب، ومن الطرد من رحمة الله سبحانه، شعورهم حين يشفقون على أنفسهم من غضب الله عز وجل ومن الحجاب عنه سبحانه، ومن تقلب القلوب.

قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، والإشفاق في الدنيا هو سبب للوقاية من العذاب يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧]، والمؤمن الصالح يستشعر بالإشفاق دائمًا طول حياته، فيصاحبه الإشفاق في كل أحواله، حتى يلقى ربه سبحانه، وهو يشفق على نفسه من الهوى واتباعه، ويشفق على عمله أن يضيع، ويشفق على وقته أن يذهب سدى.

والشعور بالإشفاق لا يتم للمؤمن إلا بعد أن يخاف من ربه عز وجل حق الخوف، فيضطرب قلبه عند ذكر ربه لأنه يتوقع العقوبة منه على ذنبه، قال سبحانه: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والمؤمن إذا استشعر بالإشفاق، عظم عنده الذنب جدًا وصعب وحُببت إليه الطاعة جدًا وتيسرت، وكان مستفيدًا بوقته مستغلاً لكل دقيقة في القرب من ربه، مفتشًا عن عمله، حريصًا على أن يخرج عمله طاهرًا مخلصًا لا شائبة فيه. فلئن يسر الله تعالى على عبد أن يعيش مشفقًا من عذاب ربه، فإنما ينعم عليه بنعمة طريقها منتهاه الجنة.

٤- الإخبات إلى الله

الإخبات: هو التواضع والسكون، والمخبتون هم المتواضعون، الساكنون إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[الحج: ٣٤، ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

كيف يصل العبد الصالح إلى الإخبات؟

إن للإخبات علامات، من اتصف بها كان من المخبتين:

أ - إذا غلبت عصمته شهوته، فيقهر شهوته باعتصامه بالله سبحانه، فلا يتردد على الذنب إقبالاً وإدبارًا، بل لقد عصمه الله من أن يقبل عليه، ولو أقبل عليه فإنه فورًا يعاود حزم أمره على الجدية في الإقبال على الله والاعتصام به.

ب - إذا غلبت نيته غفلته، فأيقظ نفسه دائمًا من غفلته بنيته الصالحة فيذكر نفسه دائمًا بمسئوليته، وعهده مع ربه، فيترك غفلته، ويقبل على عبادته.

جـ - إذا غلبت محبته لربه شعوره بالوحدة والوحشة والتفرد، فائتنس بربه وبمحبته وذكره وطاعته، ولم يبال بكثرة عدد أهل اللهو والذنب، فهو لا يستوحش أبدًا من قلة الصالحين من حوله.

د - أن يستمر في لوم نفسه، وتهذيبها، وتنقيتها من أمراضها، وقصرها على الطاعة، وقمع شهواتها وهواها.

فمن اتصف بهذا الوصف مع كمال توحيده وإخلاصه كان من المخبتين، فإذا ذكر الله اضطرب قلبه خوفًا ورجاءً، ورهبة ورغبة، وإذا أصابه من أمر الدنيا شيء يضره رضي به وصبر عليه وحمد الله واسترجع، فتراه مقيمًا للصلاة على أكمل صورة، متمًا لركوعها وسجودها، خاشعًا فيها، مطمئنًا، متواضعًا، ساكنًا، ثم إذا بالدنيا عنده لا تساوي شيئًا، فهو ينفق مما آتاه الله إنفاق الطامع في الجنة المستغني عن الدنيا، المشتاق إلى لقاء الله.

٥- التبتل إلى الله

التبتل: هو الانقطاع[١]، الانقطاع إلى الله سبحانه وحده.

فالمؤمن المتبتل إلى ربه هو الذي انقطع عن هوى نفسه تمامًا، وانفصل عن متاع الدنيا كله، فلم يعد يمس قلبه أبدًا، حتى لو ملكته يده فهو لا يشعر به ولا يجد له لذة ولا حلاوة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

والتبتل هو الصورة الموحية للمؤمن الذي خلص لربه عز وجل فلم يجعل للدنيا فيه نصيب.

قال السعدي رحمه الله في تفسير: «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً»: «أي انقطع إليه، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو الانفصال بالقلب عن الخلائق والاتصاف بمحبة الله وما يقرب إليه ويوفي من رضاه»[٢].

والتبتل في الإسلام يأمر بانقطاع العبادة لله، مع القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دينه ولا يدعو إلى القعود والانعزال وترك الواجبات.

قال القرطبي: «فالتبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة، والتبتل المنهي عنه هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع»[٣].

والمؤمن الصالح المتبتل إلى الله عز وجل يجتهد في العبادة ويخلصها إلى الله عز وجل ويجعل نفسه وقفًا لله، لا يُنتفع به في شيء إلا لله، حتى إن عمل أعمال الدنيا فهو يعملها بنية صالحة لله سبحانه لا لغيره.

---

(١) وهو من التبتل يعني القطع، وسميت مريم البتول يعني: المنقطعة عن الأزواج.

(٢) تفسير «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي ص ٨٢٧. (٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٠.

وطريق التبتل هو:

أ - قطع رغبة النفس في المدح، فلا يحب المدح، أو يستوي عنده المدح وعدمه.

ب - قطع رغبة النفس إلى الشهرة ورؤية الناس.

جـ - قطع رغبة النفس إلى الإمارة والرئاسة، سواء في الدين أو الدنيا[1].

د - قطع رغبة النفس إلى العلو في الأرض، وتبوء معالي المراكز والسلطان، والحصول على طاعة الناس وقهرهم والسيطرة عليهم.

٦ - الأمل في الله (الرجاء)

الأمل في الله هو دليل القلوب الصالحة إلى ديار الجنة، وهو الذي يُطيب لها السير في طريق العبادة، ويجعلها تستبشر بكرم الله وفضله وجزائه العظيم.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»[2].

وفيمن يكون الأمل إن لم يكن في الله؟ وممن نطلب الرجاء إن لم نطلبه من الله؟ وهو صاحب الأنعم المتتالية الكثيرة، وصاحب الجود الذي لا يفنى، وصاحب الكرم الذي لا ينقطع، فهو الأمل إذا انقطعت الآمال، بل لا أمل أبدًا إلا فيه سبحانه، فهو الأمل الأوحد الذي يُرتجى، فتصلح معه الدنيا والآخرة ويصلح معه الظاهر والباطن، ويصلح معه البعيد والقريب.

---

(١) أما الرغبة في الإمامة في الدين بالاستقامة والعلم فهي مرغوب فيها، قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

(٢) رواه مسلم، رقم ٢٨٧٧، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

واقرأ هذا الحديث القدسي الذي يشع أملاً في الله ورجاءً:

«يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة...»(١).

والأمل في الله والرجاء فيه يَقْوى في القلب بحسب المحبة التي في القلب لله، فأرجى ما يكون المحب لحبيبه أحب ما يكون له، فهو يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه اشتد رجاؤه له، لما يحصل له به من حياة روحه ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه وبره والإقبال عليه(٢).

ورجاء الله والأمل فيه سبحانه لا غنى للمؤمن عنه أبدًا، فالمؤمن الصالح يدور بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو ستره وإصلاحه، وعمل يرجو قبوله، ومنزلة عند الله يرجو الوصول إليها، فلا غنى له أبدًا عن رجاء الله(٣).

والعبد المؤمن الصالح لا ينفرد الرجاء وحده في قلبه، ولكنه يقترن بالخوف والرهبة، قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ويظل رجاء المؤمن يقوى في ربه ورغبته تتصاعد وتزداد فيما عنده، حتى لا يترك مجهودًا يقدر عليه إلا بذله، ولا يدع لهمته في لحظة فتورًا ولا خمولاً، بل يظل يبذل ويعطي كل ما عنده ابتغاء وجه ربه عز وجل وهو خير مأمول.

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٢٣.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٩٩.

(٣) راجع أحاديث الرجاء من كتب الحديث بعد قراءة هذا الشرح.

٧- مراقبة الله

المراقبة: هي أن يعلم المؤمن أن الله مُطلع عليه ظاهرًا وباطنًا في كل وقت، فمن راقب ربه سبحانه أخلص له السر والعلانية والظاهر والباطن في كل وقت من أوقات حياته.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

فمن راقب الله في خواطره، عصمه الله سبحانه في حركات جوارحه، ومن راقب الله في باطنه هداه الله إلى حسن السلوك في ظاهره.

والمراقبة هي تعبُد المؤمن ربه سبحانه بأسمائه الحسنى: الرقيب والحفيظ والعليم والسميع والبصير.

والمؤمن الصالح الذي يراقب ربه في كل أحواله، ويعلم أن ربه يراقب ظاهره وباطنه يتغير سلوكه ويتأدب ويتصف بصفة الحياء، فإن صفة الحياء لا يتصف به إلا من راقب ربه وعلم أنه يراقبه، وتراه يتخير من الأعمال فضائلها، إذ إنه يعلم أن ربه يرى عمله ويراقبه، وتراه يثبت على الاستقامة ومتى جاءه الشيطان لينحرف عن الاستقامة ذكر المراقبة فاستقام.

عن أنس رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ١١/ ح٦٤٩٢/ فتح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...**»(١).

وكان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي.

وحكى القاضي حسين عن القفال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس، ثم يرفع رأسه ويقول: ما أغفلنا عما يراد بنا...!!

٨- التوكل على الله

التوكل على الله: هو صدق اعتماد القلب عليه سبحانه في كل أمر، سواء في جلب النفع إلى العبد أو في دفع الضر عنه في أمور الدنيا والآخرة.

قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾»(٢).

والتوكل على الله عمل قلبي، ليس بقول اللسان، قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. وقال سهل بن عبد الله: التوكل هو الاسترسال مع الله مع ما يريد.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٦/٤، وأحمد، وصححه الألباني (صحيح الترمذي ٢٦٤٨).

(٢) رواه البخاري رقم ٤٢٨٨، باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾.

الطريق إلى التوكل:

والطريق إلى التوكل خطوات لا غنى عن أي منها أبدًا في تحقيق التوكل الكامل:

أ - توحيد الله سبحانه وتصفية القلب من كل علائق الشرك مهما صغرت.

ب - عدم ترك الأسباب، فمن ترك الأسباب وادعى التوكل فتوكله ناقص[١].

جـ - اعتماد القلب على الله واستناده إليه، وعدم تعلقه بالأسباب رغم الأخذ بها ولكن تعلقه بربها.

د - حسن الظن بالله عز وجل في كل الأمور والشئون ومعرفة أن الله يدبر لأهل الإيمان الخير.

هـ - استسلام القلب لله، وهو قبول تدبير الله سبحانه والرضا به على أي حال.

و - تفويض الأمر لله، وهو تفويض العاجز الضعيف للقادر القوي، قال تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾.

وهذه المعاني كلها مجموعة في معنى التوكل، فيا فوز من جمعها وحققها.

علامات التوكل:

أن يستعين الإنسان بالله في كل شئونه وفي عبادته وطاعته لربه سبحانه.

عدم القلق على الرزق والكسب، بل يعلم ـ بتوكله ـ أن رزقه سيأتيه ولا شك.

---

(١) قال الإمام ابن القيم: «بل التجرد من الأسباب ممتنع عقلاً وشرعًا وحسًا، ما أخل رسول الله ﷺ بشيء من الأسباب، وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانًا كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركًا على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أولو التوكل حقًا». مدارج السالكين.

ذهاب الخوف من قلبه من الفقر أو الخوف على المستقبل أو على أهله وأولاده بعد موته.

دعاء الإنسان دائمًا ربه أن يوفقه إلى كل خير ويعينه على شئون نفسه، ولا يكله إلى نفسه.

قوة القلب وجرأته في الحق قولاً وعملاً مستعينا في ذلك بالله سبحانه.

وجماع معنى التوكل في هذا الحديث العظيم؛ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[1].

قال أبو حاتم: هذا الحديث أصل في التوكل، وإنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق.

٩- الثقة بالله

الثقة بالله هي التي لقنها الله تعالى لأم موسى بقوله لها: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص: ٧].

فإن فعلها هذا هو عين الثقة بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء[2].

واصل معنى الثقة: هو الائتمان، ووثق به يعني ائتمنه[3].

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الترمذي برقم ١٩١١).

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٤٧.

(٣) القاموس المحيط «مادة: وَثِقِ».

والمؤمن الصالح يثق بربه سبحانه يسلم له في حكم دينه، ويسلم له في حكم قدره، قال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[النساء: ٦٥].

والواثق بربه سبحانه يعلم أن دينه هو أكمل الأديان وشريعته هي أنصح الشرائع وأعظمها وأحسنها، ويعلم أن كل قضائه حكمة بالغة وعدل تام ورحمة سابغة، وأنت تفهم معاني الثقة بالله سبحانه في مواقف الأنبياء عليهم السلام.

فموسى عليه السلام يطارده فرعون وجنوده حتى يقتربوا منهم ويكون البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ويظن أصحاب موسى أنهم مقتولون، ويثق موسى في ربه سبحانه ثقة الأنبياء ويقول: كلا. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

[الشعراء: ٦١، ٦٢].

ويعقوب عليه السلام يفقد أحب أولاده يوسف وأخاه ثم يقول: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]، ويظل على ثقته بربه سبحانه لم تتزعزع أو تضطرب بل قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦، ٨٧]. وترتفع بيعقوب عليه السلام مقامات الثقة بربه سبحانه فيراها عين اليقين، فيقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ

ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٦].

فالمؤمن يثق بربه على كل حال، والداعية إلى الله يثق في نصره المتحقق لعباده المؤمنين والمجاهد في سبيل الله يثق في إنجازه وعده سبحانه، ومن أصدق من الله قيلاً؟.

١٠- الرضا بالله

قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً**»(١).

والمؤمن لا ينال الرضا ولا يحصل له إلا إذا سبقه التوكل الكامل في قلبه، ودرجة الرضا درجة عزيزة غالية ولذلك لم يوجبها الله على عباده، لكن ندبهم إليها واستحبها منهم وأثنى على أهلها، بل أخبر سبحانه أن ثواب الرضا أن يرضى الله عنهم، وهو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها(٢).

قال الإمام ابن القيم: «فهناك رضا من الله قبل رضا العبد أوجب له أن يرضى، ورضا بعده هو ثمرة رضاه، ولذا كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين»(٣).

فإن العبد المؤمن الصالح إذا حصل له الرضا ارتفع جزعه في أي حكم كان أو قضاء، بل استقبل كل قضاء الله تعالى بالفرح والسرور.

---

(١) رواه مسلم عن العباس رضي الله عنه رقم ٣٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٦٣.

(٣) نفس المصدر.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر».

وهناك طريقة للتدريب على الرضا والتخلق به وصفها الصالحون: وهي الطمأنينة، فمن درب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]

والمؤمن الصالح الذي رضي بالله سبحانه ربًا ورضي بالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً، واستقر الرضا في قلبه، سكنت الطمأنينة في جوارحه وجنانه وبرد قلبه واطمأن، وفر منه السخط والضيق والضجر، بل إن الرضا يُنزل السكينة على أهل الإيمان، ومن نزلت عليه السكينة استقام عمله وصلح باله.

والرضا بالله سبحانه نبع الحكمة، فمن رضي بالله نبعت الحكمة من تحت لسانه وتفجرت.

اجتمع سفيان الثوري ووهيب بن الورد ويوسف بن أسباط:

فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، وأما اليوم فوددت أني ميت.

فقال يوسف: ولم؟ فقال سفيان: لِما أتخوف من الفتن.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، لعلي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا. فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله.

فقال الثوري: روحانية ورب الكعبة.

وقال الحسين بن علي: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

الفرق بين الرضا والصبر:

الصبر هو قبول القضاء مع وجود الألم، ولكن المؤمن الصابر يتحمل الألم في سبيل الله.

والرضا هو قبول القضاء مع عدم وجود الألم، بل مع السرور أحيانًا.

الرضا أكبر من الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن أبي الدنيا: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك: فهو أحرى أن يفرغ قلبك ويقلل همتك.

قال ابن القيم: «ورأيت شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ في المنام فذكرت له شيئًا من أعمال القلب وأخذت في تعظيمه ومنفعته ـ لا أذكره الآن ـ فقال: أما أنا فطريقتي الفرح بالله والسرور به... أو نحو هذه العبارة، وهكذا كانت حاله في حياته».

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟

قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

كيف الطريق إلى الرضا؟

أ - الرضا بالله ربًا: وهو الرضا بتدبيره وإفراده بالتوكل والاستعانة والثقة.

ب - الرضا بالله إلهًا: وهو الرضا بمحبته وخوفه والإنابة والتبتل إليه والحب له.

جـ - الرضا بنبيه ﷺ: وهو كمال الانقياد له والتسليم له وحبه أكثر من النفس.

د - الرضا بدينه: وهو الرضا بحكم ذلك الدين وتشريعه والتسليم له ولو خالف النفس.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

١١- شكر الله

شكر الله: هو الثناء على الله بما أنعم عليك من النعم.

وله ثلاث أركان: الاعتراف بالنعمة بالقلب، والتحدث بها باللسان، والاستعانة بها على طاعة الله.

وقد أخبر الله سبحانه أن أهل الشكر هم الذين خصهم بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقسم سبحانه الناس إلى شكور وكفور[١]، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) تزكية النفوس، أحمد فريد، ص ٩٤.

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك**» فقال: «**أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(١)].

قواعد الشكر وأركانه:

أ - خضوع الإنسان إلى ربه الذي يشكره.

ب - حب الإنسان ربه الذي يشكره.

ج - اعترافه بنعمه واستحضار ذلك.

د - ثناء الإنسان على ربه ووصفه بالجود والكرم والتحدث بنعمته.

هـ - ألا يستعمل نعمته إلا فيما يحبه سبحانه ويرضاه.

قال بعض الصالحين: الشكر معرفة العجز عن الشكر، وعدم القدرة على تأدية حقه.

وقال الجنيد: الشكر ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

والمؤمن الصالح يشكر ربه في كل حين على نعمة الخلق وعلى نعمة الإسلام وعلى نعمة الإيمان، وعلى نعمة التوحيد، وعلى نعمة الجوارح، وعلى كل نعمة ظاهرة أو خفية، ويشعر بعجزه أن يشكر ربه حق شكره، ويدعوه ليل نهار ويقول: قال الله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ح١٥٢٢) وأحمد، وصححه الألباني (صحيح أبي داود).

١٢- التواضع

التواضع: هو صفة عباد الله المؤمنين الصالحين، وقد وصفهم الله في كتابه بذلك فقال سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي يمشون في سكينة ووقار متواضعين غير فرحين ولا متكبرين، والهون بالفتح هو الرفق واللين[١].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهذه صفتهم، لينين منقادين ذلولين للمؤمنين، عزيزين أقوياء غالبين للكافرين.

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٣].

وقد كان ﷺ هينًا لينًا، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّامًا، متواضعًا من غير ذلة، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم[٤].

---

(١) والهُون: بالضم هو الهوان، قال ابن القيم: «فالمفتوح منه صفة أهل الجنة، والمضموم منه صفة أهل الكفران وجزاؤهم النيران» مدارج.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٨٦٥، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة والنار.

(٣) رواه مسلم رقم ٩١، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر.

(٤) تهذيب مدارج السالكين ٤٢٨ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار** - أو بمن تحرم عليه النار؟ - **تحرم على كل قريب هين لين سهل**»[1].

وقال الجنيد: التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب.

وقال أحدهم: التواضع هو قبول الحق ممن كان.

وقال الفضيل: التواضع هو الخضوع للحق، والانقياد له، وقبوله ممن قاله، وألا يرى لنفسه قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

ومن أجمل معاني التواضع: أن تقبل معذرة المعتذر، وتقبل صلح المتخاصم، وتعفو وتغفر لمن أخطأ فيك.

والمؤمن الصالح متواضع تمام التواضع، هين لين سهل بسام بشوش، مقبل على الناس، لا يرى لنفسه فضلاً على أحد، بل يرى نفسه أقل الناس، وهو كالأرض الذلول لإخوانه، لا يعاتبهم للدنيا، ولا يضجر منهم ولا يتكبر عليهم أو يتعالى، وهو في ليله ذليل بين يدي ربه، منطرح بين يديه، يرجو رحمته ويخشى عذابه.

قال سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (الصحيحة رقم ٩٣٥).

١٣- الطمأنينة والسكينة

وهما نعمتان ينعم بهما الله سبحانه على أحبائه الذين آمنوا.

فأما الطمأنينة: فهي سكون القلب بعد قلقه واضطرابه، فهي سكون قلب المؤمن وهدوءه لمّا يذكر ربه سبحانه من بعد قلقه واضطرابه مما يحصل له في دنياه.

قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

والطمأنينة إذا سكنت في القلب فاضت على نفس المؤمن الصالح وعمتها جميعها، فأدبتها وهذبتها ورققتها، فصارت نفسه نفسًا مطمئنة.

وأما السكينة: فهي ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وهي نعمة ينعم الله بها على عباده عند الخوف والمصائب والبلايا.

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال الإمام ابن القيم: «وكان شيخ الإسلام إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكون القلب وطمانينته»[١].

وقد تجتمع السكينة والطمأنينة في قلب المؤمن الصالح، فيالها من ساعة تمر على المؤمن، فلا خوف ولا قلق ولا انزعاج ولا ضجر، ولكن برد وسلام وإن تزلزت الدنيا بأهلها وتهدمت القصور بأصحابها، فهو ساكن مطمئن مع ربه جل جلاله، لا يخاف قلبه بل لا تهتز شعرة من شعرات رأسه، وكيف لا وهو مطمئن بربه سبحانه معتمد عليه ساكن إليه، فإذا تعرض للابتلاء والاختبار وهو ساكن مطمئن، مر عليه بلاؤه وثبت فيه واستشعر حلاوة الطاعة فيه ورآه نعمة من ربه.

فعلينا رفع الأكف إلى الله سبحانه ندعوه ونرجوه أن ينعم علينا بنعمة السكينة والطمأنينة، وأن يُقر أعيننا بهما، ويثبت قلوبنا بهما، وأن يجعلهما لنا دافعًا على العمل لدينه ليل نهار، والجهاد في سبيله بالنفس والمال إنه عزيز حكيم.

١٤- محبة الله

محبة الله سبحانه هي قرة عين المؤمن، وغذاء روحه، والنور الذي إذا فقده صار في الظلمات، والشفاء الذي يستشفي به من كل الأمراض، واللذة التي بها تذهب الهموم والآلام.

والله تعالى أعظم من يُحب وأجل من يُحب وأكرم من يُحب وأكمل من يحب وأعلى من يحب، فهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو الغفور الذي يغفر عظيم الذنوب ويستر كبير العيوب، وهو الكريم الذي أنعمه تُعجزنا عن

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٤٩٧.

شكره، ذنوبنا له صاعدة وخيره إلينا نازل، إحسانه يعم خلقه وكماله وجماله أهل لأن يحب ويُعبد، فوالله ما ذاق المؤمن حلاوة مثل حلاوة محبته والإيمان به، ولا نال شرفًا أعلى ولا أكرم من الاتصاف بعبوديته.

ولما كثر المدّعون للمحبة طالبهم ربهم بالدليل فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه علامات المحبة:

أ - الميل الدائم بقلبك إلى من تحب، فلا يغفل قلبك عنه سبحانه في محبته.

ب - إيثار طاعته وعبادته والوقوف بين يديه والتقرب له على كل متاع الدنيا وصحبتها.

جـ - حب ذكره والإكثار منه وتذكير الناس به سبحانه.

د - استقلال الكثير من طاعتك له، واستعظام ذنبك ولو صغر.

هـ - أن تهب كلك له سبحانه، فلا يبقى لك منك شيء، فكل عزمك وهمتك وأفعالك وأفكارك ومالك ووقتك له سبحانه، وفي مرضاته عز وجل.

قال الجنيد ـ يصف المحبة ـ ودمعت عيناه: «عبد متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله».

وأعظم الطرق التي يصل بها المؤمن إلى محبة الله هو اتباع رسول الله ﷺ في كل ما أمر.

وثاني هذه الطرق هي الذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين.

وثالث الطرق هو الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

ورابعها: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم أبدًا.

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

١٥- لذة العبادة

إنها تلك السعادة التي تغمر المرء المؤمن أثناء عبادته لربه، وتلك الحلاوة التي يستشعرها الصالحون أثناء أدائهم لطاعات ربهم، وهي ذلك الفيض النوراني الذي يعم القلب إذا أقبل الإنسان على ربه مخلصًا صادقًا، فترى المؤمن وقد علته السكينة، وسكنته الطمأنينة، واستشعر بالسرور والهناءة، وأحس بمعاني الإيمان، فليس يحب لو أن له الدنيا بأجمعها مقابل عبادته لربه أو وقوفه بين يديه سبحانه.

يحكي الإمام ابن القيم عن شيخه ابن تيمية فيقول: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل أسوارها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]،

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[1].

وكان بعض الصالحين يقول: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ محبة الله تعالى وحلاوة عبادته».

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وكان الصالحون يتلذذون بصلاتهم وقيامهم، ويستقصرون الليل، حتى قال بعضهم: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء مثل طلوع الفجر.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال بعض الصالحين أيضًا: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل العبادة في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال آخرون: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم.

---

(١) الوابل الصيب، ابن القيم، ص ٦٣.

الذنب قاطع الطريق:

قال ابن القيم رحمه الله: «الذنوب: تضعف سير القلوب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه أو توقفه أو تقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى الوراء، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه»[1].

فهو إذن ذاك الذنب، قاطع الطريق إلى العبودية، ومفسد حلاوة الطاعة، وعائق الأقدام عن السير إلى الجنة، ومكبل الأيدي عن العمل لله، هو الذنب الذي يعكر صفو القلوب، ويظلم سبيل العباد إلى الله، هو الذنب الذي يضيع مجهود المجتهدين، ويذهب أثر العاملين. اللهم إنا نعوذ بك من الذنب.

ولذلك فإن الله تعالى حذر من أمثال ذلك في كتابه كثيرًا كثيرًا...

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]

فهذا مثال لمن آتاه الله العلم وأرشده إلى الهدى ولكنه عصى ربه وانسلخ من آياته واتبع هواه وأبى إلا أن يكون مثل السوء.

وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ

(١) الداء والدواء، ص٩١.

خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

[الحشر: ١٦-١٩].

وهذا مثل لمن اتبع الشيطان فكفر بربه، فاجتمعا معًا في النار، ثم الله يحذر الذين آمنوا من الذنب ويأمرهم أن يحاسبوا أنفسهم لما قدموا لغد.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

[النحل: ٩٢].

وهذا مثل لامرأة حمقاء تغزل الغزل، وتعمل العمل، وتُجمله وتحسنه، ثم ما تلبث أن تنقضه وتهدمه وتفسده...

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

وهذا مثل من الناس، الذين يعبدون الله بغير يقين ثابت ولا إيمان راسخ، فهو على الإسلام ما أصابه خير، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

وليس الامتحان للصالحين في فعل الطاعات، كما هو في ترك المعاصي والمنكرات؛ فإن الصديقين ليسوا هم الذين أكثروا الطاعات فحسب، إن الصديقين هم الذين تركوا المنكرات وكرهوها، ولم يتلبسوا بذنب يلقوا به ربهم، وإذا ما أذنبوا سارعوا إلى التوبة والصالحات التي تكفر الذنب.

ضرر الذنب:

والذنب يضر القلب أكثر من ضرر السم في الجسد، ويظل الذنب بالقلب حتى يقتله ويميته، وهل في الدنيا شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟

فالذنب يوحش القلب ويقطعه عن ربه، ويحرم الطاعة ويصد عنها ويغلق القلب أمامها، وإذا فعل الإنسان الطاعة مع الذنب لم يتذوق حلاوتها ولم يشعر بأثرها.

والذنب يظلم القلب ظلمة يشعر بها كل مذنب بعد الطاعة، فالطاعة نور والمعصية ظلام، وكلما قويت الظلمة ازدادت الحيرة، حتى يكثر ذنبه وتكثر ظلمته فيسير في ظلمات، ثم تظهر هذه الظلمة حتى تظهر على وجهه وتطفئ بهاءه ونوره.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

والذنب يضعف في الإنسان إرادة الخير والطاعة والتوبة والذكر وغيرها، فيجد الإنسان نفسه ضعيف الإرادة أمام العبادات، لا يستطيع أن يؤديها أو أن يسارع إليها أو أن يثبت عليها.

وإذا أذنب الإنسان وكرر ذنبه اعتاد على المعصية ونُزع من قلبه استقباح ذنبه وألمه الذي كان يشعر به، وصار يلتذ بذنبه ويشعر له بحلاوة، وإذا وصل المرء إلى ذلك بدأ في الهوان على الله.

قال الحسن: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار... يا أرحم الراحمين.

خاتمة

هذا ما يسره الله تعالى من هذا البحث، وكنت قد شرعت في كتابة بعض فصول أخرى زيادة عليه، ولكن قدر الله أن يخرج هكذا، ولعلها أن تضاف في طبعات أخرى إذا شاء الله ذلك سبحانه.

أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يعم النفع به.

وأقدم خالص شكري لجميع إخواني الكرام الذين أعانوني عليه حتى أتممته، ولهم من الله الثواب الجزيل.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٧ من ذي القعدة ١٤٢٣
٣٠/١/ ٢٠٠٣

خالد السيد محمد روشه



مُحتويَاتُ الكِتَابِ

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة